انتشار الإسلام

في القارة الإفريقية

تأليف

الدكتور حسن إبراهيم حسن

(مدير جامعة أسيوط (سابقاً)

الطبعة الثانية

١٩٦٤

ملتزم النشر والطبع

مكتبة النهضة المصرية

لأصحابها حسن محمد وأولاده

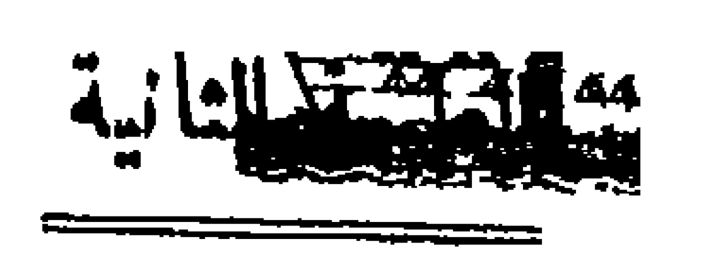
٩ شارع عدلي باشا بالقاهرة

انتشار الإسلام

في القارة الإفريقية

تأليف

الدكتور حسن إبراهيم حسن
(مدير جامعة أسيوط (سابقاً)



١٩٦٣


ملتزم النشر والطبع
مكتبة النهضة المصرية
لأصحابها حسن محمد وأولاده
٩ شارع عدلى باشا بالقاهرة

محتويات الكتاب

صفحة

الباب الرابع

الدول الإسلامية فى شرقى القارة الإفريقية

الباب الخامس

الثقافة العربية فى إفريقية

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

أما بعد ، فموضوع هذا الكتاب له أهمية بالنسبة إلى الإسلام والعروبة بوجه خاص وإلى الحضارة الإنسانية بوجه عام ، وهو : انتشار الإسلام فى القارة الإفريقية .

كانت إفريقية فى القرن التاسع عشر مركزاً لصراع الغرب ، وأخذت الدول الغربية ولا سيما الولايات المتحدة الأمريكية تتطلع إليها وتعتمد على المصادر الطبيعية الضخمة التى تزخر بها أراضيها الغنية .

وقد أخذت شعوب القارة الإفريقية ، التى يبلغ عدد سكانها نحو مائتين وثلاثين مليون نسمة ، تفيق من سباتها وتعمل على نيل استقلالها ، الأمر الذى عده السياسيون أعظم أحداث القرن العشرين ، بل عده بعضهم أعظم أحداثه على الإطلاق ، وذلك نتيجة حتمية للوعى القومى الذى انبعث بين شعوب الشرق الأوسط فى القرن التاسع عشر . وكان من أثر انبثاق هذا الوعى أن أعلن استقلال ليبيا ، وأعلن السودان استقلاله فى أول يناير سنة ١٩٥٦ ، وجلت الجيوش البريطانية عن منطقة قنال السويس نهائياً فى ١٨ يونية من هذه السنة ، ونالت تونس والمغرب استقلالها سنة ١٩٥٦ ، وانضمت توجولاند إلى ساحل الذهب وتكونت منهما جمهورية غانة التى احتفل باستقلالها فى ٧ مارس سنة ١٩٥٧ . ونالت نيجيريا استقلالها ، واحتفل الصومال الإيطالى باستقلاله سنة ١٩٦٠ ، كما اشتدت المعارك بين الوطنيين والجنود الفرنسيين

فى الجزائر من أجل التحرر ، وبدأت جنوب إفريقية تتخذ سياسة مستقلة عن السياسة البريطانية . وأخذت الدول المستقلة فى إفريقية ، وهى : مصر ، والحبشة ، وليبيريا ، وليبيا ، والسودان ، والمغرب ، والجزائر ، وتونس ، وغانة ، وغينيا ، وغيرها فى إنشاء اتحاد إفريقى يعمل على دعم العلاقات الإنسانية والاقتصادية ، وتأسيس اتحاد يضم الشعوب الحرة ، كما هو الحال فى آسيا وأمريكا ، وانعقد مؤتمر الشعوب الآسيوية ـ الإفريقية فى القاهرة فى ١٩ ديسمبر سنة ١٩٥٧ لبحث شئون هـذه الشعوب ، كما انعقد مؤتمر القمة فى الدار البيضاء فى شهر يناير سنة ١٩٦١ ، ومؤتمر القمة للشعوب الإفريقية فى أديس أبابا فى شهر يونية سنة ١٩٦٣ .

وقد قسمت هذا الموضوع إلى خمسة أبواب : بحثت فى الباب الأول منها الطرق التى سلكها الإسلام إلى إفريقية الشمالية والغربية ، وإلى بلاد النوبة ودنقلة ، وعلى الساحل الشرقى للقارة الإفريقية . وعالجت فى الباب الثانى وسائل انتشار الإسلام والعروبة فى هذه القارة ، فتكلمت عن الفرق الصوفية الهامة ، كالقادرية والتجانية والسنوسية ، وبحثت ما هنالك من ملاءمة بين الإسلام والمذهب الحيوى فى العقائد والشريعة . كما تكلمت عن أثر المعلمين والتجار فى نشر الإسلام ، وعن التفرقة العنصرية وأثرها فى نشر هذا الدين بين الزنوج .

وتناولت فى الباب الثالث تاريخ انتشار الإسلام والعروبة فى غربى إفريقية ، فقارنت بين شرقى هذه القارة وغربيها ، وعالجت انتشار الإسلام والعروبة فى المغرب الأقصى ، وكيف امتد الإسلام إلى حوض السنغال . ثم ألممت بالممالك التى قامت فى غربى إفريقية وما كان لها من أثر فى نشر الإسلام والعروبة فى جزء كبير من هذه القارة . وعرضت فى الباب الرابع للدول الإسلامية التى قامت فى شرقى إفريقية وما كان لها من أثر فى نشر الإسلام والعروبة . ثم تناولت

فى الباب الخامس الثقافة العربية فى غربى القارة الإفريقية وشرقيها ، فتكلمت على مراكزها وما كان لها من أثر فى نشر الإسلام والثقافة العربية .

وقد اعتمدت فى وضع هذا الكتاب على أنواع ثلاثة من المراجع :

الأول : ويشتمل على المراجع العربية الأصيلة والحديثة . ومن بين المراجع الأصيلة كتاب فتوح السودان تأليف عبد الرحمن السعدى التزكينى (باريس ١٨٩٨) وكتاب زهرة الآس فى بناء مدينة فاس لأبى الحسن الجزنائى (تلمسان ١٩٢٢) ، وكتاب الأنيس المطرب بروض القرطاس فى أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس لابن أبى زرع (أبسالا ١٨٤٤) ، وكتاب إتحاف أعلام الناس بجمال حاضرة مكناس (الرباط ١٩٤٤) لابن زيدان ، وكتاب فتوح الحبشة الذى ألفه عرب فقيه بين سنتى ١٥٤٠ ، ١٥٥٠ م (باريس ١٨٩٧ — ١٩٠٩) . كما اعتمدت على كتاب نزهة المشتاق للشريف الإدريسى ، وعلى رحلة ابن بطوطة الطنجى الذى زار بلاط سلطان مالى ، كما زار مدينة تمبكتو فى القرن الخامس عشر الميلادى ، وعلى كتاب العبر وديوان المبتدا والخبر للعلامة ابن خلدون ، وكتاب البيان المغرب فى أخبار المغرب لابن عذارى ، وكتاب وصف إفريقية للحسن الوزان ، كما اعتمدت على كتاب صبح الأعشى للقلقشندى الذى تكلم فى إسهاب على ممالك غربى إفريقية ، وأمدنى بمعلومات ذات غناء عن مملكة مالى وبلاد الحبشة ، وأفاض فى وصف الحياة الاجتماعية فى هذه البلاد ، وعلى كتاب المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار لتقى الدين المقريزى الذى أفاض فى وصف بلاد النوبة ودنقلة وبلاد البجة ، وعلى كتاب تاريخ السودان القديم والحديث لنعوم شقير (القاهرة ١٩٠٤) .

الثانى : أما النوع الثانى من المصادر ، فقد اعتمدت فيه على المادة التاريخية التى ظهرت ببعض مؤلفاتى ، مثل كتاب تاريخ الإسلام السياسى والدينى

والثقافى والاجتماعى بأجزائه الثلاثة ، ولا سيما مايخص المغرب و بلاد النوبة والسودان ، والمحاضرات التى ألقيتها بمعهد الدراسات العالية بجامعة الدول العربية فى السنة الدراسية ١٩٥٦ — ١٩٥٧ ، ورجعت إلى نصوص المحاضرات التى ألقيتها فى الإذاعة المصرية (ركن السودان) عن علاقة مصر بالسودان ، كما رجعت إلى رسالة صغيرة كنت قد وضعتها وأنا طالب بالجامعة المصرية القديمة فى علم وصف الشعوب وعنوانها : وصف إثنغرافى لأشهر الشعوب التى تسكن شرقى القارة الإفريقية . والمذكرات التى كنت قد أعددتها لا لقائها على طلاب معهد الدراسات العليا بجامعة الدول العربية فى السنة الدراسية ١٩٥٨ — ١٩٥٩ . ولكن اضطرارى للسفر إلى العراق لالقاء محاضرات على طلاب جامعة بغداد قد حال دون إلقاء هذه المحاضرات وعنوانها : مسقط وزنزبار فى عهد السيد سعيد (١٩٠٦ — ١٩٥٦) . أضف إلى ذلك المحاضرات التى ألقيتها على طلاب كلية الآداب بجامعة الرباط منذ سنة ١٩٥٩ .

ومن أهم هذه المؤلفات فى موضوع انتشار الإسلام والعروبة فى إفريقية ، كتاب الدعوة إلى الإسلام للأستاذ سير توماس أرنولد ، الذى عرفته معرفة شخصية وتتلمذت له فى جامعة لندن . وقد قمت بترجمة هذا الكتاب بالاشتراك مع تلميذى الدكتور عبد المجيد عابدين والأستاذ إسماعيل محمود النحراوى .

الثالث : وفى النوع الثالث من هذه المراجع ، اعتمدت على ما كتبه الأوربيون والأمريكيون عن القارة الإفريقية . ومن أهم هذه المراجع كتاب الدعوة إلى الإسلام تأليف سير توماس أرنولد . وقد ترجم إلى كثير من اللغات ، ووصفه الأستاذ رينولد نيكلسون المستشرق المعروف فى مقدمة الطبعة الثالثة التى ظهرت فى سنة ١٩٣٥ ، بقوله إنه يفوق حد الوصف من كل ناحية . وقد خصص سير توماس للقارة الإفريقية بابين ممتعين : فتكلم فى الباب الرابع

عن انتشار الإسلام بين مسيحيي إفريقية ، ولا سيا مصر والمغرب والنوبة والحبشة ، وبحث فى الباب الحادى عشر تحول البربر إلى الإسلام ، ودخول هذا الدين إلى السودان ، وقيام الممالك الإسلامية فى القارة الإفريقية ، كما بحث حركات الدعوة الإسلامية ، والطرق الصوفية ، وانتشار الإسلام فى هذه القارة .

ومن المراجع الهامة التى اعتمدت عليها أيضاً : كتاب « إفريقية اليوم » الذى قام بنشره « جروف هينز » . وقد طبع هذا الكتاب بمطبعة جامعة چونز هوبكنز بمدينة بولتيمور بالولايات المتحدة الأمريكية . ويشتمل على ستة أبواب أو مقالات ، تتناول الكلام على القارة الإفريقية من النواحى السياسية والدينية والثقافية والاقتصادية . ومما يسترعى النظر هذا الفصل الذى كتبه چورچ كاربنتر عن الدور الذى تقوم به المسيحية والإسلام فى إفريقية المعاصرة ، والفصل الذى كتبه سير فيليب ميتشيل الذى شغل منصب حاكم كينيا عن إفريقية والغرب ، والفصل الذى كتبه لورينزو تيرنر عن علاقة التربية العربية بأساليب الحياة فى إفريقية ، والفصل الذى كتبه كوفى بوسيا عن ساحل الذهب ونيجيريا فى طريق نيل الحكم الذاتى ، وما كتبه ڤيرنون ماككيى عن علاقة الولايات المتحدة الأمريكية بإفريقية ، ووليام مورجان الصغير عن معونة الولايات المتحدة الأمريكية الفنية والاقتصادية إلى إفريقية ، وپول نيتزه عن الولايات المتحدة وإفريقية من وجهتى النظر الأمريكية والإفريقية .

ومن المراجع الهامة أيضاً كتاب الوحدة والتنوع فى الحضارة الإسلامية . وقد نشره الأستاذ چوستاف ڤون جرونيباوم الأستاذ بجامعة كاليفورنيا بمدينة لوس أنجليس ، وطبع بمطبعة جامعة شيكاغو . ويشتمل هذا الكتاب على مقالات تعالج الإسلام باعتباره دينا وحضارة ، وتبحث التراث الثقافى ، وحالة البلاد الإسلامية وعلاقة العرب بالحضارة الإسلامية . وقد رجعت إلى هذا الكتاب

ولا سيما إلى الفصلين اللذين كتبا عن شمالى إفريقية وعن إفريقية الإسوائية ، وأفدت مما كتب عن تأثير الشريعة الإسلامية وكيف تطبق فى إفريقية ، وعن المؤثرات الإسلامية فى شرق إفريقية وغربيها .

وهناك كثير من المصادر الإفرنجية التى كتبت عن أجزاء معينة من القارة الإفريقية . نخص بالذكر منها كتاب وصف بلاد المغرب (باريس ١٨٦٠) تأليف جوينبول ودى غويه ، وكتاب فتح العرب لإفريقية (باريس ١٨٧٥) تأليف هنرى فورنيل ، وكتاب « المرابطون فى السنغال » (باريس ١٩١٦) تأليف موريس دى لافوس ، وكتاب تاريخ غربى إفريقية (كمبريدج ١٩٠٠) تأليف فيدج ، وكتاب تاريخ نيجيريا (لندن ١٩٥٥) تأليف سير آلان بيرنز الذى شغل منصب حاكم عام هذه البلاد سنين عديدة ، وكتاب قبائل نيجيريا الشمالية (لندن ١٩٢٥) تأليف ميك . وكتاب الجمعيات الإسلامية والحركة المرابطية فى السنغال والنيجر ، وكتاب الإسلام والمسيحية فى إفريقية تأليف فورچيه . ومن المصادر الهامة كتاب الحركات الاستقلالية فى المغرب العربى للأستاذ علال الفاسى ، وقد ترجم إلى اللغة الإنجليزية .

كذلك اعتمدت على كتاب الإسلام فى السودان (لندن ١٩٤٩) وكتاب الإسلام فى الحبشة (لندن ١٩٥٢) تأليف سبنسر ترمنجهام ، وكتاب المهدية (لندن ١٩٥٥) تأليف ثيوبولد ، وكتاب المواطن الأولى فى شرق إفريقية (لندن ١٨٥٦) تأليف ريتشارد بيرتون ، وكتاب دليل شرق إفريقية (لندن ١٩٥٥) الذى وضعه جوردون — براون ، وتاريخ إثيوبيا (لندن ١٩٣٨) تأليف بدج ، وتقرير عن جنوبى إفريقية (لندن ١٩٥٢) الذى وضعه ديفدسن . كما اعتمدت أيضاً على تقويم ويتاكار لسنة ١٩٦٣ ، وتقويم ستيتسمان لسنة ١٩٦٣ وغيرهما .

كما اعتمدت على ما ورد فى دوائر المعارف ولا سيما دائرة المعارف الإسلامية وفى كثير من المراجع الأخرى التى يجدها القارىء فى ثبت المراجع .

وقد بحثت هذا الموضوع من نواحيه المختلفة : سياسية ودينية واجتماعية وثقافية . كما يرى القارىء فى ذيل الكتاب تنبيها على المصادر لمن يريد التوسع فى مسألة من المسائل التى لم يسمح المجال بالتوسع فيها . وذيلت الكتاب بثبت ذكرت فيه المصادر مرتبة بحسب أحرف الهجاء بالنسبة لأسماء المؤلفين ، كما ذيلته بفهارس شاملة لأسماء الأعلام والأماكن والأسماء التى تدل على حوادث تاريخية هامة . كما زودت الكتاب أيضاً بسبع خرائط نقلتها من كتاب فيدج : تاريخ غربى إفريقية .

الجيزة أكتوبر ١٩٦٣ — حسن إبراهيم حسن

الباب الأول

مسالك الإسلام إلى إفريقية

١ — أهمية القارة الإفريقية

ينتظم الإسلام نحو نصف القـــارة الإفريقية التى تبلغ مساحتها نحو ١١٫٢٦٢٫٠٠٠ من الأميال المربعة ، أى خمس مساحة الـكرة الأرضية ، ويبلغ عـدد سكانها نحو مائتين وثلاثين مليون نسمة ، منهم أكثر من مائة وعشرين مليونا من المسلمين وفق الإحصائيات التى وردت فى كتب التقويم السنوى ، وبخاصة ذلك الـكتاب الذى وضعه ويتاكار لسنة ١٩٦٣ وكتاب السياسى السنوى. وسكان القارة الإفريقية يكونون ٨ ٪ من سكان الـكرةالأرضية ، وبين هؤلاء السكان خمسة ملايين من البيض .

وموارد هذه القارة بالغة الأهمية لتنوع هذه الموارد بتنوع البيئات واختلاف الموقع والمناخ . وهى تنتج نحو ٩٨ ٪ ماس العالم ، ٥٥ ٪ من ذهبه ، ٢٢ ٪ من نحاسه . كما تنتج نحو ثلثى محصول الـكاكاو العالمى وثلاثة أخماس إنتاج زيت النخيل . هذا عدا معادنها الأخرى كالمنجنيز والـكروم واليورانيوم ، بالإضافة إلى إمكانياتها العظيمة فى القوى المائية .

وهذه القارة مورد اقتصادى عظيم فى المعادن والزراعة والمواد الخام . وقد أدركت الدول الغربية هذه الحقائق ، فتسابقت إلى استعمارها للانتفاع بثرواتها الطبيعية ، وأدركت الولايات المتحدة الأمريكية هذه الحقائق فى السنين

الأخيرة ، فاهتمت باقتصاديات إفريقية اهتماماً عظيماً ، وعملت على الاحتفاظ بأسواقها وضاعفت رءوس أموالها المستغلة فيها . أضف إلى ذلك أهمية موقع هذه القارة الإستراتيجى كما قرر ذلك أمير البحر (الأميرال) ريتشارد كونولى فى الفصل الذى عقده لبيان أهمية إفريقية من الوجهة الاستراتيجية ، فقد ذكر الأهمية الكبرى للأماكن الآتية :

١ — طنجة .

٢ — قاعدة مراكش الجوية وقاعدة الدار البيضاء البحرية .

٤ — ليبيا .

٥ — إريتريا ـ الحبشة ـ الصومال ـ موانى مصوع وجيبوتى ومقدشيو .

٦ — جزيرة مدغشقر وأهميتها فى حماية مسالك المحيط الهندى .

٧ — رأس الرجاء الصالح ولا سيما قاعدة سيمونز تاون البحرية .

٨ — قاعدة دكار التى تحرس طرق المواصلات فى غربى إفريقية[١] :

٢ — الطرق التى سلكها الإسلام إلى إفريقية

ويرجع انتشار الإسلام فى القارة الإفريقية إلى عاملين أساسيين :

الأول : طبيعة الشعوب التى قامت بنشر الإسلام ، وكانت فى الغالب شعوباً بدوية رعوية أو شبه رعوية ، ولم تكن لها خبرة بركوب البحر أول الأمر ، بل كانت تمتطى ظهور الإبل والخيل ولا يستطيع أهلها التقدم إلا فى السهول المكشوفة .

الثانى : طبيعة الأرض التى انتشر فيها الإسلام وتسربت إليها جموع البدو . وكانت هذه البلاد الإسلامية تحيط بالصحراء الكبرى شمالا فى المنطقة الممتدة من حدود مصر الغربية حتى المحيط الأطلسى ، وجنوبا عبر وادى النيل حتى

---

(١) كونولى : إفريقية اليوم (بالإنجليزية) ص ٥٥

حدود النوبة ، وفى النطاق الرعوى الذى يحيط بهذه الصحراء من الجنوب من مصب نهر السنغال حتى السودان .

على أن الإسلام لم يستطع أن يتخطى الحواجز الطبيعية الكبرى وهى شلالات النيل ، وهضبة الحبشة ، ومنطقة البحيرات الكبرى وما يكتنفها من أدغال وغابات .

أما الصحراء فليس المقصود بها هنا النطاق الرملى الذى لاتستقيم فيه حياة ، إنما المقصود به المناطق شبه الصحراوية التى يسقط فيها قدر ضئيل من الأمطار ، لا يتيح للسكان حياة زراعية ممتازة ، إنما يتيح لهم حياة بدوية قائمة على التنقل والترحال من الشرق إلى الغرب أو من الشمال إلى الجنوب . كذلك نقصد بالصحراء بعض المناطق الزراعية الواقعة على حافة هـذا الإقليم فى الشمال أو فى الجنوب . وعلى هذا يكون مبدأ الحد الشمالى لهذا الاقليم عندالنهاية الجنوبية لتونس والجزائر والمغرب ، والحد الجنوبى هو المنطقة الواقعة شمالى نطاق الغابات الوسطى الممتدة من مصب السنغال إلى إقليم بُرنو فى غربى حوض النيل . أما الحد الغربى لهذا الاقليم فهو ساحل المحيط الأطلسى ، والحد الشرقى هو ساحل البحر الأحمر ، لأن هذا الاقليم يتخطى وادى النيـل إلى الصحراء الشرقية ، وكذلك شمال السودان حتى مدينة الخرطوم ، أو بعبارة أخرى ، يشمل جميع المنطقة الواقعة بين خطى عرض ٣٠ شمالا ، ٢٠ شمالا ، مع استثناء وادى النيل فى مصر ، وبعض السهول الجنوبية فى برقة وطرابلس .

وقد انتشر الإسـلام على مر الزمن بين مختلف القبائل وشتى الأجناس ، وسأحاول فى هذه الصفحات أن أتتبع تقدم الإسلام بين الوثنيين فى إفريقية الشمالية وعلى طول الساحل الغربى وفى النوبة ودنقلة ، وعلى طول الساحل الشرقى .

٣ - الطرق التى سلكها الإسلام إلى القارة الإفريقية

(أ) فى إفريقية الشمالية والغربية :

وقد أخذت شعوب القارة الإفريقية تفيق عن سباتها وتعمل على نيل استقلالها الأمر الذى عده السياسيون أعظم أحداث القرن العشرين ، بل لقد عده بعضهم أعظم احداثه على الاطلاق ، وذلك نتيجة حتمية للوعى القومى الذى انبعث بين شعوب آسيا وإفريقية فى الشرق الأوسط فى القرن التاسع عشر . وكان من أثر انبثاق هذا الوعى أن نال كثير من الدول الإفريقية استقلالها . وفى ١٩ مارس سنة ١٩٦٢ الماضى أبرم اتفاق وقف إطلاق النار بين الجزائر وفرنسا ، الأمر الذى يعد بحق من أعظم أحداث هذا العام . كما عملت الدول الإفريقية على إنشاء اتحاد إفريقى يقوم على دعم العلاقات السياسية والاقتصادية والثقافية وغيرها وتأسيس اتحاد يضم الشعوب الحرة فى هذه القارة .

ويلاحظ أن الإسلام قد نفذ إلى غربى القارة الإفريقية عن طريقين هما :

الأول : الطريق الساحلى عبر حوض السنغال ، وهو الطريق الذى سلكه المرابطون .

الثانى : طريق التجارة الذى يبدأ من إفريقية الشمالية متجهاً صوب الجنوب عبر واحات الصحراء إلى المدن الكبرى فى السودان .

وأهم المراكز التجارية فى غربى إفريقية بلاد غانة ، ومالى ، وجنى ، وتمبكتو (أو تمبكت) ، وكانو . ومن أهم مراكز التجارة فى شمالى إفريقية فى العصور الوسطى : القيروان ، وتونس وطرابلس .

وكانت هذه التجارة تسلك ثلاثة طرق رئيسية هى :

١ — الطريق من مراكش إلى منحنى نهر النيجر والمناطق الواقعة جنوبا .

٢ — الطريق من تونس إلى المنطقة الواقعة بين نهر النيجر و بحيرة شاد .

٣ — الطريق من طرابلس إلى المنطقة المحيطة ببحيرة شاد .

وقد انتشر الإسلام فى ربوع القارة الإفريقية فيما بعد ، فاخترق نطاق الغابات فى غربى هذه القارة ، وانتشر على طول الساحل الشرقى ، ودخل مع بعض المهاجرين إلى الكونغو . ومن الشرق نفذ إلى جنوبى السودان وهضبة البحيرات ، وقلب الهضبة الحبشية ، وتخطى الساحل الشرقى فى المناطق الداخلية إلى كينيا وتنجانيقا . كما نفذ إلى جنوبى إفريقية مع المهاجرين من سكان شبه القارة الهندية ، وما زال ينتشر إلى اليوم .

وهناك نهضة مباركة فى نشر الدين الحنيف انبثت بين مسلمى القارة الإفريقية فى جميع النواحى . فقد نفضوا عن أنفسهم غبار الماضى وشاركوا فى الحركات التحررية ، وتسنموا أعلى المناصب ، وقاموا بدور ملحوظ فى النشاط الاقتصادى والاجتماعى والثقافى . ولم ينسوا تقاليدهم الإسلامية ، وحرصوا عليها كل الحرص وتجاوبوا مع إخوانهم فى الدين فى كافة أرجاء العالم الإسلامى . ولنأخذ فى الكلام عن تلك المسالك الهامة فى شىء من التفصيل فنقول : إن الإسلام قد نفذ إلى القارة الافريقية عن ثلاثة طرق رئيسية هى :

الطريق الأول : طريق بلاد اليمن وحضرموت والبحرين والاحساء إلى الساحل الإفريقى الشرقى ومصوع و بربرة ، حيث أخذت هجرات المسلمين تتدفق على طول هذا الساحل الشرقى من خليج عدن حتى مدار الجدى على حافة المنطقة التى كان جغرافيو العرب يطلقون عليها اسم بر الزنج . على أن أول هجرة للعرب ترجع إلى زمن أبعد من هذا ، إذ يرجح بعض الباحثين أن استيطان العرب لافريقية الشرقية امتد فى العصور القديمة حتى سوفالا جنوبى نهر زمبيزى . وقد بنى المسلمون مدينة مقدشيو على ساحل المحيط الهندى ببلاد الصومال .

وذهب جماعة منهم إلى زنزبار ، حيث نشروا الإسلام بين أهلها الذين يطلق عليهم اسم « السواحلية » ، كما أسسوا مدينة كلوا ببلاد تنجانيقا الآن ، وفى الساحل الشرقى حتى مدينة مدغشقر ، بل لقد نفذوا إلى كينيا فاوغندة وإلى أقصى جنوبى القارة الافريقية ، أى إلى مستعمرة الرأس ، حيث نجد مسلمى هذه البلادمن سلالة أهل الملايو الذين جاء بهم الهولنديون فى القرن السابع عشر أو الثامن عشر ، كما يذكر سير توماس أرنولد[1] .

ولم تكن جهود العرب مقصورة على الساحل الشرقى أول الأمر ، بل لقد نفذوا إلى داخل القارة الافريقية ، حيث شق الإسلام طريقه إلى بلاد الحبشة والصومال على أيدى الدعاة والتجار ، كما نفذ الإسلام إلى أوغنده فى القرن التاسع عشر ،وإلى نياسالاند فى القرن العشرين .

والطريق الثانى الذى سلكه الإسلام إلى القارة الافريقية هو طريق النوبة ودنقلة ، وذلك بعد الفتح الإسلامى لمصر . ولم تكن السودان بلاداً مجهولة للعرب، فقد كان نهر النيل الطريق التجارى لهم ، على الرغم من وقوف مملكة النوبة المسيحية حائلا دون هؤلاء الفاتحين والمهاجرين . ولم يكن كل العرب المهاجرين تجاراً ، بل كان فيهم المتنقل سعياً وراء المراعى الخصبة والماء والكلأ ، فوجدوا فى نجاج السودان المترامية ما ينشدونه وتخلصوا من دفع الخراج ، كما وجدوا فى تجارة الرقيق والذهب والجواهر ضالتهم المنشودة ، وساعدهم على ذلك أن طبيعة السودان تشابه طبيعة بلادهم .

العرب ونشر الإسلام فى إفريقية

ولما ظهر الإسلام وامتدت فتوحه إلى فارس والشام ، وفتح العرب مصر فى عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، انتشر الإسلام فى القارة الإفريقية حتى بلغ مدينة أسوان جنوبا .

(١) ترجمة (الطبعة الثانية ١٩٥٧) حسن إبراهيم حسن ٣٧٧ — ٣٨٧ .

ويرجع النجاح السريع الذى أحرزه غزاة المسلمين إلى ما لاقوه من ترحيب المسيحيين وعلى الأخص من القبط ، وهم أهل مصر الأصليون الذين كرهوا الحكم البيزنطى بسبب فداحة الضرائب واستبداد الكنيسة البيزنطية بهم .

وفى عهد عمر بن الخطاب حاول العرب فتح بلاد النوبة ، فقد حاول عقبة ابن نافع فتحها على غير جدوى ، فهادن أهلها وعقد معهم صلحاً أشبه بمعاهدة اقتصادية ، على أن تمدهم مصر بالحبوب والعدس ، وتمد النوبة مصر لقاء هذا بالرقيق لفلاحة الأرض . ثم حاول المسلمون فتح بلاد السودان ونشر الإسلام فيه ، وإن كان هذا قد كلفهم ثمناً غالياً . ومع ذلك فقد عرف المسلمون أرض النوبة واختلفوا إليها لأغراض تجارية خالصة ، كما عرفوا أرض البجة (أو البجاة) الذين كانوا يقيمون على مقربة من عيذاب على البحر الأحمر وينتشرون بين النيل النوبى والبحر الأحمر فى الأراضى الممتدة بين أسوان ودنقلة تقريباً .

وقد اتصل العرب بالبجاة فى القرن الثانى الهجرى (الثامن الميلادى) بطريق البحر الأحمر وبطريق وادى النيل ، وخاصة من إقليم أسوان ، فرحلوا إليهم تجاراً واجتازوا مصر إلى بلادهم حاجين ، وهاجروا إلى مفاوز الذهب والزمرد منقبين ومستخرجين . كما استقرت جماعة منهم هنالك وبنوا المساجد والدور . وكان ذلك من العوامل التى ساعدت على دخول هؤلاء البجاة فى الإسلام وتعريبهم . وفى أواخر القرن الثالث عشر الميلادى كان الإسلام قد تسرب إلى أهالى مدن النوبة السفلى . وكان لزواج العرب بالنوبيات أثر كبير فى إسلام النوبيين .

دور المغرب فى نشر الإسلام بإفريقية

والطريق الثالث الذى سلكه الإسلام إلى القارة الإفريقية هو إفريقية الشمالية والغربية . ذلك أن العرب بعد أن تم لهم فتح مصر ، مدوا فتوحهم إلى

بلاد المغرب . وقد هيأ تأسيس مدينة القيروان فى إفريقية (وهى القطر التونسى الآن) على يد عقبة بن نافع سنة ٥٠ هـ ، للعرب مركزاً حصيناً اتخذوه قاعدة لنشر الإسلام فى شمالى القارة الإفريقية وغربيها .

ومن أهم طبقات المجتمع الإسلامى فى شمالى إفريقية شعوب البربر . وهم أهل البلاد الأصليون . وكان وقوع المغرب على ساحل البحر الأبيض المتوسط تجاه أوروبا سبباً فى تبادل سكانه حضارة الأمم المجاورة الى جانب حضارتهم وتقاليدهم العريقة التى يرجع تاريخها إلى أيام الفينيقيين الذين عرفوا المغرب قبل ميلاد المسيح بنحو ألف سنة .

وكان نجاح عقبة بن نافع فى نشر الإسلام بين البربر بطيئاً ، لانشغاله بحرب الروم الذين أنزل بهم الهزائم المتتالية . وكان ذلك سبباً أصيلا فى أن دبروا له مكيدة مقتله فى موقعة تهودا التى لعب فيها كسيلة دوراً قيل إنه كان بسبب استيائه لمعاملة عقبة بن نافع السيئة له ولصديقه ابن أبى المهاجر . وقيل — وهو الأرجح — إن الروم قد دفعوه إلى الإيقاع بالقائد العربى . ودليل ذلك أن تهودا كان بجانبها حصن رومى كبير .

ثم خلف عقبة : زهير بن قيس البلوى الذى استطاع أن يقتص لمقتل سلفه فقتل كسيلة وحطم مقاومة الروم ، ولكن الروم دبروا له مكيدة شبيهة بتلك التى دبروها لعقبة حيث اشتبك مع الأسطول الرومى على ساحل طرابلس . وكانت نهايته أن استشهد فى تلك المعركة . وكذلك لم يتمكن زهير بدوره من نشر الإسلام . ثم خلف زهيراً حسان بن النعمان ، وكان حريصاً على نشر الدين ، فكسر شوكة الروم الذين قويت عزيمتهم وانبعث فيهم الأمل فى استرداد بلاد المغرب من أيدى المسلمين ، فقاتلهم حسان قتالا مريراً وأنزل بهم الهزيمة ، ثم اتجه لمحاربة الكاهنة داهيا وقومها جراوة[1] . ولكن الكاهنة هزمت حساناً

---

(١) السلاوى : الاستقصا ج ١ ص ٩٢ .

الذى أنهكت جنده الحروب مع الروم ، فانسحب إلى طرابلس وظل بها خمس سنوات ، عاد بعدها إلى المغرب وهزم الكاهنة ، وبدأت مواهبه تظهر فى نشر الإسلام وفى تدوين الدواوين باللغة العربية . وقد ساوى بين العرب والبربر ، وكادت تفتح على يده صفحة جديدة فى تاريخ المغرب الإسلامى . ولكن القدر عانده ، فخلع من منصبه وخلفه موسى بن نصير الذى أتم فتح الأندلس سنة ٩٢ هـ مساهماً فى ذلك مع مولاه طارق بن زياد الذى كان ينوب عنه فى ولاية المغرب الأقصى ، متخذاً طنجة حاضرة لولايته .

وكان فتح بلاد الأندلس فتحاً للإسلام فى المغرب والأندلس معاً . ذلك أن معظم الجيش الذى فتح هذه البلاد كان من البربر بقيادة طارق بن زياد ، وقد شعر المغاربة لأول مرة بمساواتهم بالعرب ، وبدأت شخصية المغرب الإسلامى تدخل فى دورها الفعال ، إذ شعر البربر بعد فتحهم الأندلس ، أنهم أضحوا حماة الإسلام فى هذه البلاد ، وأن عليهم مهمة نشر هذا الدين ومناهضة المسيحيين .

وقد حرص الخلفاء على اختيار طائفة من الفقهاء ليعلموا البربر فرائض الإسلام ويفسروا لهم آيات القرآن الكريم ، وأظهر بعض ولاة المسلمين ، ولا سيما الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز ، حماسة فى إعلاء شأن الإسلام ، فقد أرسل مع واليه على شمالى إفريقية عشرة من الفقهاء ليفقهوا مسلمى المغرب .

على أن ثقة البربر بالدولة الأموية بالمشرق قد تزعزعت ، بسبب تسرب بعض فرق الخوارج ، كالإباضية والصفرية بينهم ، وقيامهم بنشر الدعاية ضد الحكم الأموى . وفى العصر العباسى الأول (١٣٢ ـ ٢٣١ هـ) غدا شمالى إفريقية مسرحا للفتن والقلاقل . ويعزى خروج البربر على ولاتهم من العرب إلى بعد

---

(١) السلاوى : الاستقصاء (الدار البيضاء ١٩٥٤) ج ١ ص ٩٢ .

هذه البلاد وفرضهم ضرائب ظن البربر أن الدين لم ينص عليها . يضاف إلى ذلك استفحال حركات الخوارج والشيعة ، حتى عمل بعض زعمائهم على الاستقلال عن الدولة العباسية ، وانضم بعض زعماء من العرب النازلين في هذه البلاد إلى البربر ، وخلعوا طاعة العباسيين ، وتأسست في المغرب ولايات مغربية مستقلة ، منها ولاية تاهرت التي أسسها عبد الرحمن بن رستم من الخوارج الإباضية ، وولاية سجلماسة (تافيلالت الحالية) التي أسسها بنو مدرار بمساعدة الصفرية الزناتيين ، وولاية تلمسان التي أسسها بنو قُرّة الصنهاجيون ، ودولة برغواطة في تامسنا (الشاوية الحالية) على ساحل المحيط الأطلسي .

من ذلك نرى أن أهل الشمال الإفريقي قد قاموا بدور ملحوظ في نشر الإسلام والثقافة الإسلامية .

وفي سنة ١٧٢ هـ قامت دولة الأدارسة على يد المولى إدريس بن عبد الله العلوي الذي سار إلى بلاد المغرب الأقصى مع مولاه راشد بعد أن بطش العباسيون بأهل البيت العلوي في موقعة فخ المشهورة سنة ١٦٩ هـ . وقد استقبلته قبيلة أوربة البرنسية ونشرت دعوته ، ولقي المولى إدريس من هذه القبيلة المغربية كل العون والتأييد في تأسيس دولة الأدارسة التي كانت أول دولة مستقلة عملت جهدها على نشر الإسلام في ربوع هذه البلاد .

ومما هو جدير بالملاحظة أن الدولة المرابطية تعتبر أول دولة وحدت المغرب الأقصى والأوسط وقامت بدور خطير في نشر الإسلام على الساحل الإفريقي الغربي و بلاد السودان ، ويجمع المرابطون في المغرب بين الجهاد والثقافة الدينية معا ، كما يتجلى ما فطروا عليه من نزعة دينية خالصة وحب للجهاد فيما ذكره عبد الواحد المراكشي[1] عن حضور المعتمد بن عباد صاحب إشبيلية إلى أمير

---

(١) المعجب في تلخيص أخبار المغرب ص ١٣٠ — ١٣٣ .

المسلمين يوسف بن تاشفين مستغيثاً به فى حربه مع ألفونس السادس ملك قشتالة ، فأجاب ابن تاشفين المعتمد إلى ما دعاه إليه قائلا : « أنا أول منتدب لنصرة هذا الدين ولا يتولى هذا الأمر أحد إلا أنا بنفسى » . وعبر ابن تاشفين البحر من سبتة فى أسطول مغربى يتألف من مائة سفينة ميمماً شطر الجزيرة الخضراء ، وأوقعت جيوش ابن تاشفين بجيوش ألفونس فى موقعة الزلاقة المشهورة ، التى تعد بحق من المواقع الحاسمة فى التاريخ ، فقد طال حكم المسلمين للأندلس أربعة قرون أخرى بفضل انتصار يوسف بن تاشفين فى هذه الموقعة .

ويرجع انتشار الإسلام فى الصحراء وفى حوض السنغال ، إلى عبد الله ابن ياسين . فقد ذكر ابن أبى زرع[١] أن يحيى بن إبراهيم شيخ قبيلة جدالة إحدى بطون صنهاجة استعان بعبد الله بن ياسين الذى عرف بالتقوى والتفقه فى الدين[٢] . ولما مات يحيى بن إبراهيم ، خلفه فى زعامة صنهاجة يحيى بن عمر اللمتونى . وقد ذكر ابن خلدون أن جدالة (بضم الجيم وفتح اللام) ، ولمتونة (بفتح اللام وسكون الميم) تنحدران من قبيلة صنهاجة (بفتح الصاد) الكبرى[٣] .

وقد وجد عبد الله بن ياسين أن البربر فى ذلك الوقت كانوا يهملون شعائرهم الدينية ، فأخذ يحثهم على إصلاح سلوكهم ، وسار مع تلاميذه المخلصين إلى جزيرة

---

(١) الأنيس المطرب (الرباط ١٩٣٦) ج ٢ ص ١١ — ١٦ .

(٢) راجع ابن خلدون (العبر ، طبعة بولاق ١٢٨٤ هـ ج ٦ ص ١٨٢) .

(٣) قال ابن خلدون : (العبر ، ج ٦ ص ١٥٢) أن بطون صنهاجة كثيرة : فنهم بلكالة وأنجفة ، وسرطة ، ولمتونة ، ومسوفة ، وجدالة ، ..) . وقال ابن خلدون (ج ٦ ص ١٨٢) « كان هؤلاء الملثمون فى صحاريهم .. وكانوا على دين المجوسية إلى أن ظهر فيهم الإسلام لعهد المائة الثالثة .. وجاهدوا جيرانهم من السودان عليه (أى على الدين) فدانوا لهم واستوثق لهم (أى للملثمين) الملك ، ثم افترقوا ، وكانت رياسة كل بيت منهم فى بيت مخصوص » .

بنهر السنغال[1] بنوا بها رباطاً اتخذوه مركزاً لعبادتهم ، وأخذوا يعلمون الناس التفقه فى دينهم والمحافظة على شعائرهم والإقلاع عن عاداتهم المخالفة للدين .

وسرعان ما تجمعت حول عبد الله بن ياسين طائفة من تلاميذه ، وخاصة من جدالة ومسوفة ولمتونة أخذت فى الزيادة حتى بلغت نحو ألف شخص قاموا على نشر مبادىء الإسلام . وقد ذكر ابن أبى زرع[2] أن عبد الله بن ياسين قال لتلاميذه :

« اخرجوا على بركة الله ، وأنذروا قومكم ، وخوفوهم عقاب الله ، وأبلغوهم حجته . فإن تابوا ورجعوا إلى الحق وأقلعوا عما هم عليه ، فخلوا سبيلهم ، وإن أبوا (من ؟) ذلك وتمادوا فى غيهم ولجوا فى طغيانهم ، استعنا بالله تعالى عليهم وجاهدناهم حتى يحكم الله بيننا » .

وأخيراً قاد عبد الله بن ياسين أتباعه وسماهم المرابطين .

وهذا الاسم مأخوذ من الرباط ، أى الخلوة التى اتخذها عبد الله بن ياسين فى جزيرته بنهر السنغال . هذا ما ذكره صاحب القرطاس . أما ابن عذارى (بكسر العين) فإنه يرى رأياً آخر فى هذه التسمية ، حيث يذكر أن تسمية المرابطين بهذا الاسم ترجع إلى موقعة حربية استبسلت فيها قبيلة لمتونة الصنهاجية ، فأطلق عليهم عبد الله بن ياسين اسم المرابطين لصبرهم وحسن بلائهم ورباطة جأشهم[3] .

---

(١) ويذكر ابن خلدون (العبر ج ٦ ص ١٨٣) عند كلامه على هذه الجزيرة : «وأخذه أبو بكر ، فنبذوا عن الناس فى ربوة يحيط بحر النيل من جهاتها ضحضاحاً فى المصيف وغمراً فى الشتاء » . ولعل ابن خلدون قد وقع فى هذا الخطأ الذى وقع فيه الشريف الادريسى (كتاب المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس ص ٨) إذ كان يطلق اسم النيل على نهر النيجر .

(٢) الأنيس المطرب ص ١٤ — ١٦ .

(٣) أحمد مختار العبادى : مجلة تطوان ، العدد الخامس ١٩٦٠ ص ١٤٦ — ١٤٧ .

ويرجع استعمال لفظ رباط إلى زمن أبعد من هـذا . ومعنى المرابطين : الأتقياء المجاهدون فى سبيل الله . وهذا اللفظ مأخوذ من الرباط ، وهو حراسة الحدود ، حيث كان يذهب المخلصون للدين لمساعدة حامياتها . وقد ورد لفظ رباط فى القرآن الكريم حين أذن الله سبحانه وتعالى للمسلمين بالجهاد ، أى القتال فى سبيل الله ، وذلك لتأمين الدعوة الإسلامية والدفاع عنها ضد من يقف فى سبيلها ، فقال جل شأنه فى سورة الأنفال (٢٢ : ٣٩ — ٤٠)

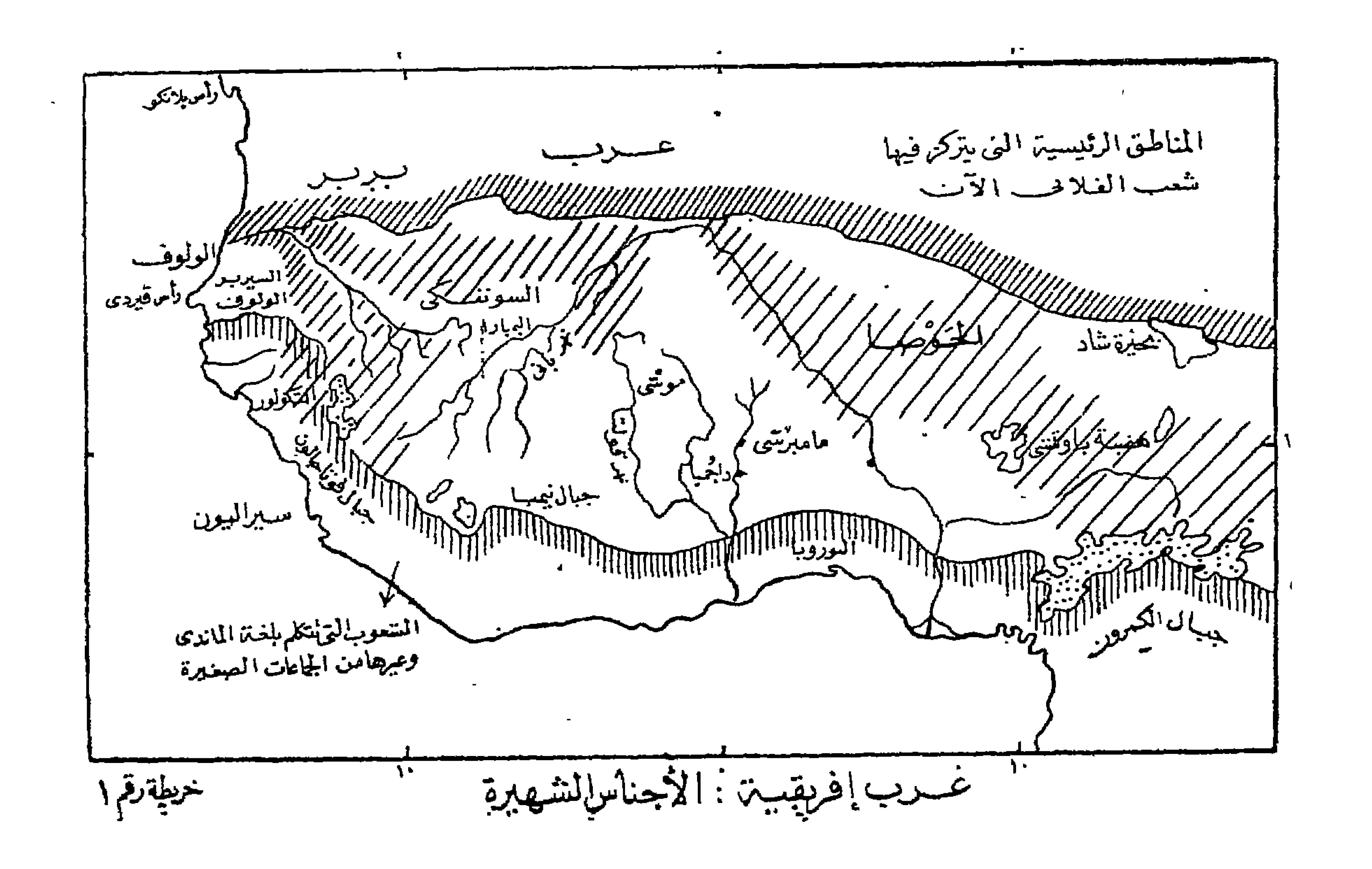
(وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ، ترهبون به عدو الله وعدوكم ، وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم ، وما تنفقوا من شىء فى سبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تظلمون) .

وقد قام المرابطون بدور هام فى نشر الإسلام فى القارة الإفريقية ، ومن المعروف أن الأمير أبا بكر بن عمر قلد ابن عمه يوسف بن تاشفين فى سنة ٤٦٢ هـ حكم بلاد المغرب الأقصى شمالا ، فاستطاع يوسف بفضل مواهبه الفذة أن يؤسس فى سنة ٤٦٦ هـ[١] الدولة المرابطية العظيمة التى خدمت الإسلام فى الأندلس ولم تأل جهداً فى نشره فى كثير من ربوع القارة الإفريقية .

ثم جاء الموحدون فنشر الإمام المهدى محمد بن عبد الله بن تومرت عقيدة التوحيد بين الناس بعد أن مهد لها طويلا بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ابتداء من مكة المكرمة وهو عائد من الشرق وانتهاء ببلاد المغرب . وقد ألف لأتباعه كتبًا فى عقيدته التوحيدية التى قام بشرحها بنفسه باللغة البربرية .

وكما كان للمرابطين فضل عظيم فى نشر الدعوة الإسلامية فى أجزاء واسعة من القارة الإفريقية والأندلس ، كذلك كان للموحدين أثر محمود فى الجهاد

(١) المصدر نفسه ص ١٤٥ — ١٤٦ .



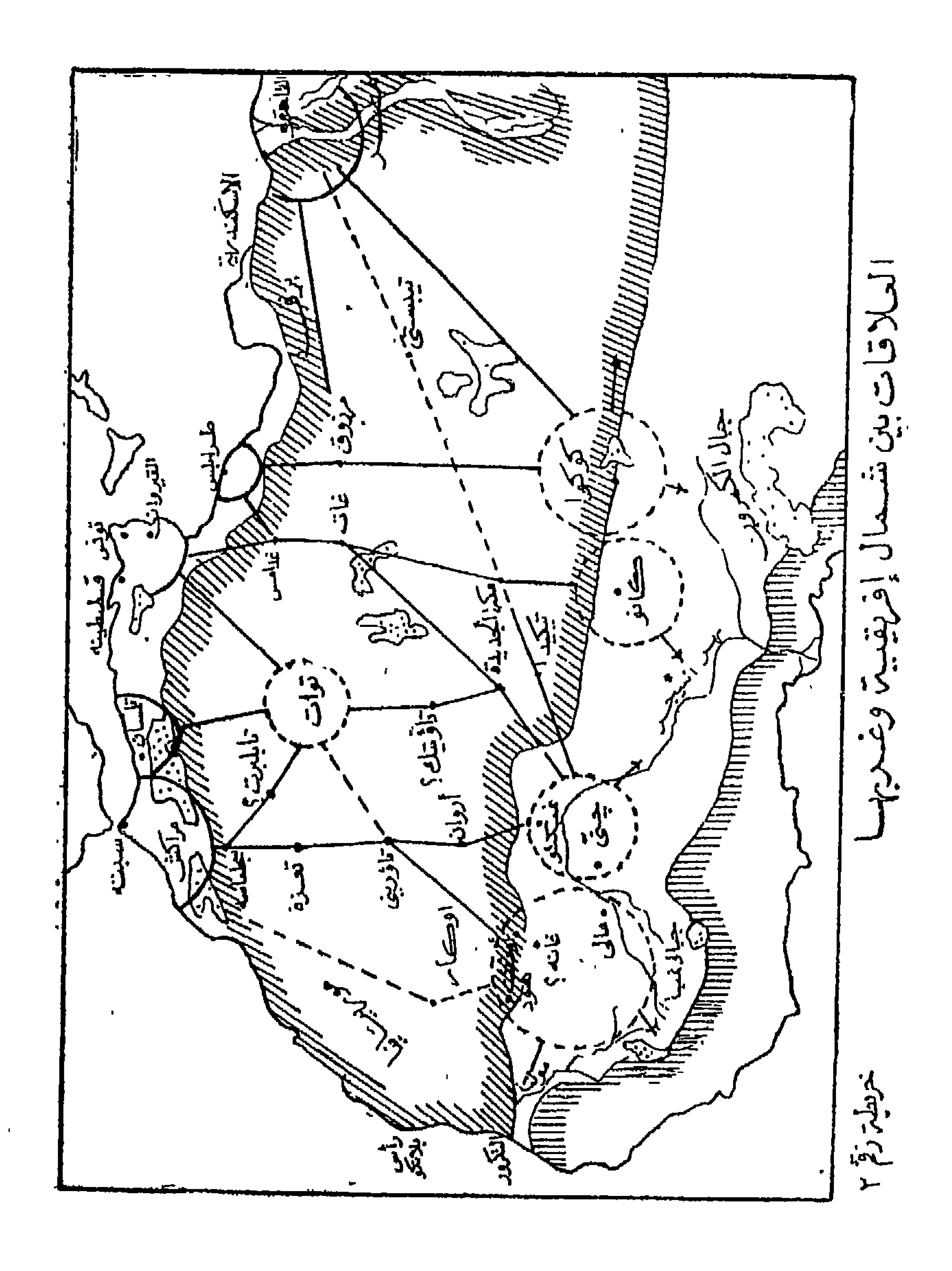
خريطة رقم ١ — غرب إفريقية : الأجناس الشهيرة

ضد الصليبيين بالأندلس . كما كان من مآثرهم نشر دعوتهم التي كانت تقوم على التوحيد . وقد ذكر صاحب الاستبصار أن دعوة التوحيد امتدت من طرابلس شرقاً حتى غانة وإلى قلب القارة الإفريقية . وكان للموحدين الفضل العظيم في نشر الثقافة عامة والإسلامية منها خاصة .

وفي سنة ١٠٧٦ م نشر المرابطون هذا الدين بين أسرة الفلاني (Fulani) على ساحل غينيا . كما ازدهر الإسلام على أيدي تجار الحوصا الذين ينتشرون في مساحات واسعة شمالي نيجيريا وخصوصاً في مقاطعات سُكتو وكانو وزاريا و باؤتشي (Bauchi) ، وفي جنوبي غانة حيث استقر المسلمون في بلاد تبعد عن سيراليون بنحو أربعين ميلامن ناحية الشمال ، وسموها بلاد المانديجو . كما نشر تجار الحوصا الإسلام بين قبائل أشنتي (Achanti) في ساحل الذهب (غانة الآن) . وفي داهومي . و يبلغ سكان مدينة لاغوس الواقعة على المحيط الأطلسي جنوب غربي نيجيريا وعلى أحد فروع النيجر الآن ، نحو أربعمائة وخمسين ألف نسمه ، وأغلبهم من المهاجرين والتجار .

(ب) في بلاد النوبة ودنقلة :

لما ذهبت جموع العرب المسلمين إلى جنوبي مصر في القرون التالية للفتح الإسلامي ، لم يكن السودان بلاداً مجهولة لهم . وكان نهر النيل الطريق التجاري للعرب منذ عصور بعيدة على الرغم من وقوف مملكة النوبة المسيحية في طريقهم كفاتحين أو مهاجرين . ولم يكن العرب المهاجرون تجاراً كلهم ، بل كان فيهم المتنقل سعياً وراء المراعي الخصبة والماء والكلأ ، فوجدوا في فجاج السودان المترامية ما ينشدونه ، وهم في ربوعه بعيدون عن دفع الخراج ، وفي مجال الرقيق والذهب والجواهر متسع أمامهم . كما أن طبيعة السودان تشابه طبيعة بلادهم في



العلاقات بين شمال إفريقية وغربها

خريطة رقم ٢

كل شيء ، وليس البحر الأحمر سوى كسر التوائى فى أرض واحدة ، شطرها شطرين ، هما السودان ، و بلاد العرب ، ولذلك تشابها جواً وهضاباً وفجاجاً .

ذلك أنه لما ظهر الإسلام وامتدت فتوحه إلى فارس والشام ، وفتح العرب مصر فى عهد عمر بن الخطاب على يد قائده عمرو بن العاص سنة ٢٠ هـ (٦٤٠ م)، لم يلبث أن انتشر فى هذه البلاد حتى بلغ أقصى إقليم أسوان جنوباً . و يرجع النجاح السريع الذى أحرزه غزاة المسلمين إلى ما لقوه من ترحيب الأهالى المسيحيين الذين كرهوا الحكم البيزنطى لما أضمروه من حقد شديد على علماء الدين . فإن اليعاقبة الذين كانوا يكونون السواد الأعظم من السكان المسيحيين عوملوا معاملة مجحفة من أتباع المذهب الأرثوذكسى التابعين للحكم البيزنطى . أضف إلى ذلك زيادة الضرائب زيادة ناء بها الأهلون الذين رحبوا بحكم المسلمين ، ليتخلصوا من الحكم البيزنطى واستبداد الكنيسة البيزنطية .

ففى سنة ٢١ هـ (٦٤٢ م) أرسل عمرو بن العاص ، عقبة بن نافع الفهرى إلى بلاد النوبة على رأس جيش من المسلمين ، ولكنه لم يتمكن من فتحها ، وهادن أهلها ، وعقد معهم صلحاً أشبه بمعاهدة اقتصادية : على أن تمدهم مصر بالحبوب والعدس ، وتمد النوبة مصر بالرقيق . ولكن ذلك لم يوهن همة الخليفة عمر ، فأمر عمرو بن العاص ، واليه على مصر ، أن يصل جهوده فى سبيل فتح السودان ونشر الإسلام فيه ، فأرسل عمرو ، عبد الله بن سعد ابن أبى سرح ، وكان من القواد الذين شهدوا فتح مصر ، على رأس جيش كبير دخل أرض النوبة ، ولكن النوبيين أثخنوا المسلمين بالنبل[1] .

وقد عرف المسلمون أرض النوبة أو المقرّة فى الشمال وأرض عُلوة فى الجنوب ، وكانوا يغشون بلاد النوبة مجتازين غير مقيمين . وعلى هذا عرف

---

(١) البلاذرى : فتوح البلدان (طبعة القاهرة ١٣١٨) هـ ص ٢٤٤ — ٢٤٥ .

العرب تلك البلاد معرفة اجتياز ومرور . وكان هذا الاجتياز والمرور لأغراض تجارية خالصة . كذلك عرف العرب أرض البُجَة (أو البُجاة) ، وكانوا يقيمون على مقربة من عيذاب على البحر الأحمر ، كما انتشروا فى بلاد النوبة وغيرها ولا سيما بين النيل النوبى والبحر الأحمر فى الأراضى الممتدة بين أسوان ودنقلة تقريباً . وبهذا يكون العرب قد اتصلوا بالنوبة والبُجة اتصال تعاهد ومرور ، وأن بلاد السودان قد عرفت اللاجئين السياسيين من العرب ، كبنى أمية الذين فروا من وجه العباسيين إلى بلاد النوبة أو السودان ، واستقروا بأرض الجزيرة بعد سقوط الدولة الأموية (سنة ١٣٢ هـ ٧٥٠ م) . ويظهر أن العرب اتصلوا اتصالا وثيقا بالبجة فى القرن الثامن الميلادى عن طريق البحر الأحمر وعن طريق وادى النيل ، وخاصة من إقليم أسوان ، فرحلوا إليهم تجاراً ، واجتازوا من مصر إلى بلادهم حاجين ، وهاجروا إلى مفاوز الذهب والزمرد منقبين ومستخرجين ، كما يظهر أن جماعة من العرب المسلمين كانوا أول من استقر هناك ، وبنوا مساجد لهم . فهذه كلها ظروف ومناسبات مهدت أول الأمر للعرب الاختلاط ببلاد النوبة وبالبجة ، وكانت من العوامل التى ساعدت على تعريب كل من هاتين المنطقتين .

وفى أواخر القرن الثالث عشر الميلادى كان الإسلام قد تسرب إلى مدن النوبة السفلى : وكان للزواج بين العرب والنوبيين أثر فى إسلام الأخيرين ، حتى أصبح صاحب دنقلة من رعايا صاحب مصر ، وجعل يخطب على منابر بلاده « لخليفة العصر وصاحب مصر » . وفى سنة ١٣١٩ م زالت النوبة جملة وأصبح ملوكها تحت تأثير القبائل العربية ، ومنذ ذلك الوقت تدفقت موجات من العرب ، ولا سيما عرب جُهينة إلى السودان حتى بلاد الحبشة ودارفور . وفى سنة ١٣٨٥م أخذ نفوذ بنى الكنز يمتد حتى منطقة عيذاب ، وكانت هناك

جماعات من الفونج ، وهو الجنس الزنجى الذى كانت له السيادة على سنار ، يدين بعضهم بالإسلام ، و بعضهم الآخر بالوثنية . وقد حاول تجار مسلمون من بلاد النو بة أن يدخلوا هؤلاء الوثنيين فى الإسلام .

(ح) على الساحل الشرقى :

جاء الغزاة إلى شرق إفريقية أول الأمر من آسيا وليس من أوربا ، لأن الأسيو يين أقرب إلى شرقى إفريقية من غيرهم . فزنجبار تبعد عن عدن بنحو ١٫٧٠٠ ميل وعن مسقط بنحو ٢٫٢٠٠ ميل ، كما أن الطريق المباشر عبر المحيط الهندى من ممبسة إلى بمباى لا يجاوز ٢٫٥٠٠ ميل ، وهى مسافة تبلغ طول حوض البحر الأبيض المتوسط .

وهناك أمور طبيعية سهلت الاتصال البشرى فى هذا الجزء من العالم منذ أن عرف الإنسان ركوب البحر . وهذا العامل الطبيعى هو الرياح الموسمية ، ففى شهر ديسمبر من كل سنة تهب هذه الرياح متجهة إلى الشمال الشرقى وتظل تهب حتى آخر فبراير . ثم يتكرر هبوب الرياح مرة أخرى من إبريل إلى سبتمبر فى اتجاه مضاد نحو الجنوب الغربى . ومعنى هذا أن هذه الرياح تحمل أهل زنجبار إلى سواحل الهند ثم تحمل أهل الهند إلى ساحل زنجبار عن طريق ساحل جزيرة العرب الجنو بى ومضيق عدن .

والتجار والمغامرون الذين يركبون سفنهم الصغيرة من ساحل بلاد العرب أو الخليج الفارسى فى الشتاء يتأكدون أن رياح هذا الفصل ستحملهم إلى ساحل القارة الإفريقية . و بعد أن يقضوا بضعة أشهر فى التجارة تحملهم الرياح إلى أوطانهم مرة أخرى . هذه الحقائق الطبيعية كان يعرفها منذ وقت بعيد العرب ، وخاصة عرب جنو بى الجزيرة من أهل الممالك القديمة ، مثل سبأ وحضرموت . وقد عرف الإغريق والرومان هذه الأسرار حول ٨٠ م ، واستطاعوا أن يبحروا

عبر البحر الأحمر إلى الجنوب ، ثم إلى شرقى إفريقية بحذاء الساحل لكى يتعاملوا مع أهالى المدن الساحلية ، ويصبحوا على مقربة من مصبات الأنهار وموارد الماء . وقد اشتغل العرب بالتجارة فى هذه البلاد ، وكانت لهم صلات قوية بسكانها الأصليين . وكانوا يجلبون منها العاج والرقيق وزيت النخيل وغيرها من الحاصلات الاستوائية .

ثم يخيم الظلام على تاريخ هذه البقاع حتى سنة ٦٠٠ م ، حين بدأ المحيط الهندى يخرج من ظلمة المجهول إلى التاريخ . فقد بدأ هذا المحيط يزدحم بالتجار الأسيويين ، وبخاصة تجار العرب الذين اعتادوا الرحلة إلى جنوبى بلاد الهند وجزيرة سيلان ، بل إنهم وصلوا إلى الصين نفسها . لكن ظهور الإسلام فى جزيرة العرب قد هيأ لهم الفرصة ليظهروا على مسرح التاريخ . وقد ظلوا من القرن السابع إلى القرن السادس عشر سادة المحيط الهندى بلا منازع .

وكانت العلاقات التجارية بين أوربا وآسيا تعتمد على السلع التى يحملها هؤلاء العرب إلى سواحل الخليج العربى والبحر الأحمر . وقد أنشأ العرب محطات تجارية قبل المحطات التى أنشأتها أوربا : أنشئوا محطات فى قاليقوط وساحل ملبار وملقا ، كما أقاموا علاقات تجارية مع جزر الهند الشرقية والفلبين وسيام (فيتنام) ، ثم استقر العرب كمهاجرين فى هذه البلاد . ويقال إنه أنشئت مستعمرة عربية كبيرة فى مدينة كانتون ، ولم تكن هذه التجارة مقصورة على العرب والفرس ، فإن أهل هذه البلاد الشرقية كانوا يرون الزيارات ، وبدأت السفن الهندية تصل إلى شرقى إفريقية وإلى ساحل بلاد العرب ، كما وصلت سفن الملايو وجاوة إلى مدغشقر ، وكذلك وصلت سفن الصين ، بدليل أن كثيراً من العملة الصينية التى ترجع إلى القرن الثانى الهجرى (الثامن الميلادى) والتى لا يبعد أن يكون العرب أو الهنود قد جلبوها معهم قد عثر عليها فى ساحل إفريقية. ولا يبعد أن يكون الصينيون أنفسهم قد تعاملوا مع أهالى هذه البلاد ، لأن

الـكتب الصينية القديمة تتضمن إشارات إلى شرق هذه القارة ، كما تتحدث بعض الـكتب الصينية التى ترجع إلى القرنين الثانى عشر والثالث عشر عن زنجبار وعن أهلها من العرب الذين يرتدون عباءات زرقاء مصنوعة من القطن وينتعلون بنعال حمراء .

من ذلك يتضح أنه كان لشرق إفريقية نصيب من هذه العلاقات التجارية فى المحيط الهندى فى العصور الوسطى . فقد وجدت سلع الهند طريقها إلى أوربا عبر آسيا . وأهم هذه السلع : العاج الذى يكثر فى هذه البلاد حيث تـكثر الفيلة التى تستخدم فى الحرب أو فى أغراض أخرى ، كذلك وجد الذهب فى مناجم روديسيا ، وكان الخشب يحمل من زنجبار إلى بلاد العرب . ولا ننسى تجارة الرقيق التى كانت تعد السلعة الأولى فى هذه التجارة .

غير أن هذه العلاقات التجارية التى قامت بين بلاد العرب وشرق إفريقية لم تتوطد إلا بنزوح العرب إلى هذه البلاد واستقرارهم فيها . وقد شاءت الصدف أن يكون هؤلاء المهاجرون من جنوبى الجزيرة العربية ، وأن يؤسس هؤلاء العرب إمبراطورية عربية تنشر نفوذها على الساحل الشرقى لهذه القارة[١] .

يقول سير توماس أرنولد إن هجرة العرب إلى شرق إفريقية كانت على أثر نفى الزيدية أتباع زيد بن على بن الحسين بن على سنة ١٢٢ هـ (٧٣٩ م) ، ويسمى هؤلاء الزيدية « أموزيديج »[٢] . على أن أول هجرة ترجع إلى زمن أبعد من هذا . فإن بعض الباحثين يرجحون أن استيطان العرب لإفريقية الشرقية امتد فى العصور القديمة حتى سوفالا جنوبى نهر زمبيزى . ومما لا ريب فيه أنه لما اشتد أذى قبيلة قريش للرسول فى مكة وتنكيلهم بالمسلمين ، فـكر

---

(١) Coopland, East Africa and Its Invaders, pp. 15—21.

(٢) الدعوة إلى الإسلام ، ترجمة المؤلف ص ٣٧٨ — ٣٧٩ .

فى هجرة المسلمين إلى بلاد الحبشة حتى استقر بعضهم فيها لما لقوه من حسن استقبال النجاشى و إكرام ضيافتهم وامتناعه عن ردهم إلى قريش . بيد أن الإسلام لم يظهر فى بلاد الحبشة إلا بعد حقبة طويلة من الزمن .

استمرت هجرات المسلمين بعد ذلك تتدفق على شرقى القارة الإفريقية ، فوفدت جماعة من نواحى البحرين على الخليج العربى فراراً من أمير الأحساء و بنوا مدينة مقدشيو (بضم الميم وفتح القاف وكسر الدال) على ساحل المحيط الهندى ببلاد الصومال ، ثم هاجرت جماعة أخرى فى الخليج العربى بزعامة أحد أبناء سلاطين شيراز ، وكانت أمه حبشية ، فراراً من سوء معاملة إخوته له ، وقد رحلت هذه الجماعة إلى زنزبار وأسست مدينة كِلْوا (بكسر الكاف وسكون اللام) ، وتقع ببلاد تنجانيقا حالا .

وقد استطاعت عمان فى ظل اتحاد أهلها أن تقاوم الأتراك والفرس . وكانت السيادة الإسلامية على هذه البلاد سيادة إسمية فحسب . وفى القرن الثانى للهجرة (الثامن الميلادى) تلقب حاكم عمان بلقب إمام ، وظل خلفاؤه يتوارثون هذا اللقب حتى القرن السابع الهجرى (الثالث عشر الميلادى) .

وقد أنشأ العمانيون ميناء مسقط على ربوة عالية تشرف على الخليج العربى . وعن هذا الطريق أخذوا يشتركون فى التجارة الإسلامية فى المحيط الهندى . وفى القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) عرف أهل عمان بمهارتهم فى بناء السفن ، و بلغوا ساحل زنجبار لجلب الأخشاب اللازمة لبناء سفنهم ، كما جلبوا ثمار جوز الهند . وسرعان ما أخذ العمانيون يستقرون فى شرقى القارة الإفريقية وينظمون شئونها .

وقد احتل العرب بعض المناطق الرئيسية من الشمال إلى الجنوب : فاحتلوا مقدشيو (بضم الميم وفتح القاف وكسر الدال) و براوة (بفتح الباء) وسبو

(بكسر السين) و بيت ، ولامو ومالندى (بكسر اللام) وكاليفى وممبسة (بضم الميم الأولى وسكون الميم الثانية وفتح الباء) وفمبا (بضم الفاء) و بمبا (بكسر الباء الأولى) وزنزبار ومافيا وكلوا وموزمبيق وسوفالا . وقد أنشىء أغلب هذه المدن على جزر ساحلية يبعد بعضها عن الساحل مثل زنجبار ، و بعضها الآخر يقرب منه مثل كلوا وممبسة . وهذه المدن عبارة عن موانىء ساحلية محصنة تحصيناً قويا ، ولكل منها مسجدها الجامع .

وفى سنة ١٣٣٥ م استطاعت إمارة بيت أن تستولى على الساحل الشرقى من مالندى إلى كلوا عدا زنزبار : ثم تبعتها إمارات ممبسة ومقدشيو وزنزبار . ولكن زعامة كلوا كانت أكثر هذه الزعامات بقاء وأكثر هذه الامارات قوة ، لأنها كانت تسيطر على منطقة سوفالا وتتجر فى الذهب منذ القرن الثانى عشر الميلادى . وقد استطاعت كلوا أن تحقق هذه الوحدة المنشودة إلى حد ما حتى جاء البرتغاليون فى القرن الخامس عشر ، فوجدوا أن هذه الإمارات لا تزال تسيطر على الجزء الجنوبى من ساحل كلوا . ولما ألقى فاسكو داغاما مراسيه فى موزمبيق وجد حاكم هذه المدينة الذى عين من قبل سلطان كلوا يجمع المكوس باسم هذا السلطان .

ولم يكن المجتمع فى هذه البلاد عربياً خالصاً . فقد كون العرب استقراطية حاكمة ، وكان الهنود يملكون أغلب سفن المحيط الهندى ويزاولون التجارة ويشتغلون بالشئون المالية و بالربا مما أدى إلى إضعاف النفوذ العربى . وإلى جانب الهنود نرى طبقة من السكان هى مزيج من العرب والإفريقيين ، وهم يتخاطبون باللغة السواحلية التى هى مزيج من العربية والإفريقية . وإلى جانب هذه الطبقة أيضاً طبقة العبيد من الزنوج الذين كانوا يُشترون بالمال ويقومون بالأعمال اليدوية فى الدور والمزارع والقوافل .

هذا عن طبيعة الجاليات التى استقرت على الساحل الشرقى للقارة الإفريقية . ولنتحدث الآن عن علاقة هـذه الجاليات بالوطن الإفريقى الأعظم فيما وراء البحيرات العظمى .

استطاع العرب أن يسيطروا على هذه الشعوب الزنجية بفضـل مدنهم الحصينة وأسلحتهم المتفوقة وسفنهم الـكثيرة وثرائهم الجم . ويظهر أنه قد ساد بينهم نوع من التفاهم والتعـاون ، وبدأ العرب يتزوجون من هؤلاء الأهالى وتـكون من ذلك العنصر السواحيلى الذى يتـكلم اللغـة العربية ويدين بالإسلام[1] .

ولما كانت الإبل لا تستطيع أن تسلك الطرق التجارية فى مواسم الأمطار ، اعتاد التجار أن يتخذوا فى الأماكن الداخلية أماكن يلجئون إليها ويقيمون فيها شهراً أو أكثر يمـارسون فيها أعمالهم التجارية . وفى هذه الطرق أنشأ التجار بعض الأماكن الداخلية التى استقروا فيها . ولم تـكن هناك علاقات تجارية فى أوقات الجفاف أو اختلاط اجتماعى كما كانت الحال فى المناطق الساحلية . ومع ذلك فإن هذه العلاقات المحدودة تركت أثراً فى الإفريقيين الذين رأوا أقواماً غرباء للمرة الأولى ، وأخذوا عنهم أفـكاراً جديدة ، وبدأوا يخرجون من أفقهم الضيق المحدود ، تبهر أبصارهم الملابس المزركشـة والعقود المتلألئة والأوانى النحاسية البراقة .

أما العبيد الذين كان العرب يجلبونهم فقد استبقى العرب بعضهم للعمل فى مدنهم الساحلية أو فى مزارعهم ، وجندوا بعضهم فى الجيش الإقليمى الذى كونوه وحملوا أكثرهم إلى أسواق الرقيق ، لحمل بعضهم إلى مصر ومنها إلى بلاد اليونان أو إلى إيطاليا أو إلى آسيا . ولم يشعر هؤلاء العبيد بشىء من العنت أو الاضطهاد

---

(١) رحلة ابن بطوطة ج ١ ص ١٦٣ . كويلاند ص ٢٢ — ٢٩ .

لأن الإسلام يحث على حسن معاملة الرقيق . كذلك أرسل هؤلاء الرقيق إلى الهند واتخذوا منطقة البنغال الإسلامية مركزاً لهم . ويقال إنه كان لدى الملك ركن الدين الغورى فى سنة ١٤٧٤ م ثمانية آلاف من هؤلاء الزنوج . وكان أول ملوك الهند الذى أعلى من شأنهم ورفعهم إلى أرقى المناصب ، ولكنهم ثاروا فى عهد خلفه فتح شاه (١٤٨٦ م) .

ويبدو أن هؤلاء الذين اشتغلوا بتجارة الرقيق قبل ظهور الإسلام لم يجدوا فيما وراء الهند شرقا أسواقا يروجون فيها تجارتهم التى ظلت حتى عهد الاستعمار الأوربى . ومما هو جدير بالملاحظة أن البرتغاليين كانوا أول من زاول تجارة الرقيق فى غربى إفريقية بعد العرب ، وكانوا لا يستخدمون الزنوج فى أعمالهم فحسب بل كانوا يصدرونهم أيضاً .

ولم يحاول العرب أن يستغلوا المواد الزراعية للبلاد ، وإن كانوا قد جلبوا البرتقال وبعض الفواكه الأخرى من الشرق وزرعوا النخيل وأدخلوا زراعة الذرة والفول والأرز فى الأراضى الواقعة حول مجارى الأنهار . ولكن هذه الزراعة كانت مقصورة على استهلاكهم المحلى ، وكذلك كان شأنهم فى تربية الماشية . أما منتجات البلاد التقليدية مثل العاج والذهب وجوز الهند والرقيق فقد كانت عماد صادراتهم . وقد أعجب ابن بطوطة الذى وقف على مستوى الحياة العربية فى البلاد الواقعة فى حوض البحر الأبيض المتوسط فى القرن الرابع عشر الميلادى ، لذلك الثراء العريض والحياة المترفة التى رآها فى شرقى إفريقية ، فهو يتحدث عن كلوا ويقول إنها أجمل بقاع العالم وأحسنها بناء ، ويذكر أن ممبسة مدينة عظيمة ، ويشيد بجمال مقدشيو التى زارها فى سنة ١٣٣٢ م ويقول إنها كانت أعظم مدن الساحل الشرقى .

وكان المصلون فى مقدشيو يحجون إلى مسجدها الجامع فى مواسم معلومة .

وقد أعجب ابن بطوطة بما عرف به أهل هذه البلاد من الورع والتقوى[١] ، ويقول ابن بطوطة إنه إذا وصل أحد المراكب إلى مقدشيو صعد إليه بعض الشبان من رجال السلطان فاستفسروا عن كل مايتعلق بالمركب : من أين قدم ؟ وسألوا عن اسم صاحبه ، واسم ربانه ، وعن حمولته ، ووقفوا على أسماء المسافرين وعرضوها على السلطان ، فيأمر بإنزال من يستحق التكريم فى دار الضيافة . ويقص علينا ابن بطوطة أن قاضى المدينة وتلاميذه استقبلوه عند قدومه واستضافوه بضعة أيام بدار الطلبة باعتباره ضيف السلطان ، وقدموا له أحسن الطعام ، « وطعامهم الأرز المطبوخ بالسمن يجعلونه فى صحف خشب كبيرة ويجعلون فوقه صحاف الكوشان وهو الأدام (بضم الألف الثانية مع الهمزة) من الدجاج واللحم والحوت (أى السمك) والبقول ، ويطبخون الموز قبل نضجه فى اللبن الحليب ويجعلونه فى صحفة ، ويجعلون اللبن الرائب فى صحفة ويجعلون عليه الليمون المصبر (بضم الميم وفتح الصاد وفتح الباء مع التشديد) وعناقد الفلفل المصبر المخلل والمملوح والزنجبيل . . . والواحد من أهل مقدشيو يأكل قدر ماتأكله الجماعة منا . « وهم فى نهاية من ضخامة الجسوم وسمنها »[٢] .

بل لقد ورد ذكر مقدشيو فى حوليات الصين ، ولا سيما فى عهد أسرة منج (بكسر الميم وسكون النون) . ويتحدث المؤرخ الصينى عن جفاف إقليم الصومال وكثرة مرتفعاته وقلة أمطاره ، ويذكر أن الدور مبنية من الحجر . وكانت مقدشيو أهم مدن شرقى إفريقية ، وخاصة فى التجارة مع الصين ، وقد بلغت أوج عظمتها فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر . وفى سنة ١٤٣٠ م زار الأسطول الصينى مقدشيو . ولما جاء الأوربيون إلى هذه البلاد التى لم تطأها أقدامهم من

---

(١) رحلة ابن بطوطة ج ١ س ١٦٠ .

(٢) رحلة ابن بطوطة ج ١ س ١٦٠ .

قبل أعجبوا بمــا بلغه هذا المجتمع من حضارة لا تقل عما ألفوه فى أوربا . وكان شيخ مقدشيو ورجال حاشيته أول من رآهم فاسكو داغاما من أهالى هذه البلاد . وكانوا يرتدون عباءات من المخمل والقطيفة المنسوجة بخيوط الذهب ، وعمائمهم منسوجة بخيوط الذهب والفضة ، وسيوفهم وخناجرهم مكفتة بالفضة . ولم ينزل داغاما بهذه المدينة وإنما لاحظ أنها مدينة عظيمة تتكون بيوتها من طوابق عدة وقصور شاهقة تحيط بها أربعة أبراج[1] .

وفى مدينة مالندى الــكبيرة استقبل مبعوث داغاما استقبالًا حافلًا فى قصر الملك ، وكان مفروشاً بالأبسطة الفاخرة ومقاعده من العاج والذهب . وقد أهداه الملك قطعتين من القماش الملون المنسوج بخيوط الذهب وخاتماً عليه فص جميل . وقد وصف هذا البرتغالى مدينة كلوا فقال إنها مدينة إسلامية عظيمة ، بيوتها مبنية من الحجر والجص ، وشوارعها نظيفة ، وأبواب دورها من الخشب المنحوت نحتا بديعا ، وتحيط بها البساتين والجنان ، ويكثر بها الذهب . أما أهلها فبعضهم بيض الوجوه وبعضهم سود الوجوه ، يرتدون الملابس الحريرية والقطنية ويتحلى نساؤهم بالذهب والفضة ، ويضعن اللآلئ فوق آذانهن .

ويصف هــذا البرتغالى ممبسة فيقول إنها ميناء عظيمة ترسو فيها السفن الــكبيرة التى تبحر إلى جزر زنجبار .

أما فى الجزر الصغرى مثل مافيا وبمبا وزنجبار ، فإن أهلها يعيشون عيشة قوامها البذخ والترف ، ويرتدون الملابس الحريرية ، والنساء يخرجن إلى الأسواق وعليهن حلى من الذهب والجواهر[2] .

وهكذا نرى مدناً عربية أخرى تأخذ فى الظهور على طول الساحل الشرقى

(١) كوبلاند ص ٢٢ — ٣٦ .

(٢) رحلة ابن بطوطة ج ١ ص ١٦١ .

للقارة الإفريقية من خليج عدن حتى مدار الجدى على حافة المنطقة التى كان جغرافيو العرب يطلقون عليها اسم بر الزنج ، وذلك بسبب اختلاف جموع كبيرة من العرب إلى هذه البلاد الساحلية[1] .

وكانت جهود العرب مقصورة على الحدود الساحلية أول الأمر ، ثم أوغلوا فى داخل القارة الإفريقية المتاخمة للساحل حيث صادف الإسلام نجاحًا كبيراً بين قبائل الجلا (Galla) الذين استوطنوا بلاد الحبشة ، كما انتشر هذا الدين بين قبائل الصومال . وقد انقسم هؤلاء المهاجرون إلى سبع قبائل تسمى وَلُوجا ، وهو اسم الجنس الذى ينتمون إليه . وكان أكثر المسلمين يقيمون فى جنوبى بلاد الحبشة .

وقد حاول دعاة المسلمين أن يشقوا طريقهم إلى بلاد الحبشة وأن ينتشروا على حدودها الشرقية بالإضافة إلى من كان يفد إلى هذه البلاد من التجار . وكان هؤلاء الدعاة والتجار يفدون إلى شرق القارة الإفريقية عن طريق بلاد اليمن وحضرموت والبحرين ومصوع وزيلع و بربرة . وأخذ الإسلام يشق طريقه معهم إلى بلاد الحبشة والصومال ، ليس عن طريق الفتح والغزو ، بل عن طريق التجارة ، حيث أخذ التجار المسلمون يفدون على هذه البلاد و يدخلون الكثيرين فى الدين الإسلامى .

وكذلك شق الإسلام طريقه إلى أوغندة فى النصف الأول من القرن التاسع عشر ، فدخلت ولاية بوجوسا (Bugosa) فى شمالى هذه البلاد فى الإسلام فى سنة ١٩٠٦ م ، كما شق الإسلام طريقه من الساحل الشرقى إلى « نياسالاند » على أيدى العرب وخلفائهم الياءوس (Yaos) المسلمين ، فانتشر بسرعة غريبة فى أوائل القرن العشرين . وعلى أيدى العرب أيضاً انتشر الإسلام بين السواحلية أهالى

---

(١) سير توماس أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ترجمة المؤلف ص ٣٧٩ .

زنزبار ، وفى جزيرة مدغشقر حيث تحولت قبيلة أنتيمورونا (Antimorona) التى تحتل جزءا كبيراً من الساحل الشرقى ، بل لقد نفذ إلى كينيا وأوغندة وتنجانيقا وإلى أقصى جنوب القارة الإفريقية ، أى إلى مستعمرة الكاب حيث نجد مسلمى هذه البلاد من سلالة أهل الملايو الذين جاء بهم الهولنديون فى القرن السابع عشر أو الثامن عشر[1] .

ويمكن أن نلخص المسالك التى سلكها الإسلام إلى القارة الإفريقية فيما يلى :

١ — طريق شمالى إفريقية : مصر ، برقة ، طرابلس ، إفريقية (بلاد تونس) ، المغرب الأوسط (الجزائر وجزء من مراكش) ، بلاد السوس الأقصى إلى مصب السنغال . ويتبع هذا الطريق طريق بحرى بعد نمو البحرية الإسلامية : من ثغور الشام ومصر إلى ثغور المغرب الأقصى (مراكش) .

٢ — طريق صحراوى : من واحات مصر الغربية ماراً بجنوب بلاد المغرب ، حتى غربى القارة الإفريقية .

٣ — طريق القوافل : من بلاد المغرب الأقصى إلى شمالى السودان ، ولا سيما من جنوبى تونس إلى بلاد بُرْنو غربى بحيرة شاد ، ومن جنوبى الجزائر إلى بلاد « الحوصا » شمالى « نيجيريا » ، ومن جنوبى مراكش إلى مصب السنغال ومنحنى النيجر .

٤ — والطريق الرابع يسير عبر الصحراء الشرقية ووادى النيل إلى بلاد النوبة وشمالى السودان .

٥ — والطريق الخامس من جنوب بلاد العرب إلى ساحل إفريقية الشرقية .

---

(١) راجع سير توماس أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ، ترجمة ص ٣٨١ — ٣٨٧ .

الباب الثانى

وسائل انتشار الإسلام فى القارة الإفريقية

١ — الفتح

انتشر الإسلام فى القارة الافريقية عن طريق الجهاد أو القتال فى سبيل الله. ومن أروع مظاهر الإسلام أنه وضع الأسس والمبادىء العامة التى تمجد المثل العليا والآداب الرفيعة ، وتنظّم المعاملات بين أفراد الجماعة الإسلامية . كما عُنى الإسلام بالأسرة ، وقرر مبدأ حقوق الإنسان ؛ فوضع أساس الحرية والاخاء والمساواة والتسامح الدينى ، وخلف للإنسانية الحديثة هذا التراث المجيد من فلسفة وأدب وفن ونظم .

والقرآن الكريم يعترف بالأديان السماوية الأخرى ، وبالأنبياء ، كموسى ، وعيسى ، ويفرض على المسلمين أن يعترفوا بهذا كجزء مكمّل للعقيدة الإسلامية ، وفى ذلك يقول الله سبحانه وتعالى فى سورة البقرة (٢ : ٢٨٥) : (آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كلٌ آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله ، وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير) .

وقد حث القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة ، المسلمين على نشر الإسلام وإشاعة المحبة بين الناس جميعاً ، وقرّر الله سبحانه وتعالى معنى السلام ، فسمى نفسه السلام ، فقد قال فى سورة الحشر (٥٩ : ٢٣) : (هو الله الذى لا إله إلا هو الملك القدُّوس ، السلام المؤمن المُهَيْمِن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله

عما يشركون). وقال فى سورة إبراهيم (١٤ : ٢٣) : (وأُدْخِل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنَّاتٍ تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها بإذن ربِّهم تحيَّتهم فيها سلام).

وإن تفشى الوثنية ، وانحراف اليهود والنصارى عن المبادىء التى وردت فى التوراة والأنجيل ، قد مهـدا السبيل لعمومية الرسالة المحمدية . ذلك أن المسيحية كانت فى عصر النبوة مذهباً مُعقداً ، تعددت فيه الفرق واختلفت . ولم يكن اليهود قبيل ظهور الإسلام مزوَّدين بمعلومات كافية ، وإن كانوا قد قد عرفوا من التوراة شيئاً عن البعث والثواب والعقاب ، وكان إلى جانب الوثنية واليهودية والمسيحية ديانات أخرى ، كالصابئة التى يعبد أتباعها النجوم والـكواكب ، والزرادشتية (بفتح الزاى والراء وتشديد الدال مع الضم) ، نسبة إلى زرادشت نبى الفرس القدماء ، ويقول أتباعها بوجود قوتين هما الخير والشر ويرمزون لإله الخير بالنور ولإله الشر بالظلمة[1] .

الاسلام رسالة عامة

لذلك كانت الرسالة المحمدية رسالة عامة لجميع البشر . يؤيد ذلك كتب الرسول الـكريم إلى الملوك والأمراء فى الجزيرة العربية وفى خارج الجزيرة العربية . فقد بعث رسله إلى إمبراطور الروم ، وإلى كسرى فارس ، وإلى نجاشى الحبشة ، وإلى المقوقس عامل مصر من قبل إمبراطور الروم ، وإلى أمير بلاد اليمامة ، وإلى أمير غسان بأطراف الشام ، وإلى صاحب البحرين وغيرهم .

وتدل هذه الـكتب دلالة واضحة على ما تردد ذكره فى القرآن الـكريم من مطالبة الناس جميعاً بقبول الإسلام . فقد قال الله سبحانه وتعالى فى سورة

---

(١) راجع الشهرستانى : الملل والنحل (المطبعة الأدبية ، القاهرة ١٣١٧ هـ) ج ٢ ص ٧٧ — ٧٨ .

ص (٣٨ : ٨٧ ـ ٨٨) : إنْ هو إلاّ ذكرٌ للعالمين ولتعلمُنّ نبأه بعد حين) .
وقال فى سورة الفرقان (٢٥ : ١) : (تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا) ، وفى سورة سبأ (٣٤ : ٢٨) : (وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً ولكنّ أكثر الناس لا يعلمون) ، وفى سورة آل عمران . (٣ : ٨٥) : (ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يُقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين) .

ويؤيد عمومية الرسالة المحمدية للجنس البشرى قول الرسول الكريم متنبئاً أن بلالاً أول ثمار الحبشة وأن صهيباً (بضم الصاد وفتح الهاء وسكون الياء) أول ثمار الروم ، وأن سلمان أول ثمار الفرس . وإن الأحاديث النبوية لتدل دلالة واضحة على حسن معاملة الإسلام لأهل الذمة . فقد روى أن آخر ما تكلم به الرسول أنه قال : « احفظونى فى ذمتى » .

لماذا أذن للمسلمين بالجهاد؟

ولقد زعم بعض المغرضين أن الرسول الكريم أكره الناس على قبول الإسلام . ولكن هذا الزعم لا يتفق مع صريح قوله تعالى فى سورة البقرة : (٢ : ١٥٦) : (لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغىّ) (بفتح الغين) .

وقد أذن للمسلمين بالجهاد ، أو القتال فى سبيل الله ، فى آيات بعضها نزل بمكة وبعضها نزل بالمدينة . وإنما أذن الله تعالى بالقتال لأمور منها .

(١) الدفاع عن النفس ، فقد أمر الله سبحانه وتعالى المسلمين أن لا يعتدوا على غيرهم ، وإنما يقاتلون من يعتدى عليهم ، كما أمرهم أن يكفُّوا عن قتال عدوهم إذا جنح إلى الصلح . فقد جاء فى سورة البقرة (٢ : ١٩٠) : (وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين) .

ولم يكن قتال المسلمين فى جهادهم قائما على البدء بالسيف والاحتكام إلى القوة كما يزعم بعض الطاعنين فى الجهاد الإسلامى ، إذ كانت قاعدة الجهاد أن يعرض المسلمون فكرة الدين الحنيف على الناس عرضاً سلمياً : فإن أجابوا دخلوا الاسلام وكان لهم ما للمسلمين وعليهم ماعليهم ، فإن أبوا عرض المسلمون عليهم قبول الجزية ، فإن أطاعوا كانوا أهل ذمة ، على المسلمين أن يقوموا بحمايتهم وحماية عقيدتهم وأولادهم ونسائهم وأموالهم ، فإن أبوا كان معنى هذا أنهم يفضلون إشهار السيف فى وجه المسلمين . وكان معنى هذا بالتالى أنهم سيبدءون المسلمين بالعدوان ، لأن الرفض كان يقترن بالعدوان فى العادة : فكان على المجاهدين المسلمين أن يردوا العدوان تمشياً مع ماجاء فى سورة البقرة (٢ : ١٩٤) (فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم) ومع ذلك فإن هؤلاء المسلمين الذين كانوا يحاربون للدفاع عن أنفسهم كانوا فى الواقع يجنحون إلى السلم حين يجدون فى العدو هذا الاستعداد تمشياً مع قوله تعالى فى سورة الأنفال (٨ : ٦١) : (و إن جنحوا للسلم فاجنحْ لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم)

(٢) وكذلك أذن للمسلمين بالقتال لتأمين الدعوة الإسلامية والدفاع عنها أمام من يقف فى سبيلها . فقد جاء فى سورة النساء (٤ : ٧٤ فليقاتلْ فى سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة . ومن يقاتل فى سبيل الله فيُقتلْ أو يغلبْ فسوف نؤتيه أجراً عظيما) .

وقد يسأل بعض المستفسرين : إذا كان الإسلام قد اعترف باليهودية والمسيحية . واعتبر أتباعهما أهل كتاب ، فلماذا أمر القرآن بقتالهم كالوثنيين ؟ .

والجواب على هذا أن الإسلام أمر بقتالهم إذا أبوا قبول الشرطين السلميين اللذين أشرنا إليهما . ومعنى الرفض — كما قررنا — أن الكفار كانوا يشهرون السيف فى وجه المسلمين . فكان على المسلمين بالتالى أن يردوا العدوان . هذا

من جهة ، ومن جهة أخرى فلأن اليهود والمسيحيين فى ذلك العصر قد غيروا وبدّلوا فى التوراة والإنجيل واتخذوا أرباباً من دون الله . لهذا أنزلهم الإسلام منزلة المشركين ، فبعث الرسول الكريم الكتب إلى الملوك والأمراء يدعوهم إلى قبول الإسلام الذى يقوم على وحدانية الله ، وأمر الله سبحانه وتعالى بقتال هؤلاء المنحرفين ، لأنه اعتبرهم كفاراً مشركين ، والإسلام يهدف أول مايهدف إلى وحدانية الله سبحانه وتعالى . ويؤيد صحة ماذكرنا ماجاء فى سورة التوبة (٩ : ٢٩ ـ ٣٣) :

(قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ، ولا يحرمون ماحرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد[١] وهم صاغرون[٢] . وقالت اليهود عزيرٌ[٣] ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ، ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون[٤] قول الذين كفروا من قبل . قاتلهم الله أنّى يؤفكون . اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح ابن مريم ، وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً ، لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون . يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون . هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون) .

والجزية التى أشرنا إليها وُضعت على الرءوس وتسقط بالإسلام . وقد وجبت على أهل الكتاب كما وجبت الزكاة على المسلمين حتى يتكافأ

---

(١) أى عن قدرة .

(٢) أى قادرون أن تجرى عليهم أحكام الإسلام .

(٣) بضم العين وفتح الزاى وسكون الياء .

(٤) أى يماثلون .

الفريقان ، وهم رعية لدولة واحدة في المسئولية ، كما تكافآ في التمتع بالحقوق ، وتساويا في الانتفاع بالمرافق العامة للدولة ، والشرع لم يفرض الجزية إلا على الأشخاص الذين يجب عليهم الجهاد لو كانوا مسلمين ، وذلك مقابل حماية أهل الذمة ، والمحافظة على أموالهم وأرواحهم .

كل ذلك يعلل لنا لماذا انتشر الإسلام في سهولة ويسر ، بسبيل الحجة والموعظة الحسنة ، لا بسبيل الإكراه والسيف ، والآن ننتقل إلى الكلام على الوسيلة الثانية التي انتشر بها الإسلام بطريق الفرق الصوفية .

٢ — الفرق الصوفيـــة

ومما هو جدير بالملاحظة أن نشاط الفرق الصوفية والتجار والمعلمين والدعاة كان يقوم في الغالب على الإرشاد ، ويعتمد على انتشار التعاليم الإسلامية ، ويقوم على حب الجار والتسامح مع المسيحيين واستخدام كل وسائل الترغيب في نشر الدعوة إلى الإسلام ، رغبة في نشر الدين ابتغاء مرضاة الله وحسن الثواب في الآخرة وهداية الناس ، وذلك بتأسيس المساجد وفتح المدارس والمصاهرة مع أهالي البلاد التي يتردد عليها المسلمون أو يستوطنونها ، أو بشراء العبيد لتعليمهم مبادىء الدين الحنيف ، ثم إعتاقهم لوجه الله وإعادتهم إلى أوطانهم ليدخلوا إخوانهم في الدين[1] . أضف إلى ذلك مبدأ الحرية والإخاء والعدالة والمساواة العنصرية ، إذ أن لون الزنجي لا يحمل إخوانه في الإسلام على أن يتعصبوا عليه ، أو أن يعاملوه على أنه من طبقة دنيا بالنسبة إليهم كما هي الحال في كثير من الأحيان في العالم المسيحي .

---

(١) راجع ما ذكرته في الباب الثاني عن انتشار الإسلام في إفريقية الاستوائية .

(أ) القادرية :

ويدخل فى حكم الثغور والربط تعاليم الفرق الصوفية ، كالقادرية ، والتجانية (بتشديد التاء مع كسرها) ، والسنوسية ، تلك التعاليم التى تعمقت فيها هذه الفرق ، وتشبعت بالميول الصوفية ، وعكفت على الرياضة الروحية ، المقسمة بين التقشف والرياضة النفسية التى تذكرنا — كما يقول ليفى بروفنسال [1] بمسيحية العصور الوسطى ، التى كان فيها المثل الأعلى حربيا ورَهْبانيا (بفتح الراء) فى آن واحد ، وذلك على حد تعبيره .

وتعد طائفة القادرية التى تأسست فى القرن السادس الهجرى (الثانى عشر الميلادى) على يد عبد القادر الجيلانى ، أوسع الفرق الدينية انتشاراً . وقد دخلت إفريقية الغربية فى القرن الخامس عشر الميلادى على أيدى مهاجرين من تُوات (بضم التاء) ، وهى واحة فى النصف الغربى من الصحراء ، واتخذوا ولاته أول مركز لطريقتهم ثم لجئوا إلى تُمْبَكتُو .

وفى مستهل القرن التاسع عشر نجد النهضة الروحية الكبيرة التى كانت تؤثر فى العالم الإسلامى تأثيراً عميقاً ، تدفع بالقادرية الذين كانوا يقيمون فى الصحراء الكبرى ، وفى السودان الغربى ، إلى حياة ونشاط جديدين . وتقوم المراكز الرئيسية لتنظيم دعوة الفرقة القادرية فى كَنْكا (بفتح الكاف وسكون النون) وتِمْبُو (بكسر التاء وسكون الميم بجبال فوتاجالون) ، ومُسَرْدو(بضم الميم وفتح السين وسكون الراء وضم الدال) ببلاد الماندِنجو (بسكون النونين وكسر الدال) ، وموطنهم على نهر الجمبيا (بفتح الجيم وسكون الميم وكسر الباء) فى غينيا . وكانت هذه المدن تؤلف مراكز النفوذ الإسلامى وسط شعب وثنى رحب بالقادرية باعتبارهم كتابا وفقهاء ومعلمين .

---

(١) الشرق الإسلامى والحضارة الأندلسية . منشورات معهد مولاى الحسن تطوان ص ٣٥

ولم يمض زمن طويل حتى وجدنا فقهاء مثقفين وجماعات من المريدين قد انتشروا فى أرجاء السودان الغربى ، من السنغال إلى مصب نهر النيجر . وكان بعض هؤلاء الذين دخلوا فى الإسلام يوفدون لإتمام دراستهم بمدارس القيروان والزيتونة وطرابلس ، أو بجامعتى القرويين والأزهر . حتى إذا ماأتموا دراستهم الدينية ، عادوا إلى أوطانهم مزوّدين للعمل على نشر العقيدة الإسلامية بين مواطنيهم . وكان المعلمون الذين تربّوا فى سلك نظام الفرق الصوفية التى كانت تقوم على حب الجار والتسامح يؤسسون ، حتى منتصف القرن التاسع عشر ، المدارس فى السودان ، ويقومون بالإنفاق عليها .

وكان نشاط هذه الجماعة — كما يقول سير توماس أرنولد[1] — ذا طابع سلمى للغاية ، يعتمد كل الاعتماد على الإرشاد . . . كما كان يعتمد على مبلغ تأثير المعلم فى تلاميذه ، وكما كان يعتمد على انتشار التعليم فى الوقت نفسه . وبذلك برهن دعاة القادرية فى السودان على أنهم أوفياء لأهم المبادىء التى كانت تسيطر على حياة مؤسس هذه الجماعة ، وهى حب الجار والتسامح وغيرهما من الصفات الكريمة . وكان المعلم المسلم كلما تكلم عن أهل الكتاب ، عبّر عن أسفه عما كانوا عليه من باطل ، ودعا الله أن يهديهم سواء السبيل[2] .

(ب) التجانية :

ومن الفرق الصوفية التى كان لها أثر كبير فى نشر الإسلام فى إفريقية : التِّجانية (بتشديد وكسر التاء) التى أنشأها أبو العباس أحمد بن محمد المختار

---

(١) الدعوة إلى الإسلام ، ترجمه عن الإنجليزية حسن إبراهيم حسن وعبد المجيد عابدين وإسماعيل النحراوى (الطبعة الثانية . القاهرة ١٩٥٩ ص ٣٦٥ — ٣٦٦) .

(٢) حسن إبراهيم حسن : انتشار الإسلام والعروبة فيما يلى الصحراء الكبرى وفى شرق القارة الإفريقية وغربها (القاهرة ١٩٥٧ ص ١٦ — ١٨) .

ابن سالم التّجانى (١٧٣٧ — ١٨١٥ م) . وكان أحد أهالى قرية عين ماضى ببلاد الجزائر ، وقد تنقل فى البلاد الاسلامية ، مثل تلمسان ومكة والمدينة والقاهرة ؛ وتلمذ لشيوخها ، ثم أسس طريقة صوفية جديدة . وقد رحل إلى الصحراء سنة ١٧٨٢ م ثم عاد إلى فاس سنة ١٧٩٨ م ، واتخذها مركزاً لنشر دعوته ، وقضى الشطر الأكبر من حياته متنقلا لتنظيم شئون طريقته .

ويسمى أتباع الطريقة التجانية « الأحباب » ، وقد حرم عليهم الانتظام فى سلك طريقة أخرى ، ويقوم الذكر عندهم عادة على تلاوة أدعية وصلوات وأوراد معينة فى أوقات مخصوصة من اليوم . ولما مات أبو العباس انتقلت الوصاية على ولديه محمد الكبير ومحمد الصغير إلى محمود بن على التونسى ، ثم خلفه فى الوصاية عليه الحاج على بن عيسى شيخ زاوية تجانية فى تماسين . ولما قتل محمد الكبير فى أحد الحروب التى شنها أمراء الجزائر على أصحاب هذه الطريقة تولى محمد الصغير شئون الطريقة وأخذ ينشر الدعوة ولا سيما فى الصحراء الكبرى والسودان ، وذلك بإرشاد الحاج على بن عيسى .

وفى سنة ١٨٣٦ م أراد الأمير عبد القادر الجزائرى الاستعانة بالتجانية فى طرد الفرنسيين الذين استولوا على الجزائر سنة ١٨٣٠ م ، ولكن التجانية آثروا أن يعيشوا عيشة وادعة ، ولم ينخرطوا فى سلك جيشه ، وذلك تمشياً مع الروح الصوفية التى تأبى التدخل فى الشئون السياسية . فقام الأمير عبد القادر بعدة حملات على مركز التجانية فى « عين ماضى » التى قاومت هذه الحملات حتى لقد ذاعت شهرة هذه الطريقة لما أبداه أصحابها من ضروب الشجاعة فى مقاومة المغيرين . ولما مات محمد الصغير سنة ١٨٤٤ م انتقلت شئون الطريقة التجانية إلى ابنه الذى توفى سنة ١٨٥٣ ، فخلفه محمد العائد (حفيد الحاج على بن عيسى) الذى مات عن ولدين صغيرين اتهما بعدم موالاتهما للفرنسيين ، وقبض عليهما فى سنة ١٨٦٩ ، ولكنهما نجحا فى مهادنة السلطات الفرنسية .

وقد نجح التجانية فى نشر دعوتهم فى مصر و بلاد العرب و بعض أجزاء آسيا ، ولكن التوسع الحقيقى فى عقائد هذه الطائفة كان فى السودان وفى إفريقية الفرنسية (سابقاً) ، و بين البدو المقيمين فى أقصى جنوبى المغرب الأقصى[1] .
ثم ظهرت الطريقة التجانية فى السودان حول منتصف القرن التاسع عشر على يد الحاج عمر ، وقامت على أساليب القادرية فى الدعوة . وساعدت كثرة مدارس التجانية على نشر تعاليمهم التى كانت متأثرة بتعاليم القادرية ، والمرابطين الذين نشروا تعاليمهم بين القبائل الوثنية حول نهر النيجر الأعلى والسودان ، وذلك فى القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) .

وقد فتحت هذه الغزوات ميادين جديدة لنشاط الدعوة التجانية . وتعزى أولى هـذه الحملات التى قامت لنشر الدعوة التجانية إلى الحاج عمر الذى ولد سنة ١٧٩٧ بمكان يقع على مقربة من پودور (Podor) على السنغال الأدنى . وكان أبوه من المرابطين . وقد تثقف الحاج عمر ثقافة دينية عميقة ، واشتهر بعلمه وورعه حين خرج لأداء فريضة الحج فى سنة ١٨٢٧ حيث انتظم فى سلك التجانية على يد أحد زعمائها الذين تعرّف عليه فى مكة . ثم عاد إلى مصر (سنة ١٨٣٣) ، وعبر السودان الأوسط ، وظفر بكثير من الأتباع ، ونظر إليه الناس كمهدى جديد . وفى سنة ١٨٤١ م بلغ الحاج عمر جبال « فوتا جالون » ، و بدأ سلسلة من الحملات لنشر تعاليم التجانية بين القبائل ، التى كانت لا تزال على الوثنية ، والتى كانت تقيم حول النيجر الأعلى والسنغال[2] . وفى إحدى هذه الحملات لقى الحاج عمر حتفه فى سنة ١٨٦٥ ، ولم ينجح ابنه أحمدو شيخو فى ضم

---

(١) مرجليوث : أنظر مادة تجانية فى دائرة المعارف الإسلاميــة ، ترجمة جـ ٤ ص ٥٩٣ — ٥٩٦ .

(٢) Fage, History of Western Africa, p. 147.

مختلف الولايات إلى مملكة أبيه غير سنوات قليلة ، ولم تلبث المنازعات الداخلية أن قضت على بلاده التي انتقلت إلى حكم الفرنسيين[1] .

(ح) السنوسية :

ومن الفرق الصوفية التي كان لها أثر بعيد في نشر الإسلام في القارة الإفريقية : السنوسية التي أنشأها الفقيه الجزائري سيدي محمد بن علي السنوسي في سنة ١٨٣٧م . وهي فرقة دينية تهدف إلى إصلاح شأن الإسلام ونشر العقيدة الإسلامية . وقد تأثرت العقيدة السنوسية بعقيدة الوهابية التي نشرها محمد بن عبد الوهاب في بلاد العرب في النصف الثاني من القرن الثامن عشر ، متأثراً بمبادىء ابن تيمية الدمشقي صاحب المذهب التجديدي المشهور .

ولم يمت السنوسي سنة ١٨٥٩ م حتى كان قد نجح في تأسيس دولة دينية ، وذلك بقوة عبقريته الصافية واستخدام كل وسائل الترغيب في نشر دعوته . ويدين أتباعه بالطاعة والولاء لهذه الدولة . ويلتزم أفراد هذه الجماعة القيام بأوامر القرآن في دقة بما يتفق وأكثر مبادىء التوحيد المطلق ، تلك المبادىء التي تجعل التعبّد لله وحده وتحرم التضرّع للأولياء وزيارة قبورهم تحريماً تامًّا . وقد أوجبوا على أنفسهم أن يمتنعوا عن شرب القهوة والتدخين ، وأن يسهموا بنصيب معين من دخلهم يضاف إلى أموال الجماعة إذا لم يستطيعوا أن يكرسوا

---

(١) سير توماس أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ، ترجمة ص ٣٦٧ — ٣٧٠ .

من أهم المصادر التي تجمع مذاهب التجانية ورياضتهم : كتاب « جواهر المعاني وبلوغ الأماني في فيض الشيخ التجاني المعروف كذلك بالكناش » (القاهرة ١٣٤٥ هـ) . ويقال إن هذا الكتاب من إملاء منشىء الطريقة التجانية . وهناك معجم يضم أسماء أعوان الطريقة التجانية عنوانه : « كشف الحجاب عمن تلقى مع التجاني من الأصحاب » ، صنفه أبو العباس أحمد بن أحمد العياش سكيرج (فاس ١٣٢٥ ، ١٣٣٢ هـ) .

أنفسهم لخدمتها ، كما أوجبوا على أنفسهم أن يقفوا كل نشاطهم على تقدم الإسلام وأن يقاوموا فى الوقت نفسه أى لون من ألوان الخضوع للنفوذ الأوربى .

وقد انتشرت طائفة السنوسية فى إفريقية الشمالية كلها ، وتنتشر زواياها من مصر إلى المغرب ، وتمتد فى الداخل فى واحات الصحراء وفى السودان . وكان مركز السنوسية واحة جغبوب[1] فى الصحراء الليبية بين مصر وطرابلس مركز السنوسية . وفى هذه القرية كان يتعلم كل عام مئات من الدعاة ، ثم يرسلون إلى كافة أجزاء إفريقية الشمالية دعاة للإسلام . وكانت زواياهم الفرعية ، التى قيل إنها بلغت ١٢١ زاوية ، تتلقى من زاويتهم الرئيسية فى جغبوب التعليمات والأوامر فى كافة المسائل المتعلقة بالفرقة السنوسية التى كانت تضم فى نظام رائع آلافا من الأتباع والمدارس فى إفريقية الشمالية من مصر إلى المغرب الأقصى ، وفى أرجاء السودان والحبشة وسنغامبيا والصومال كافة ، بل اننا نجدهم كذلك فى بلاد العرب والعراق وفى أرخبيل الملايو .

ومع أن السنوسية كانت فى أول أمرها حركة إصلاح داخلية فى الإسلام نفسه ، أصبحت إلى جانب ذلك حركة لنشر تعاليم الدعوة ، حتى أضحت عدة قبائل إفريقية كانت من قبل وثنية أو مسلمة إسلاماً إسمياً بحتاً من أتباع الإسلام المتحمسين منذ أن حل فيهم دعاة السنوسية . ومن هذا النوع من النشاط ، نذكر على سبيل المثال ، ما بذله دعاة السنوسية من جهد ليدخلوا

---

(١) وفى سنة ١٨٩٥م هاجر إلى كفرة سيدى المهدى ، وهو ابن سيدى محمد السنوسى وخليفته ، لأنها كانت أكثر توسطاً من جغبوب (محمد بن عثمان الحشائشى : رحلة فى بلاد السنوسية) .

Serras et Lasram, pp. 111—150 (Borku) (Tibesti) ترجمة

ولكنه توغل فيما بعد جنوباً إلى منطقة بوركو وتيبستى حيث توفى سنة ١٩٠٢ . وكان رئيس الجماعة فى سنة ١٩٠٨ سيدى أحمد أحد أقرباء مؤسس الجماعة .

Falls : Drei Jahre in der Libyschen Wuste, p. 274.

فى الإسلام هذا الفريق من قبيلة بيلى (Baele)[1] الذى كان لا يزال على الوثنية ، بل إنهم حملوا حماستهم الدينية إلى البقية الباقية من هذه القبيلة حين وجدوا أن معرفتهم بالإسلام سطحية ، وأنهم كانوا مسلمين اسماً . كما نجح السنوسية حين نزلوا بين شعب التيدا (Tedas) فى بلاد تيبستى (Tibesti) بالصحراء الكبرى جنوبى واحة فزان ، فى إدخالهم فى الإسلام بعد أن كانوا مسلمين اسماً . كما كان دعاة السنوسية يقومون بدعاية نشيطة فى بلاد الجَلا (Galla) فى الحبشة ، فيرسلون إليها فى كل عام دعاة من هَرَر ، حيث تتمتع السنوسية بنفوذ كبير . وتكاد تجد كل الرؤساء منهم فى بلاط الأمير بلا استثناء . و يستعين دعاة السنوسية على نجاح دعوتهم بفتح المدارس ، وخاصة فى ودَاى (Wadai) غربى بحيرة شاد بزيادة كبيرة فى عددهم ، وذلك بشراء عبيد كانوا يعلمونهم فى جغبوب . فإذا تعلموا مبادىء الطائفة بصورة تبعث على الرضا ، أعتقوهم وأعادوهم إلى أوطانهم ليدخلوا إخوانهم فى الإسلام[2] ، وفى سنة ١٨٩٥م هاجر كفرة سيدى المهدى ، وهو ابن سيدى محمد السنوسى وخليفته ، لأنها كانت أكثر توسطاً من جغبوب .

(١) وهى قبيلة تسكن بلاد إنيدى (Ennedi) الجبلية شرقى بوركو .

(٢) انظر سير توماس أرنولد — الدعوة إلى الإسلام ، ترجمة ، ٢٨١ — ٢٨٢ .
Revue du Monde Musulman.
راجع مراجع الحركة السنوسية فى III, pp. 141—2, 313.

٣ – الملاءمة بين الإسلام والمذهب الحيوى

فى العقائد والشريعة

(أ) الوضع الحالى للإسلام فى إفريقية :

ما هو الوضع الحالى للإسلام فى القارة الإفريقية ؟ وما مدى انتشار الإسلام فى إفريقية الاستوائية ؟ وما تأثير الشريعة الإسلامية فى إفريقية وكيف تطبق ؟ وإلى أى حد تتمشى الشريعة مع العرف فى إفريقية ؟ .

هذه أسئلة تتبادر إلى ذهن الباحث فى حالة الإسلام فى القارة الإفريقية .

وسأحاول أن أجيب عنها فى شىء من الإيجاز ولا سيما ما يتعلق منها بغربى هذه القارة .

يقول چورچ كاربنتر[١] فيما كتبه عن « الدور الذى تقوم به المسيحية والإسلام فى إفريقية المعاصرة » : « إن السواد الأعظم من المسلمين فى أواسط إفريقية إفريقيو الأصل لا ينتسبون إلى أصول عربية ، وبعضهم لا يعرف من العربية إلا كلمات : وهم يتلون القرآن دون أن يفهموا معناه ، ومعرفتهم بالدين لا تتعدى بضع قصص عن سيرة الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، وبعض الأمثال . كما أن تطبيقهم للإسلام يجاوز قليلا القيام بالصلاة وأداء الزكاة . ويرى الباحثون فى أحوال المسلمين فى إفريقية أن للإسلام أشكالا تختلف من إقليم إلى إقليم . كما أن النظرة إلى الإسلام تختلف هى أيضاً : فبعضهم يرى فيه نظامًا سياسيًا يقوّى من حركاتهم التى تتجه نحو الحكم الذاتى ، وبعضهم يرى فيه تحرراً من السيطرة الاستعمارية ، وبعضهم الآخر يرى أنه يتيح لهم التفوق على جيرانهم .

---

(١) Africa To-Day, The Role of Islam and Christianity in Contemporary Africa, p. 95.

كما أن أغلبهم يرى فى الإسلام ديناً غير غريب عن حياتهم ، أتى إليهم من إفريقية نفسها وليس من أوربا ، لأنه يقوّى شعور القومية فى نفوسهم ، ويهيئ لهم الحرية التى ينشدونها » .

ويقول ترمنجهام[١] فى حديثه عن الإسلام فى إفريقية ، إن الشعوب الإفريقية تأخذ من الإسلام العناصر التى تتفق وطبيعتها القومية وطريقتها فى الحياة . فكل المسلمين مثلا يقدسون الشريعة ويرون أنها شعار الإسلام ، إلا أنهم فى الوقت نفسه يطبقون العادات التى ألفوها قبل دخولهم الإسلام ، عن طريق الملاءمة بينها وبين الشريعة الإسلامية . ومعنى ذلك أن الإسلام قد استوطن فى كل قطر وأصبح جزءا من التراث القومى . وهنالك عاملان مهمان هما :

١ — أن الشعوب الإفريقية لها شخصية معنوية تحتفظ معها بنظامها الاجتماعى .

٢ — وأن هذه الشخصية تعمل على توطيد الإسلام والملاءمة بينه وبين النظام الاجتماعى السائد .

وهذان العاملان هما سر عظمة الإسلام وانتشاره وسيطرته على أتباعه ومريديه .

وهناك حقيقة أخرى تساعد على فهم أحوال المسلمين فى إفريقية ، هى هذه الوحدة القائمة بين حياتهم الدينية والاجتماعية . فالمسلمون يولون المظاهر الدينية أهمية قصوى تفوق نواحى السلوك . ويزعم چورچ كاربنتر أن الإسلام عقبة فى سبيل التطور لأسباب تتلخص فيما يلى :

---

(١) Islam in the Sudan. p. 107.

١ — الابتكار الذى اتسم به الإسلام فى عصوره الأولى قد حلت محله حركة ترضى بما قسمه الله .

٢ — إن التعليم الإسلامى محدود فى وسائله وأغراضه بدليل اقتصار المدارس الإفريقية على تعليم القرآن واللغة العربية .

٣ — انحطاط مركز المرأة وقصر نشاطها على الشئون المنزلية .

٤ — نظرة العالم الإسلامى إلى الغرب نظرة تنم عن البغض والكراهة ، مما جعل الإسلام فى إفريقية عاملا موحداً بين حركات التحرير التى تناوىء الغرب وتتحدى نفوذه .

٥ — إن الإسلام لا يعمل على توحيد المجتمع ، بل إنه يسمح لأهل الذمة بأن يحتفظوا بقوانينهم وعاداتهم داخل نطاق الدولة الإسلامية[١] .

على أن كاربنتر قد نسى ما خلفه الإسلام من تراث مجيد فى الاجتماع ، وفى نظم الحكم ، وفى الحضارة والثقافة التى كان لها أثر بعيد فى الحضارة الأوربية ، ولا سيما فى عصر النهضة . ولعله قد فاته بعث الروح القومية بين الشعوب الشرقية التى أخذت تعمل على التحرر من السيطرة الاستعمارية والإفادة من ثروات بلادها . ومع ذلك عاد هذا الكاتب فأشاد بما كان للإسلام من أثر بالغ فى النواحى الثقافية فقال : « ويجب ألا نغفل ما للإسلام من أثر بعيد فى النواحى الثقافية » :

أ — إن الإسلام يقوى الشعور بالوحدة ، ويؤلف بين قلوب أفراد المجتمع ، ولا يقيم وزناً لحواجز اللون أو الجنس ، بل يمنح الجميع أخوة إسلامية مشتركة . فهو من هذه الناحية أقوى من المسيحية وأبعد أثراً .

---

(١) Africa To-Day, pp. 96—97.

٢ — إنه يقوى من الشعور بوجود الله و بوحدانيته و بقوته ، و بتبعية الفرد لهذا الإله و إحكام صلته به عن طريق صلوات يقوم بها كل يوم ، بعكس ما نراه فى المسيحية ، فهى تجعل هذه الصلة يشوبها بعض الغموض .

٣ — من مظاهر قوة الإسلام أنه يحث على الصبر وضبط النفس والشعور بالعزة والكرامة .

٤ — إن الإسلام جعل اللغة العربية ، لغة القرآن ، لغة عالمية للتفاهم فى جميع أجزاء العالم الإسلامى ، فهو إذن يضفى على المجتمع وحدة ثقافية واجتماعية[١] .

(ب) انتشار الإسلام فى إفريقية الاستوائية :

يظهر أن الإسلام بين الشعوب الوثنية فى إفريقية يلتزم طريقة واحدة ، هى أن انتشاره ذو طابع سلمى ، أى أنه لا ينتشر بالسيف . والظاهرة الأولى التى يلحظها الباحثون فى تاريخ انتشار الإسلام فى هذه القارة هى استعانة الوثنيين بالتعاويذ الإسلامية مع تعاويذهم الوثنية ، والالتجاء إلى شيوخ المسلمين وزيارتهم بالإضافة إلى كهنتهم الوثنيين . وظاهرة الاختلاط الجزئى هذه يشد من أزرها هذه الحقيقة ، وهى المذهب الحيوى (animism) ، الذى يقول بوجود روح أو نفس الحيوان ووجود عنصر حى فى النبات هو علة أعماله الحيوية وليس هو علة القوى الكيميائية أو المادية .

و يعتقد أصحاب هذا المذهب بوجود إله واحد ، و إن كانوا يتجاهلون هذا الإله بسبب اهتمامهم ببعض الأرواح التى هى أقل درجة ولكنها أكثر أهمية فى نظرهم . لذلك فإنهم يجدون أن إله المسلمين ليس غريباً عنهم . كما أن بعض

(١) Ibid, pp. 98—99.

المسلمين من ناحيتهم يجدون فى عقائد المذهب الحيوى ما يشبه عندهم الاعتقاد فى الجن وفى الأرواح السفلية ، وهى قريبة من طقوس السحر عند الوثنيين . وهذه الظاهرة تتجلى ممـا ذكره « أندرسون » نقلا عن بوديتش فى كتابه « البعثة إلى بلاد أشنتى »[1] (بفتح الألف والشين وسكون النون) وإن كانت تتسم بالمبالغة حيث يقول :

« إن أغرب الخرافات عنـد الأشنتى هى إيمانهم بالأحجار والتمائم التى يشترونها بكثرة فى بلاد المغرب ، ويعتقدون اعتقاداً راسخاً أنها تنفعهم فى القتال ، فتقيهم شر الجروح والهزيمة ، وتشل يدَ العـدو ، فتهتز أسلحته وتطيش رصاصاته ، كما أنها تخصب الجنسين الذكر والأنثى ، وتمنع السوء ، وتقيهم شر المرض ، وتطيل العمر . كما أن العرافين المغاربة الذين يقولون بالغيب لم يترددوا فى أن يمزجوا بين خرافاتهم الدينية والقصص الإسلامية ، إما لمنفعتهم الذاتية أو من أجل سلامتهم . وكانوا خبيرين بالحيل اليدوية » . وقد ذكر « أندرسون » نقلا عن « جرينبرج » فى كتابه « تأثير الإسلام فى الديانة السودانية » .

أن « الحجازاوا» الوثنيين يذكرون بين أرواحهم روحا تسمى إيسكوكى ، ويسمونها أيضاً المعلم الذى حج بيت الله (Malam-Alhaji) . ولفظة « مالام » ترادف « معلم » العربية وتعنى الرجل المثقف المتفقه فى الدين ، و « ألاجى » هى تحريف لاسم الحاج ، أى الذى حج بيت الله فى مكة المكرمة . وهم يصورونه فى صورة حاج مسلم متفقه فى الدين متقدم فى السن .

وقد رأى جرينبرج بنفسه فى مستعمرة غامبيا وغيرها أن التمائم والرُّقَى (بضم وتشديد الراء وفتح القاف) الإسلامية تختلف عن تمائم أصحاب المذهب

Bowdich, Mission to Ashantee, p 272. (٢)

الحيوى ، كما وجد أن أقارب المرضى من الوثنيين يلتمسون البُرْء على يد مشايخ المسلمين ، كما يلتمس المسلمون الشفاء على يد الكهنة الوثنيين الذين يطلقون عليهم اسم « چوچو » .

والظاهرة الثانية تتمثل ، لا فى مجرد تقليد الرُّقَى الإسلامية ، وإنما فى تقليد الصلوات الإسلامية . وقد وجدت أمثلة طريفة لهذه الظاهرة فى غامبيا وساحل الذهب (غانة) . ففى جهات كثيرة فى غامبيا وبين شعب الجولا بوجه خاص ، تجد بعض الوثنيين المحترفين يحضرون الجنائز الإسلامية ، ويحتفلون بالأعياد ، ويصلون كما يفعل المسلمون . وفى بعض المناطق مثل كبمبه (Kpenbe) ويندى (Yendi) ، فى الجهات الشمالية من ساحل الذهب ، يتلون الصلوات الإسلامية بانتظام ، ويعتقدون أن ذلك يجلب لهم السعادة الأبدية. وقد وجد المؤلف أيضاً أن زعيم البلاد يعين بعض الموظفين المسلمين ليتولوا بعض المهام نيابة عنه ، كتقديم القرابين أو حضور الجنائز . ويمكن أن يفسر ذلك على أن هذه الظواهر بقية من علامات قديمة عفا أثرها . ولكن اختلاطهم من جديد بالتجار المسلمين وبفقهائهم ربما يعيد هذه الصلات القديمة . ففى بلاد مثل تامالى يصلى نحو ٥٠ ٪ من السكان كما يصلى المسلمون ، على حين نجد ٢٠ ٪ من هؤلاء قد تحولوا إلى الإسلام فعلا . وفى نيچيريا استخدم أحد الزعماء المحليين عالماً مسلما ليقوى مركزه . وقد اعتاد زعيم مملكة برنو (بضم الباء وسكون الراء) غربى بحيرة شاد وشمال شرقى نيچيريا أن يصلى لآلهته فى شهر رمضان ويستعين بالفقهاء المسلمين مع وثنيته .

والظاهرة الثالثة تتمثل فى أن الوثنيين يعتنقون الإسلام جهرا مع احتفاظهم ببعض العقائد القديمة ويحتفظ كثير من حكام المسلمين غير المتنورين فى بلاطهم بكهنة وثنيين يستعينون بهم فى بعض المناسبات ، كاعتلائهم العرش حيث تتبع

التقاليد الوثنية . كما أن بعض المجتمعات الإسلامية تفتتح شهر رمضان وتختمه بتقاليد وثنية . ويقسم الحوصا (بفتح الحاء وسكون الواو) فى شمالى نيجيريا الجن إلى نوعين : البيض للمسلمين والسود للوثنيين . وهم لا يجدون غضاضة فى الاستعانة بهذه الأرواح لشفاء نفوسهم وتخليصهم من مصائبهم . ويعتقد الوثنيون بحلول هذه الأرواح فى الأشجار والأحجار ، وكذلك الاستعانة بالأجداد عند الوثنيين .

وليس غريبا أن نجد الزنوج المسلمين يحلون القرآن محل وثنهم القديم ، كما نجد أيضا تشابها فى الاعتقاد بأسر السحر فى معاقبة الحانث بيمينه وشاهد الزور . وكذلك تجد لصلاة الاستسقاء عند المسلمين نظيرا عند الوثنيين ، فهم يصلون من أجل إلهم الكبير الذى يعلو على أوثانه . ولا زال بعض المسلمين هناك يعتقدون فى قدرة الكهنة الوثنيين على التحكم فى المطر وتغيير بعض الظواهر الطبيعية . هذا إلى ما تحفل به الطقوس الإسلامية من أمور تشبه الطقوس الوثنية ، مثل ختان الرجال والنساء ، وأداء الصداق عند الزواج ، ومثل الأخوة عند الفرق الصوفية . فذلك الاحتفال المسمى « صدقة » (أى الصداق) عند الياوس (Yaos) يمثل بقية من الطقوس الجنائزية الوثنية التى تقام عند الدفن وفى فترات متعاقبة بعد الوفاة ، ويصحبها نوع من الرقص وشرب الخمر . فلما اعتنقت هذه القبيلة الإسلام ، وجدت فى حلقات الذكر ما يذكرها بالرقص القديم . وكذلك صلاتها من أجل موتاها وتقديمها القرابين لم تتغير بعد اعتناقها الإسلام ، لأن المسلمين يعتبرونها مجرد صدقة للغادين والرائحين ليرحم الله موتاهم ويغفر خطاياهم . كما أن الصلوات ليست من أجل المتوفى وإنما هى من أجل خالقه . ويحتفظ المسلمون ببقية من وثنيتهم القديمة . وليس انتحال الإسلام بالنسبة إلى قبائل الياوس إلا مجرد استبدال الختان الإسلامى الكامل بالختان الجزئى القديم[1] .

---

(١) Anderson, Udity and Variety in Muslim Civilization, pp. 263—266.

(ح) تأثير الشريعة الإسلامية وكيف تطبق :

إن تأثير الشريعة الإسلامية فى الزنوج المسلمين أشد وضوحا فى العقيدة منه فى الأحـــوال الشخصية والصلات الأسرية . فشعب « الياوس » كانوا لا يزالون إلى عهد قريب يختلفون فى مسائل تافهة ، مثل شرعية أكل الطعام قبل الجنائز أو بعدها ، أو الغناء والرقص وحمل الأعلام فى مثل هذه المناسبات ، وفى ضرورة الرقص عند زيارة المقابر الزيارة السنوية ، وفى شرعية أكل لحم فرس النهر ، وفى بناء المسجد الجديد مكان المسجد القديم . أما شعب « بجندة » المسلمون فيذكر « أندرسون » أنهم يختلفون فى فريضة الظهر وفريضة الجمعة أيتهما تسبق الأخرى . كما وجد شعب « الياوس » يتمسكون بطقوسهم القديمة فى الزواج وفى الطلاق والميراث .

ويمكن أن يقال بوجه عام فى هذه الظاهرة الثالثة إن الزنوج لا يزالون يحتفظون بشطر من عقائد المذهب الحيوى عن طريق إعطائها صبغة إسلامية . وفى الوقت نفسه تستخدم الطقوس الإسلامية ويوليها المسلمون المحل الأول ، على حين يقل أثر الشريعة الإسلامية فى الأحوال الشخصية والأسرية . ففى غامبيا مثلا نجد أن « الماندنجو » لا يتقيدون (كما يقول « أندرسون ») بتحديد الإسلام عدد الزوجات ، ويعتقدون أن أبناء من يزيدون على أربع أبناء شرعيون . وكذلك يقتنى مسلمو غامبيا عدداً من الإماء وإن كن فى الحقيقة حرائر ، وفى سيراليون نجد المسلمين يجمعون بين الأختين[1] . وعلى كل حال ففى تطبيق الشريعـــة الإسلامية فى إفريقية الاستوائية يمكن أن نميز بين حالات ثلاث :

---

(١) Anderson, pp. 267—268.

الأولى : عند ما يعتنق بعض أفراد القبيلة الدين الإسلامى .

الثانية : عند ما تدخل القبيلة بأسرها فى الإسلام .

الثالثة : عند ما تعتنق الدولة الدين الإسلامى وتطبق الشريعة الإسلامية .

وفى الحالة الأولى ، عند ما يدخل بعض أفراد القبيلة الدين الإسلامى كما حدث فى كينيا مثلا ، فإنهم يعتزلون حياة القبيلة ولا يشاركونها فى طقوسها ، بل يتركون أرضها ويهاجرون إلى السواحل حيث يعيشون مع سائر المسلمين ، ويتزوجون أمام القاضى ، ويطبقون أحكام الشريعة الإسلامية فى المواريث ، بل يتركون آباءهم وأمهاتهم وزوجاتهم محتفظين بإسلامهم .

وفى الحالة الثانية ، عند ما تدخل القبيلة بأسرها فى الإسلام ، نجدها تجمع بين التقاليد الوثنية القديمة و بين الشريعة الإسلامية ، وتظل بعد اعتناقها الإسلام على تقاليدها القديمة فى الزواج وفى الميراث حيث نرى الأخ من الأم أو ابن الأخت هو الوريث الوحيد ، على حين نجد أن أفراد هذه القبيلة الذين اعتنقوا الإسلام ولجئوا إلى الساحل يلتزمون الشريعة الإسلامية التزاما مطلقا .

وفى الحالة الثالثة ، عند ما يعتنق الشعب بأسره الدين الإسلامى كما فعل الصوماليون ، تحل الشريعة الإسلامية محل التقاليد القديمة إلى حد بعيد ، وتصبح هذه الشريعة عامل توحيد بين التقاليد المتعددة للقبائل الصومالية .

أما إذا عمد الحاكم إلى تطبيق الشريعة الإسلامية ، فإن الموقف يختلف ، إذ نراه يتخطى القوانين المحلية للمجتمع ويطبق الشريعة الإسلامية على أهل الكتاب والوثنيين ، كما حدث فى بعض الإمارات الإسلامية فى شمالى نيجيريا[1] .

---

(١) Anderson, Ibid, pp. 268—270.

(د) الشريعة والعرف :

أشرنا من قبل إلى الآثار البعيدة التى تركها انتشار الإسلام فى شعوب إفريقية الزنجية ، يتضح هذا مما ذكره « ميك »[١] : « إن الإسلام جاء بحضارة جديدة أتاحت للشعوب الزنجية طابعا حضاريا متميزاً لا زال واضحاً حتى اليوم ، مؤثراً فى نظمهم السياسية والاجتماعية . ذلك أن الإسلام حمل الحضارة إلى القبائل المتبربرة ، وجعل من المجموعات الوثنية المنعزلة المتفرقة شعوبا ، وجعل تجارتها مع العالم الخارجى ميسورة ... فقد وسع من الأفق ، ورفع من مستوى الحياة بخلق مستوى اجتماعى أرقى ، وخلع على أتباعه الكرامة والعزة واحترام الذات واحترام الآخرين ... لقد أدخل الإسلام فن القراءة والكتابة ، وحرم الخمر وأكل لحوم البشر والأخذ بالثأر وغير ذلك من العادات الوحشية ، وأتاح للزنجى السودانى الفرصة لأن يصبح مواطنا حراً فى عالم حر » .

على أن « أندرسون » يعقب على هذا القول الواضح بادعائه أن « ميك » قد لاحظ من قبل كيف أن الإسلام اعترف بتعدد الزوجات ، وبالختان وتحريم بعض الأطعمة ، كما اعترف بالرق وغير ذلك من الأمور التى جعلت الطفرة من المجتمع البدائى إلى المجتمع الجديد غير كبيرة . أما العوامل الرئيسية التى توحد بين المسلمين فى مختلف أقطار العالم الإسلامى ، ومنها إفريقية الاستوائية ، فهى : السنن الإسلامية ، والشريعة الإسلامية ، والثقافة الإسلامية .

والسنن تأتى فى المرتبة الأولى تقريباً . على أن السنن الحيوية القديمة لم تكن عديمة الأثر فى السنن الإسلامية فى إفريقية الاستوائية . وعلى الرغم من الخلافات

---

(١) Meek, Northern Tribes of Nigeria, pp. 1, 4 - 5.

المحلية فى الثقافة الإسلامية نجد وحدتها ظاهرة الأثر ، وهى أشد ظهوراً فى شعب « الحوصا » فى شمالى نيجيريا ، منها بين مالى فى شمال غربى نيجيريا ، وصنغاى (بضم الصاد وسكون النون) فى جُوا (Gao) ، و بين طوارق الصحراء البيض ، وفى جهات مختلفة من شمالى إفريقية والشرق الأدنى . ومع ذلك فقد وحد الإسلام شعوب الحوصا وجعل منها أمة واحدة . أضف إلى ذلك أن الحج إلى مكة ، وما يصحبه من الأعمال التجارية فى قارتى آسيا و إفريقية كان ولا يزال من أهم العوامل التى ساعدت بصورة ملحوظة على نجاح هذه الوحدة .

يقول « أندرسون » : وقد أخذ أثر الشريعة الإسلامية فى عصور متأخرة يجاوز ناحية العقيدة و يتسرب إلى الحياة العامة ، لأن الشريعة الإسلامية تتجه إلى إيجاد طراز موحّد من الحياة الاجتماعية فى العالم الإسلامى كله . فقانون الزواج قد نجح فى تحديد تعدد الزوجات ، كما أن قانون الزواج والميراث قد غير من نظام الأمومة وجعل الأبوة هى الأصل فى الحياة القبلية . كذلك نظام الوصية قد نظم توزيع الثروة وقضى على قوانين الزواج من خارج القبيلة تلك القوانين التى أخذت تنمحى تماماً[1] .

٤ — الدعاة والمعلمون

اهتم خلفاء المسلمين بنشر الإسلام فى القارة الإفريقية ، إذ كان الدين غايتهم المنشودة من هذا الفتح الذى يقوم عن طريق الجهاد أو القتال فى سبيل الله ، عن طريق الحجة والموعظة الحسنة عملا بقوله تعالى فى سورة الحج (٢٢ : ٧٧) (وجاهدوا فى الله حق جهاده هو أجتبا كم وما جعل عليكم فى الدين من حرَج) ، بمعنى أن الوسائل التى يتخذها الفاتحون تصبح مشروعة طالما كانت

---

(١) Andereon, pp 275 - 276.

لوجه الله ونُصرة الدين الحنيف . ولم يستعمل المسلمون فى فتوحهم طريق الإكراه فى نشر الدين نزولا على قوله تعالى ، بل لقد كان قتالُ المسلمين للدفاع عن النفس ، إذ كانت قاعدة الجهاد أنْ يعرض المسلمون فكرة الدين على الناس عرضاً سِلمياً ، فإنْ أجابوا دخلوا الإسلام وكان لهم ماللمسلمين وعليهم ماعليهم ، وإنْ أبَوْا عرض المسلمون عليهم أداء الجزية مقابل تأمينهم على أنفسهم وحماية عقيدتهم وأولادهم وأموالهم ، فإن أبوا كان معنى ذلك أنّ هؤلاء المشركين أو الوثنيين يؤثرون إشهارَ السيف فى وجه المسلمين . ومعنى ذلك بالتالى أنهم هم البادئون بالعُدوان ، فكان على المجاهدين المسلمين أنْ يردُّوا العُدوان تمشياً مع مبدأ الدفاع عن النفس الذى نص عليه القرآن الكريم فى قوله تعالى فى سورة البقرة (٢ : ١٩٤) (فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم) . ومعنى هذا أن دعاية المسلمين لدينهم لم تكن عن طريق القهر والغَلَب ، وإنما كانت تتمشى مع المنطق الإسلامى القويم[1] .

الدعوة الإسلامية دعوة روحية

من ذلك نرى أن الدعوة إلى الإسلام لم تكن على نمط الدعاية الحديثة التى تقوم غالباً على أنّ الغاية تبرّر الوسيلة . فكانت الدعوة الإسلامية دعوةً روحية بَحْتْ . وفى ذلك يقول سير توماس أرنولد « إن الأساليب السلمية كانت الطابع الغالب على حركة نشر الدعوة الإسلاميـــة فى القارة الإفريقية . . . وكان الداعى المسلم يتعقّب الفاتح ليكمل النقص فى تحويل الناس إلى الإسلام ، والحق أنّ نجاح الرواد المسلمين نجاحاً دنيوياً سهّل إلى حد كبير جداً نجاحَ الإسلام فى جهات كثيرة من هذه القارة ، كما سهّل تأسيسَ دولٍ إسلامية على

(١) راجع ما ذكرته فى مجلة البينة ، العدد الأول (مايو ١٩٦٢ ص ١٠ — ٢١) .

أنقاض دول وثنية ، وحيثما شقَّ الإسلام طريقه ، نجد هناك الداعى المسلم حاملاً الدليل لعقائد هذا الدين[١] . »

ويقول فورجى[٢] : وقد زاد من تيسير جهود الداعى فى نشر الدعوة أنّ الاعتقاد بوجود الله مع إنكار الوحى والأديان(Deism)وهو أساس الشعور الدينى عند كثير من عبدة الأوثان ، يمكن أن يتحول فى سهولة ويسر ، إلى عقيدة التوحيد عند المسلمين . وكذلك الحال فى بعض مظاهر أخرى فى فلسفتهم الدينية ، وهكذا نجد أنّ نظرتهم العامة فى الحياة وكثيراً من شرائعهم الدينية ، قابلةٌ لأن تصطبغ بصبغة إسلامية ، وأن تتحول إلى نظام الدين الجديد دون إجراء تغيير كبير » .

والداعى المسلم يستطيع أنْ يُمِدَّ القبائل الزّنجية غيرَ المتحضّرة بكثير من الحقائق المتعلّقة بالله وبالإنسان تصل إلى القلب ، بل يستطيع إلى جانب ذلك أن يمنحهم ترخيصاً بالدخول فى وَحْدة اجتماعية سياسية ، تُخولهم حق الحماية والمساعدة فى البلاد الإسلامية التى تمتد من المحيط الأطلسى غرباً إلى سور الصين شرقاً . وحيثما يستطيع المسلم أن يجد هناك داراً إسلامية ، يجد الإفريقى الذى تحوّل إلى الإسلام ، يُرَدِّد أركان عقيدته ، واثقاً من المأوى والقوت والنصيحة ، وسرعان ما يجد نفسه فى بلاده عضواً فى طبقة ذات نفوذ ، إن لم يكن فى الطبقة السائدة[٣] .

---

(١) The Preachiug of Islam, 3 rd. ed. (London, 1935).
الترجمة العربية : الدعوة إلى الإسلام (الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٥٨ ص ٣٩١ — ٣٩٢) .

(٢) Forget, L' Islam et le Christianisme dans l' Afrique Central (Paris, 1900), p. 28 et seq.

(٣) انظر حسن إبراهيم حسن : انتشار الإسلام والعروبة فى القارة الإفريقية ، ص ٣٣ — ٣٥ (الطبعة الأولى ، القاهرة ١٩٥٧)

على أنه من الثابت أن عقبة بن نافع وزهير بن قيس البلوى لم يتمكّنا من نشر الإسلام لانشغالهما بالفتوح ومقاومة الوثنيين والروم . فلما تقلد حسّان ابن النّعمان ولاية بلاد المغرب حرص على نشر الدعوة الإسلامية ، ولكنه دُهم بالمقاومة الشديدة التى أعدّها له الروم فى شخص الكاهنة « داهية » التى خلفت كَسيلة الذى قتله حسان . ولكن حسان كسر شوكة الروم الذين قويت عزيمتهم وانبعث فيهم الأمل فى استرداد بلاد المغرب من أيدى المسلمين ، إذ قاتلهم حسان قتالاً مريراً وأنزل بهم الهزيمة ، ثم اتجه لمحاربة الكاهنة التى هزمت حسانا ، وقد أنهكت جنده الحروب مع الروم ، فانسحب إلى طرابلس وظل بها خمس سنوات ، ثم أمره الخليفة الأموى بالتوجّه لمحاربة الداهية حيث أحل بها الهزيمة . وبذلك استطاع حسان أن يتفرغ لنشر الإسلام وتدوين الدواوين بالعربية . وكان حسان واليًا محبوبًا ، ساوى بين العرب والبربر ، وكادت تُفتح على يديه صفحة جديدة فى تاريخ المغرب الإسلامى ، ولكنّ القدَر عانده ، فخلع من منصبه ، وخلفه موسى بن نصير الذى أتم فتح الأندلس سنة ٩٢ هـ .

وكان فتح بلاد الأندلس فتحاً للإسلام فى المغرب والأندلس معًا . ذلك أن معظم الجيش الذى فتح هذه البلاد كان من البربر بقيادة طارق بن زياد . وقد شعر المغاربة لأول مرة بمساواتهم بالعرب ، وبدأت شخصية المغرب الإسلامى تدخل فى دورها الفعّال ، إذ شعر البربر بعد فتحهم الأندلس أنهم أضحَوْا حماة الإسلام فى هذه البلاد ، وأنّ عليهم مهمة نشر هذا الدين ومناهضة المسيحيين . وقد حرص الخلفاء على اختيار طائفة من الفقهاء ليعلموا البربر فرائض الإسلام ويفسروا لهم آيات القرآن الكريم . وأظهر بعض خلفاء المسلمين ، ولا سيما

الخليفة العادل عمر بن العزيز ، حماسةً فى إعلاء شأن الإسلام . فقد أرسل مع واليه على شمالى إفريقية عشرة من الفقهاء ليفقهوا مسلمى المغرب(١) .

ثم قامت دولة الأدارسة بدور هام فى نشر الإسلام فى ربوع المغرب . وكان لانتساب الأدارسة إلى الرسول الكريم أثر كبير فى توحيد القبائل المتمادية وتأييد الأهلين على اختلاف ميولهم بعد أن كادت فتن الخوارج تمزق شملهم . واستطاع المولى إدريس لأول مرة أن يوحد بين إقليم السهول الساحلية (المغرب الأقصى) وإقليم المراعى ، أى بين إقليم الحضارات القديمة وإقليم البداوة . كما استطاع الأدارسة أن يوجهوا أنظارهم إلى حركة جهاد مقدس بقصد إتمام إسلام البلاد ومحاربة العقائد الشاذة والقضاء على بقايا اليهودية والنصرانية بين قبائل المغرب الأقصى . وجاوز نفوذهم منطقة المغرب الأقصى إلى الصحراء الكبرى التى تفصل بلاد المغرب عن إقليم السودان(١) .

ولما كانت ديار الملثمين قريبة من جبال درن (بفتح الدال والراء وسكون النون) انضمت تحت لواء الأدارسة وأصبحت جزءاً من أملاكهم ، تخضع للحكومة المركزية فى فاس . لذلك زاد تحول صنهاجة اللثام إلى الإسلام الذى بدأ فى عهد عقبة وزاد فى عهد الأدارسة ، وانتشر بين الملثمين فى القرن الثالث الهجرى ، وكان إسلامهم ذا أثر بالغ فى تاريخ المغرب والسودان ، فقد تمخض عن قيام حلف قوى ضم قبائل الملثمين جميعها بزعامة لمتونة . فلما تم هذا الحلف أخذت القبائل المتحالفة على عاتقها أن تعدّ العدة لتوسع

---

(١) حسن إبراهيم حسن ، مجلة البينة ، العدد الأول (مايو ١٩٦٢ ص ١٨) .

(٢) الجزنائى : زهرة الآس فى بناء مدينة فاس (فاس ١٩٢٢ ، ص ٢٢) .

جديد : إما صوب الشمال باختراق نطاق الجبال والاغارة على سهول المغرب الأقصى ، أو بالتقدم صوب الجنوب .

أما الناحية الأولى فلم يكن من السهل أن تُقدم القبائل على المغامرة فيها بسبب قوة الأدارسة وحلفائهم من الزناتيين والمصامدة . فلم يبق أمام هذا الحلف إلا أن يتّجه صوب الجنوب . ومما ساعد على هذا التوسع أنه كان بقصد الجهاد وابتغاء مرضاة الله ونشر الإسلام بين القبائل الزنجية الضاربة إلى الجنوب . وكانت القبائل الملثمة حديثة العهد بالإسلام قد أرادت أن تسهم فى حركة الجهاد.

ومما ساعد هذه القبائل على التوسع صوب الجنوب أن مملكة غانة الزنجية فى ذلك الوقت قد أصابها الضعف والتفرق ، حتى استطاع أعداؤها أن يغيروا عليها فى الجنوب ، فى الوقت الذى أثخنتهم سيوف الملثمين فى الشمال ، فانتصر هؤلاء الملثمون ومضوا قُدماً فى توسعهم حتى أصبحوا على مسيرة أيام من منحنى نهر النيجر ، فكانت هذه الخطوة بالغة الأثر فى تدفق سيل الإسلام إلى غربى القارة الإفريقية(١) .

ولا يفوتنا أن نشير إلى ذلك الدور العظيم الذى قام به عبد الله بن ياسين فقيه لمتونة فى سبيل نشر الإسلام فى الصحراء وفى حوض السنغال : ولم تلبث أن تجمعت طائفة من تلاميذه ، وخاصة من جدالة (بضم الجيم) ومسوفة (بفتح الميم والفاء) ولمتونة (بفتح اللام) ، بلغوا ، فيما قيل ، نحو ألف شخص قاموا بنشر الإسلام .

وقد اعتنق زعماء لمتونة وجدالة الإسلام على مذهب الإمام مالك ، واستطاع عبد الله بن ياسين أن ينشىء رباطاً فى جزيرة عند مصب نهر السنغال ،

---

(١) انظر حسن إبراهيم حسن : انتشار الإسلام والعروبة فى القارة الإفريقية (القاهرة ١٩٥٧) ص ٥١ — ٥٢ .

وأن ينشر حركة الجهاد فى سبيل الله ، وكان للجهاد فى زعمه غرضان : أولهما فتح بلاد السودان وتحويل أهلها إلى الإسلام : وثانيهما ، نشر مذهب الإمام مالك بين شعوب إفريقية الشمالية[1] .

ومن كلمات عبد الله بن ياسين المأثورة لطلابه قوله : (أخرجوا على بركة الله وأنذروا قومكم وخوّفوهم عقاب الله ، وأبلغوهم حجته ؛ فانْ تابوا ورجعوا إلى الحق وأقلعوا عما هم عليه ، نخلوا سبيلهم ،و إن أبوا ذلك وتمادَوْا فى غَيِّهم ولجوا فى طغيانهم ، استعنّا بالله عليهم ، وجاهدناهم حتى يحكم الله بيننا[2]) .

وتعتبر هذه العبارة منهجاً أساسياً وضعه عبد الله بن ياسين لدعاة المرابطين من بعده .

مراكز الدعوة الإسلامية

ويحسن بنا فى هذا المقام أن نشير إلى مراكز الدعوة الإسلامية التى كان يتخذها الدعاة أماكن تنبعث منها الدعوة إلى الإسلام ، نعنى بذلك المسجد والزاوية والرباط . وكان الدعاة يتخذون المسجد مكاناً للوعظ والارشاد ومنتدى للاستفسار عن كثير من المسائل الدينية وإيضاحها على أيدى هؤلاء الدعاة ، وقبل هذا وذاك ، فإنّ المسجد مكان العبادة وإقامة الشعائر الدينية التى كان يتعلمها الناس عمليا على أيدى الدعاة والمعلمين .

ومن معاهد العلم (الزاوية) ، وهى مأخوذة من الفعل انزوى ينزوى ، بمعنى اتخذ ركناً من أركان المسجد للاعتكاف والتعبّد . وقد أدرك خلفاء المسلمين الأوائل حاجة المعتكفين إلى هذا الانزواء ، فأنشئوا لهم مساكن ملحقة

---

(١) المصدر السابق ص ٥٧ .

(٢) ابن أبى زرع : الأنيس المطرب ج ١ ص ١٤ — ١٦ .

بالمسجد ، كما نشاهد ذلك ماثلاً حتى الآن ببعض مساجد فاس والقاهرة . ثم تطورت الزوايا فيما بعد إلى أبنية صغيرة منفصلة فى جهات مختلفة من المدينة فى شكل دور أو مساجد صغيرة يقيم فيها المسلمون الصلوات الخمس ، ويتعبدون فيها ويعقدون بها حلقات دراسية فى علوم الدين وما يتصل بالدين من العلوم النقلية والعقلية . وتطلق الزاوية أيضاً على المعهد والرباط الذى تنشئه إحدى الفرق الصوفية كالقادرية والتجانية والسنوسية والشاذلية والخلوتية . وتنتشر الزوايا فى كثير من أرجاء المدن والقرى .

وتطلق كلمة زاوية فى المغرب على مسجد خاص بطائفة من الصوفية أو ضريح لأحد الأولياء ، تتصل بهما غالباً مقبرة يُدفن فيها بعضُ مَنْ لهم علاقة بالطريقة أو قرابة بالولى . وكثيراً ما تلحق بالزاوية حجرات ينزل فيها الضيوف والمنقطعون للعلم أو العبادة. وكانت الزاوية المغربية «مدرسة دينية وداراً لضيافة الأغراب » .

وفى القرن الثامن الهجرى (الرابع عشر الميلادى) . انتشرت الزوايا فى المغرب ، وأُنشئت بها كتاتيب لتحفيظ القرآن وتعليم الدين ومبادىء العلوم ، الأمر الذى حدا بملوك بنى مرين أن يُطَوِّروا هذه الكتاتيب إلى مدارس وكليات ، ليُسهموا فى الحركة العلمية بجانب جامعة القرويين بفاس وغيرها من مدارس الزوايا فى داخل المدن وفى خارجها ، وقد خصّص ابن مرزوق التلمسانى المتوفى سنة ٧٨١ هـ (١٣٧٩ م) الفصل الثانى والأربعين من رسالته عن أبى الحسن المرينى المسماه « المسند الصحيح الحسن » للكلام على الزوايا التى شيّدها هذا الملك المغربى[١] .

وقد تطورت الزوايا بالمغرب فى القرن التاسع الهجرى (الخامس عشر الميلادى) حين اشتدت وطأة النصارى على المسلمين فى الأندلس ، وامتدت

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية ، ترجمه ، العدد التاسع ، المجلد العاشر ص ٣٣٢ .

أطماعهم إلى احتلال السواحل المغربية . ولما ضعفت الدولة عن الدفاع عن البلاد ، أخذت الزوايا تدعو إلى الجهاد ومقاومة الأجنبى ، و بلغت أوج ازدهارها فى القرن العاشر الهجرى (السادس عشر الميلادى) ، واستطاعت أن تجلس على العرش المغربى أسرة الشرفاء السعديين ، وأن تقف معهم جنباً إلى جنب فى الجهاد ضد المسيحيين المحتلين . وقد وُفِّقت هذه الزوايا إلى طردهم من بعض الثغور المغربية .

وقد تطورت الزوايا فى المغرب فى خلال القرنين العاشر والحادى عشر للهجرة (السادس عشر والسابع عشر للميلاد) ، حتى أصبح عددها يقرب من عدد المساجد أو يفوقها ، واختلط فيها أمر الصالحين بمدعى الصلاح من ذوى الأغراض الفاسدة والمُشَعْوِذين . على أنّ هنالك بعضَ الزوايا التى لم يَحِدْ أهلها عن سبيل الدين وأجمع الناس على صلاحهم واستقامة سلوكهم ، وظهرت نتائج أعمالهم ، كالدلائيين والفاسيين والناصريين .

ولم تكن هذه الزوايا الثلاث بمعزل بعضها عن البعض الآخر ، على الرغم من اختلاف مواقعها ، وإنما كان يجمع بينها التزاور فى حل المشاكل الاجتماعية . ومن المقرر عند الأشياخ أن العلم إنما أحياه بالمغرب ثلاثة من الشيوخ هم : سيدى محمد بن أبى بكر الدلائى ، وسيدى محمد بن ناصر فى درعة ، وسيدى عبد القادر الفاسى[1] . وإلى جانب هذه المراكز الدينية الهامة كانت زاوية العيّاشية ، وهى ربيبة الدلائيين ، تقوم بدور مماثل فى منحدرات الأطلس المطلة على أراضى تافيلالت وواحات الصحراء ، ولا تزال محتفظة بمكتبتها التى تزخر بكثير من الكتب إلى اليوم .

---

(١) محمد بن أحمد الفاسى : المورد الهنى ، مخطوط ، الخزانة العامة بالرباط ورقة ٢ ب .

الرباط

(ا) فى المشرق :

وأما الرباط فإنه لا يقل أهمية عن المسجد فى كونه مكاناً تشع منه الدعوة إلى الإسلام .

فقد كان حد سورية المقابل لآسيا الصغرى معرضاً للخطر من ناحية البيزنطيين ، ولكى يحمى المسلمون أنفسهم من إغاراتهم المتعددة ، أقاموا الحصون فى بعض المدن الواقعة على تخوم دولتهم ، مثل طرسوس وأذَنة والمِصِّيصة ومرعش ومَلَطْية . وكانت هذه الحصون — أو الثغور كما كانت تسمى — تقع طوراً فى أيدى العرب ، وطوراً فى أيدى الروم . وإلى عمر بن الخطاب يرجع الفضل فى إقامة الحصون والمعسكرات الدائمة لراحة الجنود فى أثناء الطريق ، بعد أن كانوا يقطعون المسافات الطويلة على ظهور الإبل ، ولا يستريحون إلا فى أكواخ صغيرة مصنوعة من سعف النخل . ولذلك بُنيت « العواصم » وأقيمت الحاميات لصد هجمات الأعداء المفاجئة . وفى عهد عمر بن عبد العزيز رأت الدولة الأموية أن تجد أعمالاً جديدةً غير الفتح والغزو للمرابطين من جند العرب فى الولايات الإسلامية حتى لا يكونوا عيالاً على بيت المال .

ولما استولى أبو جعفر المنصور العباسى على المدن الواقعة على حد سورية المقابل لآسيا الصغرى ، حصّن هذه المدن وأحكم بناءها من جديد ، وأطلق عليها اسم الثغور . ولما ولى هارون الرشيد الخلافة سنة ١٧٠ هـ أنشأ ولاية جديدة سماها « الثغور » ، وجعل لها نظاماً عسكرياً خاصاً ، وأقام فيها المعاقل ، وأمدها بحاميات دائمة ، ومنح الجند بالإضافة إلى أرزاقهم أراضى قاموا بتعميرها وزراعتها هم وأسراتهم . فازدهرت هذه الثغور على الرغم من الحروب المتصلة التى قامت بين

المسلمين والبيزنطيين . وقد سار أبناء الرشيد على نهجه فى جهاد الروم . وكان من أبرز الحروب التى قامت بين ابنه المعتصم وبين الروم ، موقعة عمورية الشهيرة التى انتصر فيها المعتصم على الروم انتصاراً حاسماً يتمثل فى قصيدة أبى تمام الشهيرة التى سخِر فيها بالمنجمين ومجّد إقدام الخليفة المعتصم فقال فى مطلع قصيدته المشهورة :

السيفُ أصدقُ أنباءً من الكتبِ   فى حدِّه الحدُّ بين الجِدِّ واللَّعبِ

وكان العلماء والشعراء الذين يؤثرون حياة الراحة يلجئون إلى هذه الثغور للتفرغ للدرس والبحث ، كما كان يتوافد غزاة المسلمين من أنحاء الدولة الإسلامية ويرابطون فيها ، وتكثر لديهم الصِّلات وترد عليهم الأموال العظيمة ويحتفلون فيها بالأعياد ، حتى أصبح عيدا الفطر والأضحى فى هذه الثغور من محاسن الإسلام .

وكان المسلمون — كما نعلم — يغزون بلاد الدولة البيزنطية صيفاً وشتاء . ولذلك سُميت هذه الغزوات : الصوائف والشواتى . وكان الخلفاء يعهدون إلى ولاة عهودهم أو إلى قضاة قضائهم قيادة الصوائف والشواتى ، لأنهم كانوا يَعُدُّونها نوعًا من الجهاد فى سبيل الله . فقد قاد يحيى بن أكثم جند المسلمين لحرب البيزنطيين فى عهد الخليفة العباسى المأمون ، وقادهم أحمد بن أبى دؤاد فى عهد الواثق ، وسار الأمويون فى الأندلس على نهج الأمويين والعباسيين فى الشرق فى تولية قضاتهم قيادة الصوائف لحرب الروم نيابة عنهم . ومن هؤلاء القضاة منذر بن سعيد قاضى قضاة الأندلس الذى تولى قيادة الصوائف فى عهد عبد الرحمن الناصر[1] .

وقد أنشأ المعز لدين الله ومن جاء بعده من الخلفاء الفاطميين ، السفن الحربية فى مصر (وهى الفسطاط والعسكر وأطلال القطائع) ، وفى الإسكندرية

(١) ابن خلدون : مقدمة ص ١٩٣ .

ودمياط . وكانت بعض وحداتها تسير للمرابطة فى الموانى الشآمية مثل عكاء وصور وعسقلان[١] .

(ب) فى المغرب :

وكان لفتوح المرابطين فى حوض السنغال فى القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) أثر كبير فى نشر الإسلام حتى أصبحت بلاد المغرب كلها ومنطقة الصحراء الكبرى بلاداً إسلامية . وكانت القبائل المحاربة تدخل فى الإسلام فى سهولة و يسر ، يشجعها على ذلك ماعرفه الإسلام من نظام الجهاد ، ووجدت هذه القبائل الفرصة مهيأة لتنحدر نحو الجنوب وتفتتح بلاد الوثنيين وتختلط بهم ، وأدى ذلك إلى قيام ممالك قوية فى بلاد السودان الغربى مثل صُنْغاى ومالى واليوروبا و بُرْنو[٢] .

وأغلب الظن أن محمداً المهدى بن تومرت قد سار على نهج عبد الله بن ياسين فى تأسيسه رابطة بمسقط رأسه هَرْغة (بفتح الهاء وسكون الراء وفتح الغين المعجمة) ، كانت مقراً له ولتلاميذه ولأتباعه ، ومنها انبعثت الدعوة المحمدية التى كان من أثرها أن تأسست الدولة الموحدية بالمغرب فى القرن السادس الهجرى (الثانى عشر الميلادى) .

ولقد عرف المغرب الرباط قبل أن يعرف الزاوية ، ولعلّ عَهْدَه به يرجع إلى زمن الفتح الإسلامى فى القرن الأول الهجرى. فرباط شاكر المعروف عند الفرنجة بسيدى شكير (بضم الشين) على ضفة وادى نفيس جنوبى مراكش ، هو

---

(١) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية (القاهرة ١٩٥٨) ص ٣٠٣ .

(١) حسن إبراهيم حسن : انتشار الإسلام والعروبة فى القارة الإفريقية (القاهرة ١٩٥٧) ص ٦ .

مدفن شاكر أحد أتباع الفاتح العظيم عقبة بن نافع الفهرى ، بناه يَعلى (بفتح الياء) بن مَصْلين (بفتح الميم وسكون الصاد) أحد رجال رَجراجة (بفتح الراء) السبعة الذين يقال إنهم وفدوا على الرسول عليه الصلاة والسلام بمكة ، فأسلموا وعادوا إلى المغرب دعاةً للدين الحنيف . وكان شـــاكر يقاتل فيه كفار بورغواطه[1] . وقد جدد المولى محمد بن عبد الله هذا الرباط سنة ١١٧٨ هـ . (١٧٦٤ م)[2] .

ويمتاز الرباط بطابعه الحربى بالاضافة إلى وظائفه الدينية من العبادة ، وتلاوة القرآن ، والتفقه فى الدين . وهو بذلك لا يختلف عن الرابطة إلا من حيث كونُها تبتدىء حيث ينتهى ، فتجعلُ هدفَها الأول العبادةَ وتحصيلَ العلم ، وتهيىء المرابطين فيها بعد ذلك للجهاد ، على ما نجده فى رابطة عبد الله ابن ياسين الجزولى[3] . وقد اجتمع فى هذه الرابطة نحو ألف من رجال صَنْهاجة كما تقدم ، فكان عبد الله يعلمهم أموز الدين أولاً ، ثم أمور الجهاد فى سبيل نشر الدين الحنيف . وقد تطور أمر عبد الله وتلاميذه إلى أن أسسوا دولة المرابطين . وكان عبد الله منقطعاً للعلم والجهاد فى رباط شاكر ، ثم انتقل إلى أقصى الصحراء ليرشد قبائل صنهاجة ويفقههم فى أمور الدين . ومات وهو يقاتل كفار بورغواطة سنة ٤٥١ هـ (١٠٥٩ م) ، وقبره معروف بكريفلة على الطريق الذاهبة من الرباط إلى الرمّانى[3] .

---

(١) يوسف بن الزيات التادلى : التشوف إلى رجال التصوف (نشرة مسيو فور ، (الرباط سنة ١٩٥٨) ص ٢٦ .

(٢) انظر مجلة المغرب التى كان يصدرها محمد الصالح ميسة بالرباط ، المقال الافتتاحى عدد شهرى ربيع — جادى سنة ١٣٥٥ هـ (يونية — يولية ١٩٣٦) .

(٣) انظر الأنيس المطرب بروض القرطاس لابن أبى زرع (الرباط ١٣٥٥ / ١٩٣٦) ج ٢ ص ١١ وما يليها حيث تجد ترجمة مطولة لعبد الله بن ياسين .

وقد ذكر ابن الزيات المتوفى سنة ٦٢٧ هـ (١٢٣٠ م) فى كتابه التشوف إلى معرفة التصوف ، أحد عشر رباطاً وتسع رابطات ، مع الإلمام ببعض أخبار روادها والمنقطعين إليها[١] .

٥ — التجـــــار

والإسلام ذو طابع سلمى كما تقدم ، ويكفى أن يزور تاجر مسلم أو فقيه مسلم أحد بلاد القارة الإفريقية ، ثم يستقر به النوى ، فيعمد السكان الوثنيون إلى الاستعانة بالتعاويذ الإسلامية مع تعاويذهم الوثنية ، وزيارة شيوخ المسلمين بالإضافة إلى كهنتهم الوثنيين . والتاجر ، سواء أكان من العرب أم ممن أسلموا من أهالى هذه البلاد ، كان يجمع بين نشر الدعوة وبيع سلعته . وحرفة التجارة من طبيعتها أن تصل التاجر بصلة وثيقة مباشرة بالمجتمع ، وبخاصة بأولئك الذين يتاح له أن يحولهم إلى الإسلام ، وينفى عنه كل ما عساه أن يُتهم به من تهم تعرقل نشر الدعوة الإسلامية التى تنبعث من التاجر طواعيةً واختياراً لا تكلُّف فيها ولا تصنّع على نحو ما يقوم به الدعاة . وإذا دخل التاجر قرية وثنية فسرعان ما يلفت إليه الأنظار بكثرة وضوئه الذى هو مظهر من مظاهر النظافة المحببة إلى النفوس البشرية . هذا إلى انتظامه فى أوقات الصلاة والعبادة التى يؤديها بنظام ثابت وفى خشوع كأنه يخاطب كائناً خفياً ، وما يتحلى به من سمو عقلى وخلقى . كل أولئك الصفات الحميدة مما يستميل القلوب إليه ويفرض احترامه والثقة به على الأهالى الوثنيين ، الذين يبدى لهم فى نفس الوقت استعداده ورغبته فى إمدادهم بمزايا هذا الدين الذى يتعبد على وفق أحكامه ، وعن منشىء هذا الدين الذى أوجد هذه الفضائل[٢] .

---

(١) انظر مقالى الذى نشرته مجلة البينة (الرباط ، المغرب) العدد التاسع فبراير ١٩٦٣ .

(٢) سير توماس أرنولد : الدعوة إلى الإســلام ، ترجمة ص ٣٩١ — ٣٩٢ . حسن إبراهيم حسن : انتشار الإسلام فى القارة الإفريقية ص ٢٦ ، ٣٣ ، ٣٥ .

وقد ساعد إلغاء الرقيق وتيسير المواصلات فى العصر الحديث على ترويج التجارة ، ومكن للتجار والدعاة المسلمين النشيطيين أن يبسطوا تأثيرهم فى مناطق لم تطأها الأقدام من قبل ، وأن يجولوا فى الأراضى المألوفة[1] . وقد أخذ الإسلام ينتشر تدريجيا عن طريق التجارة عَبْر الاقاليم الصحراوية الكبرى وفى إقليم المراعى والشجيرات القصيرة جنوبى الصحراء ، وتطرق فى بعض الجهات إلى ساحل المحيط الأطلسى وساحل غينيا[2] .

وكان للمغرب علاقات تجارية واسعة مع أهالى البلاد الواقعة جنوبى الصحراء بين المغرب وبلاد السودان . فقد قال الشريف الإدريسى[3] عند كلامه على مملكة غانة : ومدينة ملال إلى مدينة غانة الكبرى نحو من اثنتى عشرة مرحلة فى رمال ودماس (قفار) لا ماء بها . وغانة مدينتان على ضفتى البحر الحلو (يقصد نهر النيجر) . وهى أكبر بلاد السودان قُطْرا وأكثرها خَلْقًا وأوسعها متجراً . وإليها يقصد التجار المياسير من جميع البلاد المحيطة بها ، ومن سائر بلاد المغرب الأقصى . وأهلها مسلمون ، وملكها فيما يوصف من ذرية صالح بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب ، وهو يخطب لنفسه ، لكنه تحت طاعة أمير المؤمنين العباسى . وله قصر على ضفة النيل (يقصد به نهر النيجر أيضاً) قد أوثق بُنْيانُه وأُحكم إتقانه ، وزُيِّنت مساكنه بضروب من النقوش والأدهان وشمسيات الزُّجاج . وكان بنيان هذا القصر فى عام عشر وخمسمائة من سنى الهجرة .

---

(١) سير توماس أرنولد : ترجمة ص ٣٩٣ ، ٣٩٩ — ٤٠٠ .

(٢) حسن إبراهيم حسن : انتشار الإسلام فى القارة الإفريقية ص ٤٢ .

(٣) نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق ، نصوص من هذا الكتاب بعنوان : « المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس » ص ٦ .

وقد ذكر الشريف الإدريسي أنه كان بنهر النيجر جزيرة تقع شرقي مدينة غانة ، طولها ثلثمائة ميل وعرضها مائة ميل . ويحيط بها النهر في سائر السنة، ويطلق الإدريسي على هذا النهر اسم النيل ، ولعله يظن أن نهر النيجر هو امتداد لنهر النيـل . وبعد انتهاء موسم الفيضان في شهر أغسطس وانخفاض مياه هذا النهر ، يقصد أهالي هذه الجهات هذه الجزيرة بحثاً عن التبر ، « فيجد كل إنسان منهم في بحثه هناك ما أعطاه الله سبحانه كثيراً أو قليلا من التبر . وما يخيب منهم أحد . فإذا عاد النيل (أي النيجر) إلى حده باع الناس ما حَصُل بأيديهم من التبر وتاجر بعضهم بعضا ، واشترى أكثره وارقلان (بفتح الألف مع الهمزة وسكون الراء وفتح القاف) وأهل المغرب الأقصى ، وأخرجوه إلى دور السِّكك (أي دور صك النقود) في بلادهم فيضربونه دنانير ويتصرفون بها في التجارات والبضائع . هكذا في كل سنة[1] .

وقد ذكر الناصري السلاوي[2] نقلا عن أبي العباس أحمد الشريشي صاحب كتاب شرح المقامات الحريرية أن تجار المغرب كانوا يجتمعون في سجلماسة حاضرة بني مدرار ، ثم يسيرون في قوافلهم إلى غانة ، فيقطعون المسافة في ثلاثة أشهر ذهاباً وشهر ونصف إياباً ، فيبيعون ما معهم من الأمتعة والأثقال بالتبر . ويحدثنا الشريشي أن التاجر المغربي كان إذا سافر إلى غانة بثلاثين حملا ، رجع منها بثلاثة أحمال أو حملين : واحد لركوبه وثان للماء وذلك بسبب اختراقه المفازة » . وكان التجار يقطعون هذه المفازة في ستة عشر يوما لايرون فيها ماء إلا ماحملوه على ظهور إبلهم . وقد أضاف الشريشي إلى ماتقدم أن أثمان أحمال الثلاثين جملا يوضع فيها من التبر مايملأ مِزوداً واحداً ، وهذا يؤيد رأي الشريف الادريسي في استخراج التبر واستعماله في هذا العصر .

---

(١) الادريسي : المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس ص ٨ .

(٢) الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ج ٥ ص ٩٩ — ١٠٠ .

٦ — العنصرية ومبدأ المساواة

ويبدو أن هذا هو السر الحقيقي في نجاح الدعاة والمعلمين والتجار المسلمين في إفريقية . ويرجع السبب في تحول كثير من أهالي هذه البلاد إلى الإسلام إلى أن الداعي المسلم كان منذ اللحظة الأولى ، التي يعترف فيها المتحول إلى الإسلام بالعقيدة يسير على المبادىء القائمة على الإخاء والمساواة ومحاربة الطبقية ، وهي مبادىء يشترك فيها الإسلام مع المسيحية . غير أن هذا الداعي المسلم أسرع في القيام بهذا العمل من المبشر المسيحي الذي يعد مضطرا إلى المطالبة بدليل قوي على إخلاص المتنصر قبل أن يصافحه مصافحة المسيحي الأبيض سيداً والوثني الأسود عبداً .

ومن المهم أيضاً أن نلاحظ أن لون الزنجي وجنسه لم يحملا بأية حال إخوانه في الإسلام على أن يتعصبوا عليه . وقد تقدم نجاح الإسلام في إفريقية الزنجية (Nigritia) تقدما جوهريا ، بسبب عدم وجود كل إحساس باحتقار الأسود الذي لم يعامل قط على أنه من طبقة منحطة ، كما هي الحال في كثير من الأحيان في العالم المسيحي . وبينما نجد المبشرين المسيحيين لا يتزوجون من الزنجيات حتى لا يثيروا شعور أبناء جنسهم عليهم ، نجد الدعاة المسلمين ينفذون إلى قلب إفريقيـة وينفذون في سهولة إلى الوثنيين ويحولونهم إلى الإسلام ويتزوجون من الزنجيات ، ويسيرون مع أهالي هذه البلاد على المبادىء القائمة على الإخاء والمساواة . لهذا لا نعجب إذا نظر الزنوج إلى الإسلام على أنه دين السود وإلى المسيحية على أنها دين البيض ، ويرون أن المسيحية تدعو الزنجي إلى الخلاص ، ولكنها تضعه في مكان منحط بحيث أصبح يعتقد أنه ليس له نصيب في هذا الدين[١] . أما الإسلام فإنه يدعو الناس

---

(١) سير توماس أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ، ترجمة ص ٣٩٩ .

إلى الخلاص ويكفل لهم الوصول إلى أسمى الدرجات . لقد قام الإسلام على أساس الحرية والإخاء والعدالة والمساواة والتسامح الديني . ومن أبرز مظاهر الإسلام أنه آخى بين المسلمين على اختلاف طبقاتهم ، وجعلهم إخوة لا تفاوت بينهم إلا بقدر ما يتفاضلون به من الحق . نعم ! لقد حافظ الإسلام على الطبقات ، وحافظ على كرامة الفرد ، وقضى على العنصرية ، فسوى بين الناس على اختلاف أجناسهم : سوى بين الأبيض والأسود ، وبين الحاكم والمحكوم ، وبين الرجل والمرأة ، فلم يقم أى اعتبار للجنس ولا للون فى النظام الاجتماعى ولا فى إسناد مناصب الدولة وهى الخلافة ، ولم يجعل أى تفاضل بين مسلم ومسلم إلا بالتقوى . ولقد أثر عن الرسول أنه قال : « اسمعوا وأطيعوا ولو ولى عليكم عبد حبشى » .

ويتبين مدى ما يشعر به المسلم الإفريقى فى المجتمع الإسلامى وتعلقه بدينه واطمئنانه إليه من هذه العبارة التى ذكرها « موريل فى كتابه نيچيريا : أهلها ومشاكلها » ، عن أهل نيچيريا فقال : « إن الإسلام . . . لا يتطلب من وجهة نظر أهل نيچيريا أن يفقد أحدهم قوميته باعتبار أن ذلك شيء يصحب الدخول فى الإسلام ، ولا يستلزم تطوراً فى الحياة الاجتماعية . . . ولا هو يقوّض نفوذ الأسرة أو سلطة الجماعة . وليست هناك هوة بين الداعى إلى الإسلام والمتحول إليه ، فكلاهما متساو أحدهما مع الآخر ، لا نظريا ، بل عملياً ، أمام الله . وكلاهما إفريقى ، وهما من أبناء أرض واحدة . ومبدأ التآخى الإنسانى يُنَفَّذ تنفيذاً عملياً ، ولا يعنى الدخول فى الإسلام أن ينصرف الداخل فيه عن شئونه أو شئون أسرته وحياته الاجتماعية ، ولا عن احترامه لسلطان حكام بلاده الأصليين ... وليس هناك مَنْ لا يعجب بسلوك المسلم النيچيرى ووقاره ، بل بسلوك مسلمى إفريقية عامة . وإن هيئة الرجل العامة لتُنَمّ عن شعور بالقومية

واعتزاز بالجنس ، إنه ليخيل إليك أنه يقول : إن كلامنا يختلف عن الآخر ولكننا جميعاً بشر . و إن انتشار الإسلام الذى نشهده اليوم فى نيجيريا الجنوبية ليؤثر بصفة خاصة تأثيراً اجتماعيا ، ويمنح الإسلام هؤلاء الذين يتحولون إليه منزلة أرقى وفكرة أسمى عن مكانة الإنسان من العالم المحيط و يحرره من ربق ألف من الأوهام الخرافية[1] » .

وقد ورد فى القرآن الكريم أن موسى عليه السلام كان أسمر اللون . فقد جاء فى سورة طه (٢٠ : ٢٢) : (واضمم يدك إلى جَناحك تخرجْ بيضاء من غير سوء) . وجاء فى سورة الأعراف (٧ : ١٠٨) : (ونزع يده فإذا هى بيضاء للناظرين . قال الملأ من قوم فرعونَ إن هذا لساحر عظيم) . و إن شعور المسلمين نحو السود ليتجلى من هذا الحديث الذى دار بين الخليفة المأمون وعمه إبراهيم (بن المهدى أخى هارون الرشيد) الذى كان يطالب بالخلافة فى عهد المأمون العباسى حين كان بمرو حاضرة خراسان . فلما حضر المأمون إلى بغداد فر إبراهيم ثم جىء به إلى المأمون فعفا عنه . ويقص علينا إبراهيم قصة مقابلته مع الخليفة فيقول : « قال لى المأمون وقد دخلت عليه بعد العفوعنى : أنت الخليفة الأسود ، فقلت : يا أمير المؤمنين أنا الذى مَنَنْتَ عليه بالعفو ، وقد قال سُحَيْم (بضم السين وفتح الحاء وسكون الياء) عبد بنى الحَسْحَاس (بفتح الحاء وسكون السين) :

أشعار عبد بنى الحسحاس قُمْن له عند الفَخار مقام الأصْلِ والورِق[2]
إنْ كنتُ عبداً فنفسى حُرَّةٌ كرماً أو أسودَ الخَلْقِ إنى أبيضُ الخُلُقِ

---

(١) موريل . ، ص ٢١٦ — ٢١٧ .

(٢) بفتح الواو وكسر الواو : الفضة ، وقد أراد المال مطلقاً .

فقال لى : ياعمّ ! أخرجك الهزل من الجد ، وأنشد يقول :

ليس يُزْرِى السوادُ بالرجل الشهْـ م ولا بالفتى الأديبِ الأريبِ
إن يكنْ للسواد فيك نصيبٌ فبياض الأخلاق منك نصيبى [1]

٧ – أثر الإسلام فى الزنوج

كان لتحول الزنوج إلى الإسلام أثر بعيد فى حياتهم الاجتماعية ، لأن الإسلام – كما ذكرنا – لا يقيم وزنا للون أو للجنس ، وإنما يقوم على مجتمع دينى يسوده الإخاء والمساواة والحضارة الإسلامية التى تفوق حضارة الزنوج، تكفل لهم التخلى عن كثير من عاداتهم وطباعهم البربرية ، وتضمن لهم الترقى فى مضمار الحضارة عقليا وخلقيا وماديا . وتتمثل الحضارة الاسلامية وأثرها فى الزنوج فى هذه العبارة التى أوردها «بوذورث سميث» ، أصدق وصف حيث يقول :

« إن أقبح الرذائل ، وهى أكل لحوم البشر ، وتقديم الانسان قربانا ، ووأد الأطفال أحياء – تلك الرذائل ، قد اختفت فجأة وإلى الأبد . والأهالى الذين كانوا يعيشون حتى ذلك الوقت عراة أو أشباه عراة بدءوا يرتدون الملابس ، بل أخذوا يتأنقون فى ملابسهم . والأهالى الذين لم يغتسلوا قط من قبل ، بدءوا يغتسلون ، بل إنهم يكثرون من الاغتسال ، لأن الشريعة الإسلامية تأمر بالطهارة . . ويميل النظام القبلى إلى فسح المجال لأساس أوسع نطاقا ، وبعبارة أخرى إلى اندماج القبائل بعضها فى بعض لتصير أمما ، وبازدياد النشاط والمعرفة تصير الأمم إمبراطوريات . ونستطيع أن نورد كثيراً من أمثال هذه الحالات من تاريخ السودان والبلاد المتاخمة له فى خلال المائة (والخمسين) سنة الأخيرة .

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان (القاهرة ١٩٤٨) ج ١ ص ٢١ — ٢٢ .

ومتى أثير الروح الحربى على هذا النحو ، تكون الحرب أحسن تنظيما ، وهم لا يثيرون القتال دون سبب من الأسباب . وقد قلّ السلب ، كما زاد تأمين الناس على أملاكهم وأرواحهم . وقد أنشئت مدارس أولية لو اقتصرت على تلاوة القرآن لكانت ذات قيمة فى نفسها ، وقد تكون خطوة فى سبيل ما هو أعظم منها بكثير . وأصبح المسجد الجيد البناء النظيف ، بما فيه من أذان للصلاة خمس مرات فى اليوم ، وقبلة تتجه إلى مكة ، و إمام وصلاة جمعة ، مركزا للقرية بدلا من دار عبادة الأوثان ذات المنظر البشع .

وقد قهرت عبادة الله الواحد القهار ، الكائن فى كل مكان ، العليم ، الرحيم ، كل ما لقن الأهالى عبادته من قبل ، قهراً لا حد له . وظهرت صناعات وتجارة ، لا كالتجارة الصامتة التى تقوم الاشارات فيها مقام اللغة فى التفاهم ، ولا كالمبادلة البدائية فى الخامات ، تلك المبادلة التى نعرف من هيرودوت أنها وجدت فى إفريقية منذ أقدم العصور ، ولا كالمقايضة بالودع أو البارود أو الطباق أو الخمر ، تلك المقايضة التى لا تزال تستخدم على طول الساحل وسيلة أساسية فى التبادل ، ولكنها صناعات تنطوى على مهارة فائقة وتجارة منظمة نظاماً محكما . وظهرت هذه المدن الكبيرة فى أرض الزنوج بتأثير هذه الصناعة والتجارة وتأثير الحكومات الأكثر استقراراً التى جاء بها الاسلام . وهى مدن ، نجد أن الرحالين الأوربيين حين وصفوها أول الأمر لم يستطيعوا إلا أن يهملوا مجرد وجودها ... أما فيما يتعلق بالفرد ، فمن المسلم به من كل الوجوه أن الاسلام يمد السود الذين تحولوا إليه بالنشاط والعزة ، والاعتماد على النفس واحترام الذات ، وهذه كلها صفات يندر جداً أن نجدها فى مواطنيهم الوثنيين أو المسيحيين[١] .

---

(١) Bosworsh Smith (The Nineteenth Century,December, 1887), pp. 798—800.

راجع ما كتبه سير توماس أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ، ترجمة ، ص ٣٩٣ وما يليها .

بيد أن طابع الحضارة الإسلامية لم يفتر عن التأثير فى العقلية الزنجية بعد تقسيم الجزء الأكبر من القارة الافريقية بين إنجلترا وفرنسا (وألمانيا من قبل) . ونلاحظ أن أكثر المتعلمين فى هذه البلاد من المسلمين الذين كانوا يشغلون الوظائف الثانوية فى الادارة المدنية وفى مدارس الحكومة ، وينتظرون فى سلك الجندية . وقد ساعد إلغاء تجارة الرقيق وتيسير المواصلات على ترويج التجارة ، ومكن للتجارة والدعاة المسلمين النشيطين أن يبسطوا تأثيرهم فى مناطق لم تطأها الأقدام من قبل ، وأن يجولوا فى الأراضى المألوفة[1] .

---

(١) سير توماس أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ، ترجمة ص ٣٩٩ — ٤٠٠ .

الباب الثالث

تاريخ انتشار الإسلام والعروبة
فى غربى إفريقية

١ — مقارنة بين شرقى القارة الإفريقية وغربيها :

بعد أن عرضنا للطرق التى سلكها الإسلام إلى إفريقية والوسائل المختلفة التى انتشر عن طريقها ، نرى أن نعرض لتاريخ الدول الإسلامية والإمارات التى قامت فى شرقى هذه القارة وغربيها . ولكى تستقر فى الأذهان صورة واضحة لهذا التاريخ ، ينبغى أولا أن نعقد مقارنة بين الإسلام فى شرقى هذه القارة وغربيها .

نبع الإسلام من شبه الجزيرة العربية ، وانتشر فى مصر وشمالى إفريقية يبتلع الكنائس المسيحية أو يحيط بها . وقد حمل التجار العرب الإسلام إلى الساحل الشرقى من القارة الإفريقية حيث امتدت جذوره هناك . ولكن مدّ الإسلام أعقبه جزر . أما الكنيسة المسيحية فقد قاومت الإسلام معتصمة بالمرتفعات الداخلية ، وظلت على ذلك عدة قرون . كما أن الكنيسة القبطية فى مصر بقيت على هذا النحو برغم دخول أغلب المصريين فى الاسلام .

وفى إقليم دنقلة كان للكنيسة المسيحية سلطان على شعبها ، فوقف فى وجه الاسلام حتى أوائل القرن الرابع عشر الميلادى حين قضى عليها تماماً . وقد تقدم المهاجرون العرب نحو وادى النيل بحثاً عن موارد الرزق وأصهروا إلى الزنوج

والحاميين من أهل البلاد ، وبذلك أصبح الإسلام العامل الثقافى البارز فى شمالى السودان .

أما فى غربى إفريقية فقد أخذ الإسلام ينتشر تدريجيًا عبر الأقاليم الصحراوية الجنوبية حتى بلغ ساحل إفريقية الغربى عن طريق التجارة . وقد انتشر الإسلام من ساحل البحر الأبيض المتوسط فى شمالى إفريقية نحو الصحراء الكبرى ، وفى إقليم المراعى والشجيرات القصيرة جنوبى الصحراء ، وتطرق فى بعض الجهات إلى ساحل المحيط الأطلسى وساحل غينيا . على أن بعض القبائل المشتغلة بالزراعة هناك قد قاومت الإسلام — كما يقول كاربنتر — هناك وفضلت المسيحية فى ذلك الوقت . أما فى الشرق فإن شعب الأزَندى (بفتح الزاى وسكون النون) أو الزَّندى (Azande) وشعوب جنوبى السودان قد رحبت بالمسيحية[1] .

على أن خضوع معظم القارة الإفريقية للنفوذ الأوربى خلال القرن التاسع عشر قد شد أزر الإسلام وأدى إلى انتشاره فى كثير من الجهات . ففى غربى إفريقية وجد الفرنسيون والبريطانيون إمارات إسلامية رضىَ أصحابها بالحماية الغربية التى ضمنت احتفاظهم بالحكم الذاتى . وقد زاد نفوذ الإسلام السياسى والدينى فى نظر القبائل الوثنية المجاورة ، وفى نظر شعوبهم ، حتى انتشر هذا الدين انتشاراً سريعاً . ويقول « كاربنتر » إن سوء الإدارة التركية فى مصر أوقع شرقى السودان تحت رحمة تجار الرقيق الأقوياء الذين أصبحوا فى الحقيقة أمراء مستقلين[2] . ويقول «ترمنجهام» : « لقد أصبح النشاط الاقتصادى والاجتماعى لكل من مصر والسودان يتوقف على تجارة الرقيق ، وأصبح الحكم المصرى فى عهد محمد على يهدف إلى هذا الغرض»[3] .

(١) Carpenter, Africa To - Day, pp. 91 - 92.

(٢) Ibid, p. 93.

(٣) Islam in the Sudan, p. 93.

ومن الواضح أن هذا القول يتضمن كثيراً من المبالغة . وفى سنة ١٧٨١ م أخذ محمد أحمد المهدى فى السودان يدعو إلى إقامة عالم جديد ، فأعلن الثورة على نظام الحكم السودانى ، واستطاع أن يسيطر على شرق السودان كله فى سنة ١٨٨٣ .

وقد أرسلت الحكومة البريطانية التى كانت تسيطر على مصر فى ذلك الوقت الجنرال غوردون لإقامة حكم جديد فى السودان . على أن الخرطوم لم تلبث أن حوصرت وقتل هذا القائد البريطانى فى يناير سنة ١٨٨٥ ، وبدأ المهدى ينظم إمبراطوريته ، ولكنه مات فى شهر يونية من تلك السنة . ولم يستطع عبد الله التعايشى خليفة المهدى أن يوحد صفوف أنصاره ، فلجأ إلى وسائل العنف ، وعادت بريطانيا إلى احتلال السودان بين سنتى ١٨٩٦ ، ١٨٩٨ ، وأقيم نظام الحكم الثنائى الذى كان لبريطانيا فيه أوفر نصيب ، وكان للروابط السياسية والدينية بين مصر والسودان أثر كبير فى دعم الثقافة الإسلامية فى السودان . ولكن المهدية كانت لا تزال حتى ذلك اليوم عاملا مهما فى هذه البلاد . فقد حاولت هذه الحركة أن تمد نفوذها حتى شمالى نيجيريا وكسبت فى غربى إفريقية أنصاراً عن طريق دعوة الحجاج أثناء مرورهم بالسودان إلى الدخول فى دعوتها[١]

وفى شرق إفريقية جاء الإسلام بظاهرة جديدة ، هى أنه جلب معه عدداً كبيراً من مسلمى جنوبى آسيا ، وكلهم أو أغلبهم من الهند (والباكستان) . ولا زالت هذه الجالية الأسيوية التى يتكون أكثرها من طبقة التجار تؤلف عنصراً جنسياً وثقافيا مستقلا . غير أنهم أخذوا فى السنين الأخيرة يؤثرون فى الشعوب الإفريقية فى النواحى السياسية أكثر من تأثيرهم فى النواحى الدينية .

وتختلف جهود الدعاة المسلمين الإفريقيين فى كل مكان من حيث النجاح

---

(١) Theobald, The Mahdiya, p. 29 seq.

الضئيل والتوفيق الشامل . ومن هؤلاء الدعاة والفقهاء والمعلمون ، ومنهم المشتغلون بالتجارة وبخاصة بين شعوب الحوصا فى شمالى نيجيريا . ومن الغريب أن نجد أن الإسلام فى غربى إفريقية ينتشر على الأخص حول الطرق الرئيسية التى تخترق البلاد ، وأن الحركة المهدية يطرد نجاحها لما تبشر به من ظهور المسيح الذى يطرد المسيحيين ، كما نجد أن انتشار اللغة يساعد على انتشار الاسلام(١)

وهناك مظاهر أخرى لتباين الأوضاع فى شرق إفريقية وغربيها : فالمؤثرات الإسلامية فى الشرق تتركز حول المهجرات : فى زنزبار ومدن كينيا الساحلية وتنجانيقا ، كما تتركز فى التأثيرات الهندية فى أنحاء متفرقة من أوغندة ، وفى شعب السواحلية وفى اللغة السواحلية التى تمثل اختلاط المهاجرين العرب بدماء البَنْتُو (بفتح الباء وسكون النون وضم التاء) الحاليين ولغاتهم . وعلى العكس من ذلك نرى فى غربى إفريقية أن شعوبها مهما كان أصلها فهم مستوطنون لهذه الجهات مثل الفُـلانى (بضم الفاء) والماندنجو (بسكون النون وكسر الدال) والحَوْصا وهم روح التأثيرات الاسلامية ، على حين نجد المهاجرين من شمالى إفريقية وسورية ولبنان والهند يقومون الآن بدور ثانوى(٢) .

والاسلام فى شرقى أفريقية جاء أصلا من بلاد العرب ، وذلك فى عهد العباسيين أو فى عهد منافسيهم من العرب . وتتمثل فيه الآن على نطاق محدود كل المذاهب الاسلامية السنية ، كمذهب الشافعى ومذهب أبى حنيفة ، وفيه مذهب الشيعة بفرقها من اثنا عشرية وإسماعيلية ونزارية ومستعلية ، وفيه مذهب الزيدية ، وفيه

---

(١) Carpenter, Africa To - Day, pp. 93—94.

(٢) يذكر جرينبرج Greenberg, The Influence of Islam on a Sudanese Religion, p. 10. أن الامتزاج قد تم فى بلاد الحوصا بين الإسلام والعقائد المحلية ، ليس عن طريق الاختلاط بين الشعوب فحسب ، وإنما حين عمدت الطبقة المتعلمة إلى الأخذ بما وجدوه فى الكتب المحلية المطبوعة التى وجدوها . أنظر Anderson, p. 261.

الإباضية من الخوارج ، وفيه الوهابية ، والأحمدية وأشياعهم ، وإن كان المذهب الشافعى قد فشا إلى حد بعيد بين السكان الأصليين ، وهم يتطلعون إلى الشرقين الأدنى والأوسط باعتبارهما مركزين للإمامة الروحية ، ويتكلمون العربية أو السواحلية[١] .

أما الإسلام فى الغرب فإنه على العكس قد تسرب من المغرب الأقصى فى عهد الأدارسة والمرابطين ومن بلاد المغرب بصفة عامة ، وكلهم مالكيون سنيون ، وعلى يد القادرية والتجانية منهم . وهم نادراً ما يتطلعون إلى خارج حدود بلادهم التماساً للزعامة الروحية ، لأن كلا من سلطان سُكُتو (بضم السين والكاف) والشيهو (Shehu) فى برنو (بضم الباء وسكون الراء) يعتبران أئمة المجتمع الإسلامى . وهم فى الأقاليم الأخرى من غربى إفريقية يتطلعون إلى مراكز التعليم فى المستعمرات الفرنسية (سابقاً) أكثر من تطلعهم إلى إلى مراكزها فى الشرق الأدنى . ويندر التحدث بالعربية بينهم ، وإن كان بعض المفردات العربية قد تسرب إلى لغات غربى إفريقية .

وفى الشرق أيضاً نجد أن الحاكم المسلم الوحيد الذى يطبق الشريعة الإسلامية هو سلطان زنزبار ، وإن كان خلفاؤه قد أصدروا سلسلة من المراسيم التى تحول دون تطبيق الشريعة تطبيقاً متطرفاً ، على حين نجد فى الغرب الإمارات الإسلامية فى شمالى إفريقية متطرفة فى مقاومتها للحضارة الغربية . وبرغم هذا نجد تشابها ملحوظاً بين تطبيق المذهبين الشافعى والمالكى في محاكم

---

(١) Anderson, pp. 231 - 232.

(١) سموا بذلك لاتخاذهم اللثام غطاء لوجوههم .

كينيا وفى ساحل الذهب (غانة) . ويتمثل هذا التشابه فى معالجة المشاكل الناجمة عن انتحال الوثنيين الإسلام .

٢ — انتشار الإسلام والعروبة في المغرب الأقصى وامتداده إلى حوضي السنغال والنيجر :

بعد أن أتم العرب فتح مصر وصلوا إلى برقة وطرابلس ، ثم تدفقوا إلى إفريقية بقصد الاستيلاء عليها . ولم تتوطد أقدامهم فيها إلا بعد بناء عقبة ابن نافع مدينة القيروان واتخاذها قاعدة حربية تتجمع فيها قوات العرب وتتدفق منها إلى غيرها من الجهات . لكن عقبة لم يستطع إتمام فتح إفريقية كما تقدم ، لأن قبائل البرانس كانت تتحصن فى الجبال وتتخذها معاقل تحميهم من غارات العرب . وعلى الرغم من أن أبا المهاجر دينار عامل هذه البلاد من قبل الأمويين أوغل بجيوش أهل الشام ومصر حتى بلغ قرطاجنة وهادن البربر ، لم يستطع أن يقاوم الروم . غير أن سياسته قد تكللت بالنجاح ، فانتشر الإسلام بين قبائل صَنهاجة (بفتح الصاد) ، واشترك بعضها فى الجيش الذى وجهه أبو المهاجر لفتح الجزائر حيث بلغ تلمسان (بكسر التاء واللام) قاعدة المغرب الأوسط .

فلما آلت قيادة حملة المغرب إلى عقبة بن نافع للمرة الثانية قضى على مقاومة البرانس فى المغرب الأوسط ، وتدفق بقواته إلى المغرب الأقصى ، فكان أول فاتح عربى تطأ قدمه هذه البلاد . ثم توغل فى إقليم الساحل حتى بلغ طنجة ، وبدأت صنهاجة المغرب الأقصى تدخل فى الإسلام وتتصل بالفاتحين ، وتكللت جهوده فى نشر الإسلام في إقليم الريف بالنجاح .

ثم اتجه عقبة إلى إقليم السوس الأدنى وانتصر على قبيلة المصامدة ، ومضى

قدما حتى بلغ مدينة مامَسَّة (بفتح الميم الثانية وفتح السين مع التشديد) ببلاد السوس الأقصى ، وغزا مدينة نفيس (بفتح النون) القريبة من أغمات . وتذهب بعض الروايات إلى أن عقبة بلغ مدينة نُولْ على ساحل المحيط الأطلسى فى أقصى بلاد المغرب . وكانت بعض قبائل الملثمين تنزل هذه البلاد ، فقاومت عقبة أول الأمر دفاعاً عن كيانها ، ولكنه هزم مَسُوفة ، وأخضع الملثمين لسلطان الإسلام ، وبنى فى مدينة مامسة مسجداً ترك فيه من يعلم الناس مبادىء الإسلام . ولكن بعض المؤرخين يذهبون إلى أبعد من هذا ، فيذكرون أن عقبة أوغل فى بلاد السودان وفتح بلاد التكرور وغانة[1] ، وأنه كانت بهذه البلاد جالية إسلامية فى سنة ٦٠ هـ ، كما يذكرون أنه بنى بها عدداً من المساجد .

وإذا علمنا أن غانة تقع عند منحنى نهر النيجر فى المنطقة الواقعة بين النيجر والسنغال ، أدركنا كيف غلا المؤرخون فى تقدير حملة عقبة فى بلاد السودان ، إذ لم يكن من المعقول أن يدرك عقبة والعدو من خلفه أن يدرك بلاد السودان ومصب السنغال مع وعورة المسالك ومشقة الطريق . ونستطيع أن نقبل هذه الرواية بشىء من التحفظ إذا عرفنا أن ديار الزنوج كانت أكثر امتداداً نحو الشمال ، وأن قبائل الملثمين لم تكن قد أوغلت فى ساحل المحيط . فليس ببعيد أن تكون مملكة غانة الزنجية قد مدت نفوذها شمالا حتى وادى نون ، فيكون عقبة حين غزا وادى نون قد أدرك الحدود الشمالية لمملكة السودان[2] . وبذلك يكون عقبة أول من حمل أهل اللثام على الإسلام ، وأول من ارتاد هذه الديار النائية من العرب ، وأول من فتح هذا الطريق أمام التجار الذين أخذوا يتدفقون إلى هذه البلاد ويخترقون الصحراء إلى « أودغشت »

---

(١) De la Chapelle, Hésperis (1930), tome xi, p, 24.

(٢) Basset, Mission en senegal, p. 446.

على حافة السودان الشمالية ، وكانوا يقومون بحملات مسلحة لجلب الرقيق إلى المغرب الأقصى .

ولكن عقبة قتل أثناء عودته وكادت تضيع الجهود التى بذلها ، وارتدت قبائل البربر وزحفت إلى الشرق ، ودخلت القيروان حتى استطاع حسان ابن النعمان أن يهزم قوات البربر ، وأن يعيد إفريقية إلى حظيرة الإسلام . ولم يستطع العرب أن يوغلوا فى المغرب الأقصى مرة أخرى ، إلا بعد أن استطاع زهير بن قيس البلوى أن يهزم كسيلة زعيم البربر وأن يتعقبه حتى منطقة طنجة ويقتله . وبعد أن قضى الأمويون على فتنة عبد الله بن الزبير ، واستقامت لهم الأحوال ، استؤنفت الفتوح الإسلامية على يد موسى بن نصير الذى ترسم خطا عقبة وأتم الرسالة التى كان قد بدأها ، وقاد جحافل المسلمين إلى المغرب الأقصى ، وسلك نفس الطريق الذى سلكه عقبة حتى أدرك طنجة ، ثم انحدر إلى سَبْتة (بفتح السين وسكون الباء وفتح التاء) ، ومنها اتجه نحو إقليم السوس الأدنى ، ثم انحدر على ساحل المحيط الأطلسى كما فعل عقبة من قبل ، حتى بلغ وادى دَرْعا (بفتح الدال وسكون الراء) . على المحيط الأطلسى وأخضع القبائل التى ارتدت عن الإسلام بعد مقتل عقبة .

ولكن موسى كان أبعد نظرا من عقبة ، فلم يكن قائدا فحسب بل كان مصلحا وسياسياً أيضاً ؛ فقد قرّب البربر إليه وحبّبهم فى الحكومة الإسلامية ، فولاهم الأعمال ، وأشركهم مع العرب فى إدارة البلاد [1] . وقد وجد البربر أن انضمامهم إلى العرب يُتيح لهم مزايا مادية كثيرة ، فأقبلوا على الإسلام إقبالا عظيما . وكان نشر الإسلام يسير مع الفتح جنباً إلى جنب ، إذ أخذ موسى يفقه

---

(١) ابن عذارى : البيان المغرب (طبعة ليدن) ج ١ ص ٢٧ .

الناس فى الدين وينشىء المساجد فى البلاد التى فتحها ، وأتيح للبربر أن يجنوا ثمار الثقافة الإسلامية بعد قليل .

وقد نجحت سياسة موسى نجاحا بعيد المدى ، فانقاد له المغرب الأقصى بشعوبه وقبائله ، فشاركوه فى فتح الأندلس ، وأخذت جماعات البربر تتدفق إليها طمعاً فى الغنم أو حباً فى الجهاد . ومن ذلك الوقت نستطع أن نقول إن الإسلام قد توطدت أركانه فى بلاد المغرب الأقصى ، وإنه بسط ظله على السكان ، وأن التحالف قد تم بين العرب والبربر . وكانت هذه خطوة هامة فى سبيل تدفق الإسلام إلى غربى إفريقية .

وقد اتصل موسى بقبائل الملثمين التى كانت تنتشر فى إقليم الصحراء الكبرى حتى حدود السودان الشمالية ودعاهم إلى الإسلام مرة أخرى ، فأقبلوا عليه ودخلوا فيه ، وبنى المساجد فى مدينة أغمات التى أصبحت من أهم مراكز الثقافة الإسلامية فى المغرب الأقصى .

وقد تابع خلفاء موسى السياسية الرشيدة التى اتبعها هؤلاء الذين قاموا بالدعوة إلى الإسلام بين البربر . فإن إسماعيل بن عبيد الله بن أبى المهاجر الذى ولى إفريقية من قبل عمر بن عبد العزيز عمل على نشر الإسلام فى المغرب الأقصى ، ولم يبق فى ولايته يومئذ من البربر أحد إلا أسلم كما يذكر ابن عبد الحكيم [١] وقد أمد عمر ابن أبى المهاجر بطائفة من التابعين انتشروا فى البلاد يحثون الناس على دخول الإسلام ويبصرونهم بشئون دينهم ، ويقيمون الحدود ويحرمون الخمر ويحاربون المفاسد .

ثم انبعثت الثورة بمدينة طنجة ، وأذكى الخوارج نارها وحملوا لواء المقاومة وحببوا القبائل فى عقائدهم . وهذا يدل على أن المغرب الأقصى أخذت تشارك

(١) فتوح مصر وإفريقية ص ١٠٦ .

الشعوب الإسلامية الأخرى التى انقسمت إلى أحزاب سياسية ودينية ، ففشت مذاهب الخوارج الصُّفْرية أتباع زياد بن الأصفر التى تنادى بأن الإمامة ليست مقصورة على العرب ، بل هى للمسلمين على حد سواء ، حتى أن جمهور الثوار بايعوا سقاء يدعى ميسرة بالخلافة بمدينة طنجة[1] . وقد عمت الثورة بلاد المغرب الأقصى كله واشترك فيها الملثمون وجاوزت أطراف الصحراء . وعلى الرغم من أن العرب استطاعوا أن يقمعوا هذه الثورة ، يمكننا أن نقول إنها تمخضت عن وضوح شخصية المغرب الأقصى وآذنت باختفاء نفوذ العرب ، إذ أخذ البربر المسلمون يعتمدون على أنفسهم فى حل مشاكلهم السياسية والاجتماعية والدينية ، وقامت فيه دويلات مستقلة بسط كل منها نفوذه على منطقة بعينها وأخذت تقر السكينة فى ربوعها .

ومع أن ولاة القيروان فقدوا نفوذهم بالمغرب الأقصى ، ظلوا يهتمون بشئونه ويعملون جاهدين على الإبقاء على الصلات التى تربطه بإفريقية . فقد عمل عبد الرحمن بن حبيب الفهرى[2] (١٢٧ — ١٣٢ هـ) على حفر سلسلة من الآبار تصل بين واحات إفريقية وبين مدينة أودغشت بصحراء المغرب الأقصى ، واستطاع جنوده بفضل هذه السياسة أن يعبروا الصحراء وأن ينشروا الإسلام بين القبائل الضاربة فيها ، كما استطاع التجار أن يتصلوا ببلاد الملثمين وبلاد السودان عن طريقين :

طريق ساحل المحيط أو طريق الصحراء الذى أصلحه عبد الرحمن بن حبيب الفهرى ، وأصبحت القوافل أكثر استعداداً لارتياد الطريق إلى غربى إفريقية . وقد تمخضت هذه الجهود عن نتائج طيبة ، إذ أدت إلى تطرق الإسلام

---

(١) ابن خلدون : العبر ج ٦ ص ١١٠ .

(٢) وكان حفيد عقبة بن نافع .

إلى غربى إفريقية عن طريق آخر غير الطرق التى كانت مألوفة من قبل . وقد استطاع عبد الرحمن بن حبيب أن يقر الأمن والسكينة فى بلاد المغرب ، فانتشر السلام فى ربوعه ، و بدأت الحياة الثقافية والاقتصادية تنمو وتزدهر برغم ماانتاب العالم الاسلامى من فتن بعد سقوط الدولة الأموية وقيام الدولة العباسية .

وفى الوقت الذى تفرقت الخلافة العباسية فى الشرق واستقل بعض الدول عن نفوذ الخليفة العباسى فى بغداد ، استطاعت دولتان أن تقتسما النفوذ السياسى فى بلاد المغرب ، فاستقل الأغالبة بالقسم الشرقى من هذه البلاد ، واستقل الأدارسة بإقليم المغرب الأقصى .

وقد قامت دولة الأدارسة فى المغرب الأقصى بتوحيد البلاد تحت لواء أمرائها من العلويين و إقرار السلام فى ربوعه بعد أن كانت فتن الخوارج تمزق شمله . وكان لانتساب الأدارسة إلى سبط الرسول أثر كبير فى توحيد القبائل المتنافرة ، فظفروا بتأييد الأهالى على اختلاف ميولهم ، واستطاع إدريس لأول مرة أن يوحد بين إقليم السهول الساحلية (المغرب الأقصى) و إقليم المراعى ، أى بين إقليم الحضارات القديمة و إقليم البداوة . فاطمأن أهل السهول واطمأن البدو ، وازدهرت الحياة الاقتصادية ازدهاراً لم تعرفه البلاد من قبل . كما استطاع الأدارسة بفضل هذه الوحدة أن يوجهوا أنظارهم إلى حركة جهاد مقدس بقصد إتمام نشر الإسلام فى البلاد ومحاربة العقائد الشاذة والقضاء على بقايا النصرانية واليهودية بين قبائل المغرب الأقصى . وقد جاوز نفوذ الأدارسة منطقة المغرب الأقصى إلى الصحراء الكبرى التى تفصل بلاد المغرب عن إقليم السودان [1] . وكان تأسيس مدينة فاس فاتحة عهد جديد فى تاريخ الثقافة العربية فى المغرب الأقصى وغربى إفريقية . فقد أصبحت هذه

---

(١) انظر الجزنائى : زهرة الآس فى بناء مدينة فاس (فاس ١٩٢٢) ص ٢٢ .

المدينة مثابة للعلم يقصدها العلماء والتجار من كل حدب وصوب ، وأخذت معاهدها تتأثر بالمؤثرات الثقافية من معاهد القيروان والأندلس وتشيعها فى البلاد .
وإلى هذه المعاهد يرجع الفضل فى نشر الدين الإسلامى واللغة العربية فى هـذه البلاد[1] ، وقد بلغت هذه الثقافة العربية التى كانت تشع من مدينة فاس ديار الملثمين ، لأن الأدارسة بسطوا نفوذهم على البلاد كلها تقريباً ، وتخطى نفوذهم جبال دَرَن (بفتح الدال والراء) (أو الأطلس الكبير) ، وانتشر فى إقليم الواحات ، ولا سيما فى عهد عبد الله بن إدريس (١٢٣٤ هـ) .

ولما كانت ديار الملثمين قريبة من جبال دَرَن ، انضمت تحت لواء الأدراسة وأصبحت جزءاً من أملاكهم ، يولون عليها الولاة ويخضعونها للحكومة المركزية فى فاس . لذلك زاد تحول صنهاجة اللثام إلى الإسلام الذى بدأ فى عهدعقبة وزاد فى عهد الأدارسة ، وانتشر بين الملثمين فى القرن الثالث الهجرى . وكان إسلامهم ذا أثر بالغ فى تاريخ المغرب والسودان . فقد تمخض عن قيام تحالف قوى ضم قبائل الملثمين جميعها بزعامة لمتونة . فلما تم هذا التحالف أخذت القبائل المتحالفة على عاتقها أن تعد العدة لتوسع جديد ، إما صوب الشمال باختراق نطاق الجبال والإغارة على سهول المغرب الأقصى أو بالتقدم صوب الجنوب .

أما الناحية الأولى فلم يكن من السهل أن تقدم القبائل على المغامرة فيها ، بسبب قوة الأدارسة وحلفائهم من الزناتيين والمصامدة . فلم يبق أمام هذا الحلف إلا أن يتجه صوب الجنوب . ومما ساعد على هذا التوسع أنه كانت بقصد الجهاد ابتغاء مرضاة الله ونشر الإسلام بين القبائل الزنجية الضاربة إلى الجنوب . وكانت القبائل الملثمة حديثة العهد بالإسلام قد أرادت أن تسهم فى حركة الجهاد[2] .

---

(١) ابن زيدان : إتحاف أعـلام الناس بجمال حاضرة مكناس (الرباط ١٩٢٩) فى خمسة أجزاء جـ ٢ ص ٦ .

(٢) حسن أحمد محمود : قيام دولة المرابطين (القاهرة ١٩٥٧) ص ٧٠ .

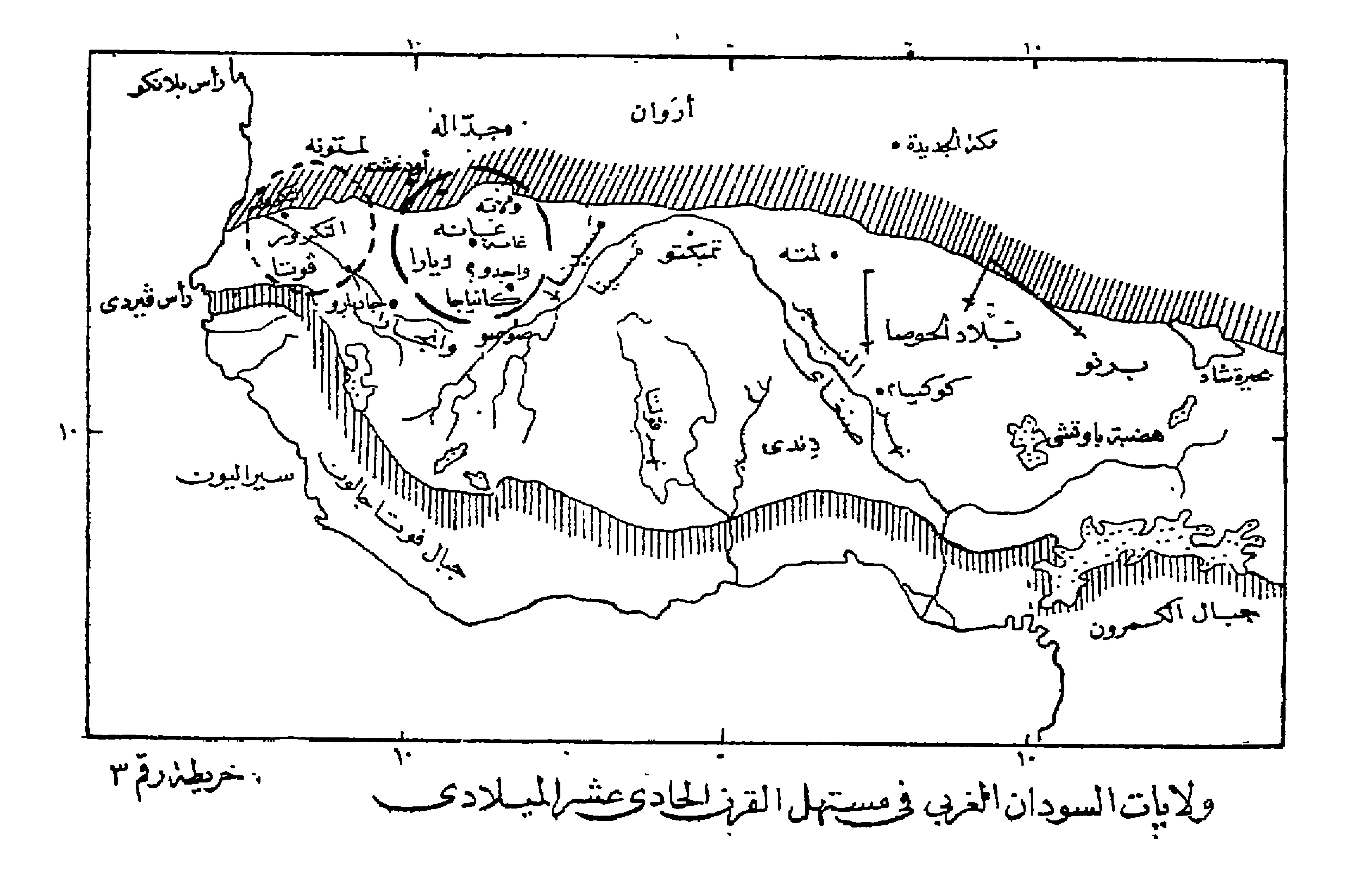
ومما ساعد هذه القبائل على التوسع صوب الجنوب أن مملكة غانة الزنجية في ذلك الوقت قد أصابها الضعف والتفرق ، واستطاع أعداؤها أن يغيروا عليها في الجنوب في الوقت الذي أثخنتهم سيوف الملثمين في الشمال ، فانتصر هؤلاء الملثمون ومضوا قدما في توسعهم حتى أصبحوا على مسيرة أيام من منحنى النيجر ، فكانت هذه الخطوة بالغة الأثر في تدفق سيل الإسلام إلى غربي إفريقية .

٣ — الدول الإسلامية التي قامت في غربي إفريقية :

مملكة غانة

إن تاريخ غربي إفريقية شمالي نطاق الغابات هو تاريخ إمبراطوريات تعاقبت بين القرنين الرابع والتاسع عشر الميلاديين . هذه الإمبراطوريات هي عبارة عن قبائل غازية جاءت من الشمال أو شعوب زنجية أو شبه زنجية أخذت عن هذه القبائل أسلحتها ونظمها الحربية عن طريق اتصال مستمر خلال الطرق الصحراوية . فإلى الغرب من أنحناء نهر النيجر جاءت التأثيرات البيضاء التي ساعدت على قيام هذه الإمبراطوريات من المغرب والجزائر ، على حين نجد أن التأثيرات التي جاءت إلى المنطقة الواقعة بين النيجر وبحيرة شاد جاءت من برقة ومصر .

وقد استطاعت القبائل الإفريقية التي كانت تقيم على حافة الصحراء وتشتغل بالتجارة أو الرعي أن تظفر باستقلالها الذاتي ، وأن تضع لنفسها أسسا اجتماعية وعسكرية سليمة . كما أن اقتناءها الخيل والإبل أتاح لها أن تبسط سلطانها العسكري على الزنوج الذين يشتغلون بالزراعة ، فاستطاعت أن تقيم دولها فوق إقليم المراعي (سافنا Savanna) شمالي إقليم الغابات . وهذه الإمبراطوريات



خريطة رقم ٣

ولايات السودان الغربي في مستهل القرن الحادى عشر الميلادى

كانت متسعة الرقعة فى أول أمرها ، ولـكنها سرعان ما سقطت بأسرع مما قامت . وكانت الشعوب المغلوبة على أمرها تحتفظ بلغاتها الخاصة و بعاداتها ، ولم يكن يجمع بينها و بين هذه القبائل الغازية إلا وحدة الخضوع لسيد واحد . ولم تحاول واحدة من هذه الإمبراطوريات أن توحد بين هذه الشعوب ، بل كان همها كله منصرفاً إلى الإبقاء على حكمها العسكرى و إلى جمع الضرائب .

وهذه الإمبراطوريات السودانية كانت تستطيع المحافظة على وحدتها طالما احتفظ الفاتحون بقوتهم العسكرية : ولـكن الروح الحربى سرعان ما كان يضعفه ثمرات النصر والاستقرار واقتناء الثروات والتزوج بالجوارى والإماء . وسرعان ما تضعف هذه الدولة وتصبح فريسة لقبائل أخرى غازية تقلد القبائل السابقة فى فتوحها وفى نظمها .

وكانت إدارة هذه الإمبراطوريات الواسعة تتوقف على بقاء القوة الحربية ، إذ يستطيع الزعيم أن يتغلب على صعوبة المواصلات ، وأن يكسب دولته لوناً من ألوان الوحدة السياسية والاجتماعية . ولـكن إذا خلفه زعيم آخر أقل منه قوة ، لم يستطع أن يحافظ على هـذه الوحدة ، وبذلك تضعف الدولة وتنحل وتتفرق . وكان أمر الولايات البعيدة يوكل إلى طائفة من العمال يتصرفون فيها كما يشاءون ، ماداموا يدفعون الجزية إلى الأمير . وفى بعض الأحيان يستبقى زعماء الشعوب المغلوبة نفوذهم القديم . وكان الأمير يولى بعض القواد على بعض الأقاليم على سبيل المـكافأة . وهؤلاء القواد لا يضمرون الاخلاص الـكامل لأولياء أمورهم ، بل كثيراً ما كانوا يثورون عليهم ويؤسسون لأنفسهم ملـكا ، منتهزين فرصة ضعف السلطة المركزية وانصراف الأمير عن شئون البلاد . وكلما طال العهد بهذه الامبراطوريات ، فسد نظامها الادارى وغدا غير صالح لمواجهة الأحوال ، وأصبح الولاة والعمال أكثر نهماً فى جمع الثروات والانغماس فى الملذات.

وأقدم هذه الامبراطوريات مملـكة غانة ، وهى تختلف اختلافاً كبيراً عن غيرها من الممالك السودانية ، لأن السبب فى تـكوينها لم يكن سبباً عسكرياً ولذلك بقيت زمناً طويلا . ويرجع السبب فى قيام هذه المملـكة إلى أنه حول القرن الثانى الميلادى خرجت جماعة من سكان شمال إفريقية واستقر بها المقام بين شعوب الماندى (بسكون النون) الزنجية وخصوصاً بين شعوب السوننكى (بكسر النون الأولى وسكون النون الثانية) وهؤلاء المغاربة لا يعرف أصلهم على وجه التحقيق . ولـكن يبدو أنهم تسربوا إلى هذه البلاد تسربا سلمياً ، ولم يغزوها غزواً . وفى القرن الرابع الميلادى حكم هؤلاء المهاجرون زنوج هذه المناطق وكوّنوا أسرة حاكمة ظلت تحـكم فى مدينة أوكور(Aukur) حتى نهاية القرن الثانى للهجرة (الثامن الميلادى) . وقد سقطت هذه الأسرة فى سنة ٧٧٠ م حين ثار عليهم حكام السوننـكى وظلوا يحـكمون غانة حتى سقطت دولتهم فى سنة ١٢٤٠ م .

وقد اختلطت دماء سكان غانة البيض بدماء السوننـكى عن طريق التزاوج . وهاجر هؤلاء البيض بعد سقوط دولتهم إلى بلاد التكرور (Tekrur) التى تمتد فى شمالى السنغال إلى منطقة «فوتا» . وتقطنها شعوب ثلاثة هم : التكولور (Tucolor) ، وكانوا يكونون الطبقة الحاكمة ، والولوف (Woloff) والسيرير ، وقد أصهر هؤلاء البيض إلى طبقة التوكولور . واستطاعوا بذلك أن يسيطروا على الأحوال السياسية فى هذه البلاد حتى نهاية القرن الحادى عشر الميلادى حين استطاع التوكولور أن يتخلصوا منهم . وفى هذا الوقت كان هؤلاء البيض قد أصبحوا إفريقيين شكلا وموضوعا . وهم يسمون الآن «الفلانى»(Fulani).

ويبدو أن سلطة ملوك غانة من السوننكى كانت أقوى من سلطة من سبقهم ؛ فقد أخذوا يوسعون رقعة بلادهم حتى بلغت أوج عزها فى مستهل

القرن الحادى عشر الميلادى ، فبلغت « تمبكتو » فى الشرق ، ومنابع النيجر فى الجنوب الشرقى ، ومنابع السنغال فى الجنوب والجنوب الغربى ، وحدود التكرور فى الغرب . أما حدود هذه المملكة وهى فى أوج قوتها فإنه يصعب تحديدها . ولكن يمكن أن يقال إنها تقع إلى الجنوب من منازل القبائل المغربية. ويظهر أن كلمة غانة هى فى الأصل اللقب الذى كان يحمله ملوك هذه البلاد ، ثم توسعوا فى معناه فشملت كلا من الامبراطورية والعاصمة . وقد خربت مدينة غانة سنة ١٢٤٠ م ، ولا تزال أطلالها باقية حتى اليوم .

وقد جاءت عظمة غانة عن طريق اشتغالها بالتجارة وموقعها عند أطراف الصحراء الكبرى . وكان التجار البيض المستقرون يستطيعون التحكم فى التجارة السودانية من الذهب والرقيق ، وأن يبادلوها بالسلع التى تحملها القوافل من المغرب الأقصى ، وهى ملح الطعام والنحاس والفواكه المجففة . ويوجد الذهب فى بلاد تسمى ونقاره (Wangara) ، وكانت تقع خارج حدود مملكة غانة . وكانت شعوب الماندنجو يستخرجون الذهب من هذه الجهات ويبادلونه بالملح والسلع الأخرى المجلوبة من غانة . ويتم التبادل بطريقة تسمى التبادل الصامت (Dumb Barter) . ذلك أن تجار غانة يضعون متاجرهم على شاطىء أحد الأنهار ، ثم يختفون عن الأنظار ، فيتقدم أصحاب التبر إلى هذا المكان ويضعون بجوار هذه السلع قيمتها تبراً ، ثم ينسحبون . فيظهر أهل غانة من مخابئهم ، فإذا رضوا بكمية الذهب أخذوها ، وإن لم يرضوا اختفوا مرة أخرى حتى تزاد الكمية . وكانت هذه الطريقة فى المبادلة شائعة فى القارة الإفريقية فى العصور الوسطى .

وكانت تجارة الذهب تلعب دوراً هاماً فى اقتصاديات العصور الوسطى ؛ فكانت تصدر إلى بلاد المغرب وإلى غربى أوروبا . وفى الوقت الحاضر يستخرج الإفريقيون من هذه المناجم ١٤٠٠٠٠ أوقية فى السنة . وقد تمتعت غانة فى ظل

ملوكها من السوننكى بحكومة مستقرة وأمن مستتب مدة قرنين من الزمان ، وازدهرت تجارة الذهب وطبقت شهرة غانة الآفاق ، وجاءها كثيرون من مسلمى إفريقية ، فاستقروا فيها وزاولوا التجارة أو الاشتغال فى الوظائف ، و بنوا لأنفسهم مدينة من الحجر بعيدة عن المدينة الوطنية المبنية من الطين والقش .

ولم تكن العلاقة بين مملكة غانة و بين جيرانها من البربر على شىء من الصفاء . فكثيراً ما كانت تقوم المنازعات بين زعماء السوننكى و بين قبائل لمتونة وجُدالة ، (بضم الجيم) ، وكانت ديارهم تصاقبها من الشمال ، و يحاول كل منها أن يعتدى على أرض الآخر . ففى سنة ٩٩٩ م استولت قبيلة لمتونة على مدينة أودغشت ، وهى مدينة من مدن غانة ، أخذت مكانتها التجارية عن طريق منافسة مدن غانة منافسة خطيرة ، إلا أن ملوك هذه البلاد فتحوا هذه المدينة واستولوا عليها . وكان هذا من الأسباب التى وحّدت بين لمتونة وجدالة لمقاومة خطر ملوك السوننكى . وقد اعتنق زعماء لمتونة وجدالة الإسلام على مذهب الإمام مالك . واستطاع عبد الله بن ياسين فقيه لمتونة أن ينشىء رباطاً فى جزيرة عند مصب السنغال وأن ينشر حركة الجهاد فى سبيل الله . وكان للجهاد فى زعمه غرضان : أولهما فتح بلاد السودان وتحويل أهلها إلى الإسلام ، وثانيهما ، فرض مذهب الإمام مالك[1] على شعوب إفريقية الشمالية . ولم

(١) أدى اختلاف أئمة الفقه فى فهم النصوص الفقهية واستنباط الأحكام منها إلى تعدد المذاهب . واشتهر من هذه المذاهب أربعة هى : مذهب مالك إمام أهل الحجاز ، ومذهب أبى حنيفة إمام أهل العراق ، ومذهب الشافعى ، وكان يسير أولا على طريقة أهل الحجاز ، ثم جعل مذهبه وسطا بين الطريقتين ، ومذهب أحمد بن حنبل ، واختص هو وأصحابه بالمذهب الحنبلى الذى يبعد عن الاجتهاد مما أدى إلى قلة عدد المتمسكين بمذهبه (مقدمة ابن خلدون ص ٣٩١ — ٣٩٢) . وممن اشتهر بالفقه من تلاميذ مالك ، يحيى بن يحيى الليثى فى الأندلس ، وكان من قبيلة المصامدة من البربر . وقد أخذ العلم عن مالك ، وروى عنه كتابه «الموطأ» ، وبروايته انتشر فى المغرب والأندلس . (المقرى : نفح الطيب ج ١ ص ٣٣٢ — ٣٣٤) . أنظر حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسى ج ٢ ص ٢٨٧ — ٢٨٩ (الطبعة السابعة).

يستطع ملوك المرابطين أن يقضوا على مملكة غانة التى حالت دون تقدمهم صوب الجنوب . لذلك اضطروا إلى فتح المغرب والتقدم صوب الشمال . إلا أن هذه المملكة سقطت سنة ١٠٧٦ م على يد أبى بكر بن عمر زعيم المرابطين . واستطاع خليفته يوسف بن تاشفين أن يفتح بلاد المغرب ، ثم بلاد الأندلس ، وأن يقضى على أغلب مملكة السوننكى ، حتى إنه لم يبق منها إلا منطقة « أوكار » و « باسيكونوا »[١] .

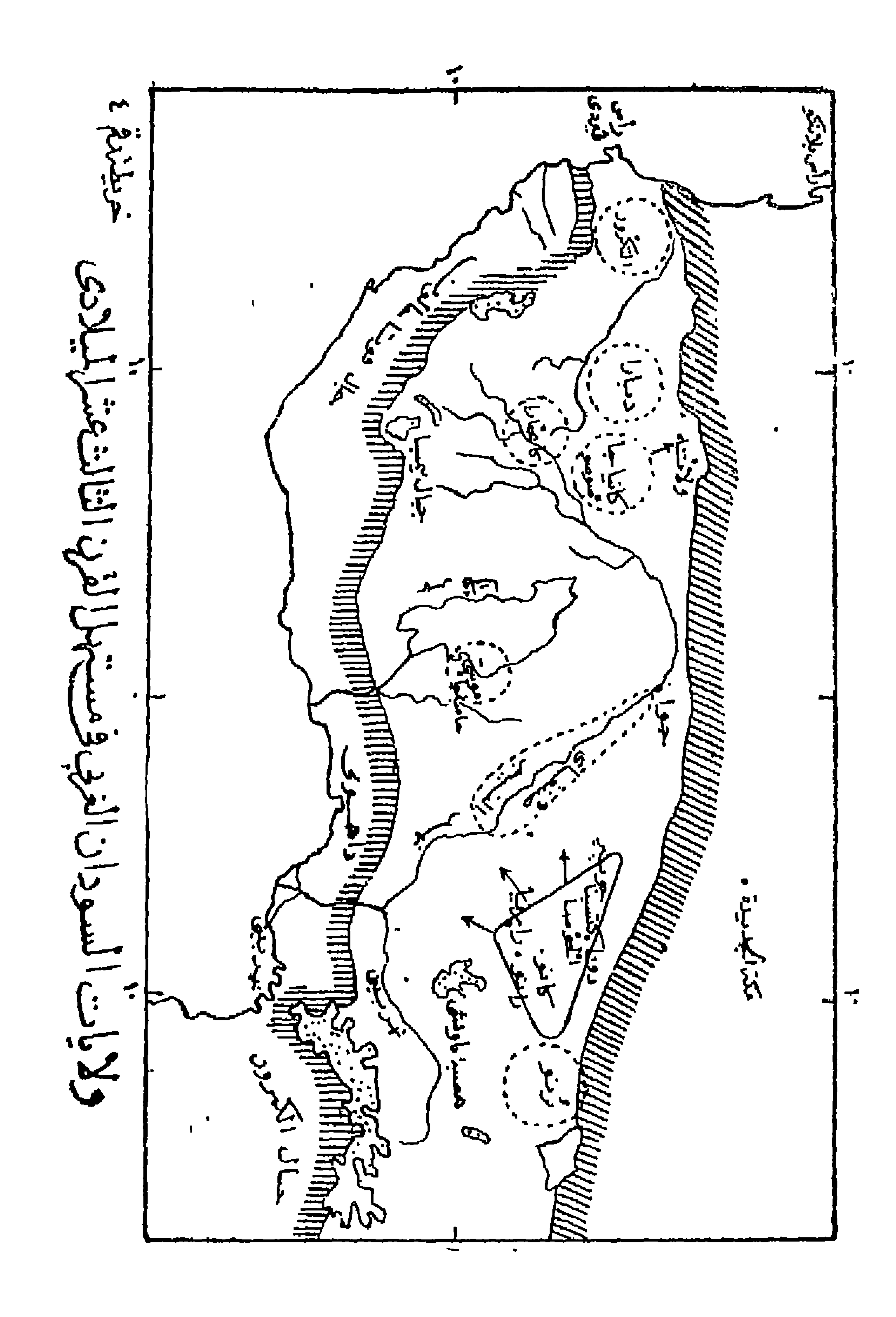
مملكة صوصو فى كانياجا

قام الفلانيون المهاجرون من بلاد التكرور بدور بارز فى تكوين الطبقة الحاكمة التى ساعدت على استقلال كانياجا وقيام إمبراطورية جديدة عرفت باسم إمبراطورية صوصو غربى إقليم مالى .

وقبل نهاية القرن الثانى عشر الميلادى ضُمت مدينة ديارا (Diara) إلى هذه الإمبراطورية . وفى سنة ١٢٠٣ م ضم أحد ملوك صوصو بلاد غانة إلى إمبراطوريته . ولكن النصر الذى أحرزه هذا الملك لم يدم طويلا . فقد هاجر المسلمون من غانة ، وأسسوا مركزاً تجارياً جديداً فى مدينة « ولاته » (Walata) . وقد تشجع هذا الملك بهذا النصر ، فهاجم مملكة الماندنجو فى الجنوب ، ولكنه هزم آخر الأمر ومات حول سنة ١٢٣٥ م ، واستولى الماندنجو على بلاده ، وعاد أغلب أهل صوصو إلى بلاد « التكرور » وأسسوا أسرة حكمت هذه البلاد حتى سنة ١٣٥٠ م تقريبا حيث تغلب عليها شعب « الولوف » .

---

(٢) Fage, History of West Africa, p. 16 et seq


ولايات السودان الغربي فى منتصف القرن الثالث عشر الميلادى
خريطة ٤

مملكة مالى[1]

تقع مالى بين بلاد برنو شرقًا والمحيط الأطلسى غربًا وجبال البربر شمالاً . وينقسم أهلها قسمين : أحدهما يسكن المدن ، والثانى رحَّل يتنقلون فى البوادى . وتعد مملكة مالى أعظم ممالك السودان الإسلامية ، وتشتمل على خمسة أقاليم ، كل إقليم منها عبارة عن مملكة مستقلة تجتمع حول صاحب مالى . ويسميه أهل مصر فى العصور الوسطى سلطان التكرور ، ولكنه يعرف باسم سلطان مالى . وهذه الأقاليم الخمسة هى :

١ — مالى ويتوسط أقاليم هذه المملكة وقاعدتها بَنْبى (بفتح الباء وسكون النون) .

٢ — صوصو ويقع إلى الغرب من مالى .

٣ — غانة ويقع غربى إقليم صوصو ويمتد إلى المحيط الأطلسى ، وبه مناجم الذهب ، ويسير إليه المغاربة من سجلماسة يخترقون القفار والمفاوز . وقد أسلم أهل هذا الإقليم فى صدر الإسلام .

٤ — كَوْكَوْ[2] ويقع شرقى إقليم مالى وقاعدته كوكو ، وبينها وبين مدينة غانة القديمة مسيرة شهر ونصف شهر .

٥ — تكرور[3] ويقع شرقى إقليم كوكو وقاعدته مدينة تكرور . ولباس عامة أهله الصوف ولباس خاصتهم القطن ، وطعامهم الذرة والألبان والسمك ، ويحمل إليهم تجار المغرب الأقصى الصدف والنحاس والخرز ، ويحملون منه التبر[4] .

---

(١) بفتح الميم وتشديد اللام وتعرف عند العامة ببلاد التكرور .
(٢) بفتح الكاف وسكون لواو وفتح الكاف الثانية وسكون الواو الثانية .
(٣) بفتح التاء وسكون الكاف وضم الواو .
(٤) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٥ س ٢٨٢ .

ولا يعرف إلا القليل عن نشأة مملكة مالى على الرغم من أنها تعد من أقوى وأعظم دول السودان الغربى ومن أوفرها غنى . وكل ما يعرف عنها أنه فى نحو منتصف القرن الحادى عشر الميلادى اعتنق ملوك الماندنجو فى كانجابا (Kangaba) الإسلام . وفى أوائل القرن الثالث عشر الميلادى بدءوا يوسعون مملكتهم فى الجنوب والجنوب الشرقى . وقد أثار قيام هذه المملكة عداء ملك صوصو الذى بدأ يعمل على القضاء على هذا الملك الجديد . وكادت جهود ملك صوصو وفق أول الأمر تكلل بالنجاح للقضاء على مملكة الماندنجو ، وكاد أكثر أهلها يدخلون فى طاعته .

ولما آل الملك إلى سانديانا فى سنة ١٢٣٠ م ، استطاع أن يجعل من مملكته الصغيرة إمبراطورية عظيمة هى إمبراطورية مالى . وكلمة « ماندى » هذه مرادفة لكلمة ماندنجو ومعناها : المتكلمون بلغة الماندى ويسمون باللغة الفُلانية « مالى » ، وبلغة البربر مليت (Melit) ، وباللغة العربية «مليل» ، وبلغة الحوْصا « وَانجارا » . وقد استهل سانديانا حكمه بإنشاء جيش قوى اعتمد عليه فى توطيد ملكه ، واستطاع فى سنة ١٢٣٥ م أن يحل الهزيمة بملك صوصو وأن يضم إليه بلاده كلها .

أما بلاد غانة فقد أفل نجمها بتغلب أهل صوصو المجاورين لهم عليها . ثم استولى سانديانا ملك مالى على البقية الباقية من ملك غانة بعد رحيل المسلمين عنها سنة ١٢٤٠ م . ونقل فى هذه السنة العاصمة التى كانت بعيدة عن مركز الدولة إلى نيامى (Niami) (وأحياناً تسمى مالى) جنوبى نهر النيجر .

وقد احتلت مالى مكان غانة كأغنى مركز تجارى فى غربى السودان ، وبدأ التجار قبل نهاية القرن الثالث عشر الميلادى يفدون إليها من شمالى إفريقية ويقيمون فيها . ولم يشترك سانديانا فى معارك حربية بعد سنة ١٢٤٠ م . على أن

قواده الذين دربهم على أساليب القتال واصلوا الفتح والغزو . وفى خلال الخمس عشرة السنة التى بقيت من حكمه وفى عهد خليفته منْسَى[١] ، (ومعناه السلطان) أولى (١٢٥٥ — ١٢٧٠ م) ، استولى هؤلاء القواد على منطقة وَانجارا الغنية بمناجم الذهب ، كما استولوا على مدينتى بامْبوك و بَنْدو (ولم تكونا جزءاً من من إمبراطورية غانة وصوصو) : و بين سنتى ١٢٧٠ — ١٣٠٧ م ولى عرش مالى أكثر من سبعة ملوك لم يشتهر منهم إلا سَكوتا[٢] (١٢٨٥ — ١٣٠٠ م) الذى اتسعت رقعة البلاد فى عهده .

وقد بلغت إمبراطورية مالى أوج قوتها وثرائها فى عهد منسى موسى (١٣٠٧ — ١٣٣٢ م) ، الذى استطاع قواده أن يفتحوا ولاته وتُمبُكتو (Tumbuktu) ، وأن يضموا جُوا (Goa) فى أواسط النيجر وفى عهده امتدت رقعة مملكته من بلاد التكرور غرباً إلى دِنْدى شرقاً ، ومن ولاته فى الصحراء إلى مرتفعات فوتاجالون جنوباً . ولم تنج من أطماعه فى السودان الغربى سوى مدينة جنى (Jenne) التجارية ومملكة موسى (Mossi) المستقلة . وكانت القوافل الآتية من مراكش و برقة ومصر تزور مالى بانتظام . وكان لمنسى موسى سفراء فى مدينة فاس . وكان أسلافه يحجون بيت الله الحرام كل عام . ولكن زيارة منسى موسى للأراضى المقدسة كان لها دوىّ كبير فى مصر و بلاد العرب . فقد كانت حاشيته تضم خمسمائة عبد . وقيل إنه أخذ معه خمسين ألف أوقية من الذهب وزع أكثرها على الناس هدايا وصدقات . ولما عاد إلى بلاده أحضر معه طائفة من مشاهير العلماء أقاموا فى مالى وتمبكتو . ومن أشهر هؤلاء العلماء أبو إسحاق الساحلى أو السهلى من أهل غرناطة ببلاد

---

(١) بفتح الميم وسكون النون وفتح السين المهملة على ما ورد فى رحلة ابن بطوطة ج ٢ ص ١٨٤ .

(٢) بفتح السين .

الأندلس . وقد مات بتمبكتو ؛ وإليه يرجع الفضل فى إدخال فن البناء بالآجُر فى غربى السودان . وقد بنى مسجداً عظيماً فى جوا ومسجداً آخر فى تمبكتو بز غيره من المساجد كمركز ثقافى وتجارى ، كما بنى قصر منسى موسى [١] .

ويذكر ابن بطوطة [٢] عن كرم منسى موسى أنه أعطى أبا إسحاق الساحلى أربعة آلاف مثقال من الذهب فى يوم واحد وأعطى غيره ثلاثة آلاف مثقال فى يوم واحد . وقد قيل إن رجلا من أهل تلمسان أعطى منسى موسى سبعة مثاقيل وثلث مثقال وهو صبى ، ثم جاء إليه هذا الرجل وهو سلطان ، فعرفه وقربه إليه « وقال الأمراء : وما جزاء من فعل ما فعله من الخير ؟ فقالوا الحسنة بعشر أمثالها ، فأعطه سبعين مثقالا ، فأعطاه سبعمائة مثقال وكسوة وعبيداً وخدماً » .

وقد تنقل ابن بطوطة فى بلاد مالى فى القرن الثامن الهجرى (الرابع عشر الميلادى) (١٣٥٣ م) وزار بلاط منسى سليمان ، واتصل بأمراء دولته وفقهائها ، ولـكنه ندد ببخل هذا السلطان وتقصيره فى ضيافته وضآلة هديته إليه . على أن هذا السلطان عاد فأمر بإنزال ابن بطوطة داراً خاصة وقرر له نفقة تجرى عليه . ولما حل اليوم السابع والعشرون من شهر رمضان ، وزع السلطان على القاضى والخطيب والفقهاء أموالاً يسمونها الزكاة ، وأعطى ابن بطوطة ثلاثة وثلاثين مثقالا وثلثا من الذهب ، ثم أعطاه عند سفره مائة مثقال من الذهب .

وقد وصف هذا الرحالة قصر السلطان وطبقاته المغشاة بصفائح الذهب والفضة أو بصفائح الفضة المذهبة على الأصح ، وذكر أنه إذا جلس بالقبسة ، رفعت الستور ، وضربت الطبول . ونفخت الأبواق المصنوعة من أنياب الفيلة . ثم يخرج من باب القصر نحو ثلثمائة من العبيد يحمل بعضهم القسى ، وبعضهم

---

(١) Fage, History of West Africa, pp. 24 - 26.

(٢) ابن بطوطة جـ ٢ ص ١٩٩ — ٢٠٠ .

يحمل الرماح والدرق ، ويقفون على ميمنة السلطان وميسرته ، ثم يؤتى بفرسين مسرجين ملجمين ، ومعهما كبشان يقال إنها تنفع من العين . ثم يأخذ الأمراء والخطيب والفقهاء أماكنهم . ومن أراد أن يكلم السلطان تقدم إلى رجل وأسرّ إليه بما يريد أن يقوله ، فيتقدم هـذا الرجل إلى رجل آخر يتولى نقل هذا الحديث إلى السلطان .

كذلك وصف ابن بطوطة جلوس سلطان مالى على مصطبة تحت شجرة ذات ثلاث درجات يسمونها البَنْبِي[1] . وتفرش هذه المصطبة بالحرير ، وتوضع عليها الوسائد ، وترفع عليها قبة من الحرير يعلوها طائر من ذهب على شـكل البازى ، ثم يخرج السلطان يحمل قوسه بيده وكنانته (جعبته) بين كتفيه ، وعلى رأسه شاسية من ذهب مشدودة بعصابة من ذهب . ويرتدى جبة حمراء ، وبين يديه المغنون ، وخلفه نحو ثلثمائة يحملون السلاح ، فإذا جلس السلطان ضربت الطبول ونفخت الأبواق ، والتف حوله العبيد والأمراء على النحو الذى يجلس عليه فى قصره[2] .

وإذا أقبل العيد ارتدى الناس الثياب البيض ، وعلى رءوسهم الطيالسة ، وخرجوا إلى المصلى القريب من قصر السلطان ، ثم يخرج السلطان ويأخذ الناس فى التهليل والتـكبير . وإذا ألقيت الخطبة وأقيمت الصلاة نزل الخطيب وجلس بين يدى السلطان ، وأشاد بفضائل العيد ، وأثنى على السـلطان وحث على وجوب طاعته ، فينقل أحدهم كلام الخطيب إلى الناس : ثم يجلس السلطان بعد عصر يوم العيد على عادته أيام الجلوس ، ويقف على رأسه أربعة من الأمراء يطردون الذباب عنه . ثم يأتى أحد الأمراء بنساء السـلطان الأربع وجواريه ،

---

(١) بفتح الباء الأولى وسكون النون وكسر الباء الثانية .

(٢) رحلة ابن بطوطة جـ ٢ ص ١٩٤ — ١٩٦ .

مرتديات الملابس الجميلة ، وعلى رءوسهن عصابة الذهب والفضة . ويغنى هذا الأمير بشعر يمدح فيه السلطان ويشيد بما أحرزه من نصر فى غزواته ويمجد أعماله ويشيد بمآثره ويشترك النساء والجوارى فى الغناء ، ويلعبن بالقسى ، ويساعدهن ثلاثون من الغلمان الذين يضربون الطبول . ثم يأتى الصبيان فيلعبون ألعابا بديعة تتسم بالخفة والرشاقة ويلعبون بالسيوف . ثم يوزع عليهم السلطان مثاقيل الذهب على حسب مراتبهم . ثم ينشد الشعراء قصائدهم ، وهى نوع من الوعظ وسرد سير الملوك الذين سبقوا السلطان وما قاموا به من أعمال الخير ، جريا على التقاليد التى استمرت بعد تحولهم إلى الإسلام[١] .

وأهل مالى أكثر زنوج إفريقية رقيا وأشدهم ذكاء . ويمتدح الرحالة المحدثون صناعتهم ومهارتهم وأمانتهم ونظافة قراهم وشدة تمسكهم بالإسلام[٢] . وقد ذكر ابن بطوطة أنهم يشتهرون ببسط العدل واستتباب الأمن فى بلادهم ، فلا يخاف المسافر فيها ولا المقيم من سارق ولا غاصب . ومنها عدم تعرضهم لمال من يموت ببلادهم من البيضان[٣] ولو كان القناطير المقنطرة . إنما يتركونه بيد ثقة حتى يأخذه مستحقه . ومنها مواظبتهم على الصلاة ، والتزامهم إياها فى الجماعات وضربهم أولادهم عليها . وإذا كان يوم الجمعة ولم يبكر الإنسان إلى المسجد لم يجد أين يصلى لكثرة الزحام . . . ولباسهم الثياب البيض يوم الجمعة ، ولو لم يكن لأحدهم إلا قميص خلق غسله ونظفه وشهد به الجمعة : ومنها عنايتهم بحفظ القرآن العظيم . وهم يجعلون لأولادهم القيود إذا ظهر فى حقهم التقصير فى حفظه ، فلا تفك عنهم حتى يحفظوه[٤] » .

---

(١) رحلة ابن بطوطه حـ ٢ ص ١٩٧ — ١٩٨ .

(٢) سير توماس أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ، ترجمة ص ٢٧٥ .

(٣) يعنى بذلك الوافدين على بلادهم من بلاد المغرب .

(٤) رحلة ابن بطوطة جـ ٢ ص ٢٠٠ .

وقد ذكر القلقشندى(١) أن السحر يكثر بين أهل مالى . حتى إنهم يعتقدون أنه يؤدى إلى قتل بعض الناس ، وأن السلطان يحكم على القاتل بالقصاص ويحكم بقتل الساحر . ويكثر بينهم مرض النوم ، ومن عادتهم أن من عطس فى مجلس السلطان ضرب ضرباً مؤلما . وإذا اضطر أحدهم إلى العطاس انبطح على الأرض وعطس حتى لا يعلم أحد به ، ومن عاداتهم أيضاً أنه لا يدخل أحد دار السلطان منتعلا ، ومن لم يخلع نعليه قصداً أو سهواً كان جزاؤه القتل . ومن عادة السلطان أنه لا يكتب بيده شيئاً فى الغالب بل يعهد بذلك إلى الكتاب . وقد قدر عدد عسكره بمائة ألف ، منهم نحو عشرة آلاف فارس ، وسائر عسكره من الرجالة . ويشبه زى أهل مالى زى المغاربة ، ويلبس فرسانهم أساور من ذهب . ومن علت مرتبته فى الفروسية لبس معها أطواقاً من ذهب ، فإن علت مرتبته لبس مع ذلك خلاخل من ذهب ، وإن علت مرتبته فوق ذلك لبس سراويل متسعة ضيقة الأكام متسعة من أسفل . وإذا أنعم الملك على أحدهم أو شكره على فعل ، تمرغ المنعم عليه بين يديه فى التراب حتى يصل إلى المكان الذى يجلس فيه الملك ، فيأخذ غلمان المنعم عليه أو بعض أصحابه من رماد قد أعد فى نهاية مجلس السلطان فيذر فى رأس المنعم عليه . ثم يعود ويتمرغ بين يدى السلطان . ويتعامل أهل مالى بالودع الذى يجلبه التجار فيكون مصدر ربح كبير لهم . وهم يتقايضون بالأطعمة والذهب الكثير فى بلادهم.

وقد اضمحلت مملكة مالى بعد منسى موسى ، فاستقلت جُوا ، واستولت قبائل الطوارق على أرَوان (بفتح الراء) وولاته وتمبكتو ، واستولى الولوف على المناطق الغربية ، واستولى الموسِّى (بكسر السين مع التشديد) على المناطق الجنوبية وقد بلغ ضعف هذه المملكة غايته فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر

(١) صبح الأعشى ج ٥ ص ٢٩١ ، ٢٩٧ ، ٣٠٠ .

حين استنجدوا بالبرتغاليين الذين كونوا لهم مستعمرة على ساحل إفريقية الغربى . وفى منتصف القرن السابع عشر أصبحت مملكة مالى مجرد دولة صغيرة فى كانجايا كما كانت من قبل[١] .

مملكة صُنْغاى فى جُوا

وحول منتصف القرن السابع الميلادى بدأ بعض قبائل لَمْطَة (بفتح اللام والطاء وسكون النون) المغربية الوثنية تحرز نفوذاً سياسياً على الزراع من صُنغاى الذين استقروا على الضفة اليسرى لنهر النيجر عند مدينة دِندى (بكسر الدالين[٢]) . واستطاع هؤلاء البربر أن يؤسسوا أسرة حاكمة تسمى أسرة ديا (Dia) ظلت تحكم هذه البلاد حتى سنة ١٣٢٥ م . وقد اتخذوا كوكيا حاضرة لهم . ولا يعرف موقعها بالضبط ، وإنما يمكن أن يقال إنها تقع فى المنطقة الشمالية الغربية من حدود نيجيريا الحالية . وقد نمت علاقات هذه البلاد التجارية مع غانة وتونس وبرقة ومصر عن طريق « تاد مكة » (أى مكة الجديدة) الذى يعد مركزاً هاماً لطرق القوافل . وكانت هذه العلاقات التجارية ذات أثر بعيد فى تحول هؤلاء الملوك إلى الإسلام فى القرن الحادى عشر الميلادى عن طريق شمالى إفريقية ، وإن كان كثير من رعاياهم قد ظلوا على وثنيتهم . وفى ذلك الوقت نقلت حاضرة هذه البلاد على مقربة من طرق القوافل الرئيسى : إلى مدينة جُوا (بضم الجيم) عند منحنى نهر النيجر . وقد أصبحت من أهم مراكز التجارة فى السودان الغربى ، وهى تشبه مدينة غانة بالنسبة إلى البلاد الواقعة فى أعالى النيجر .

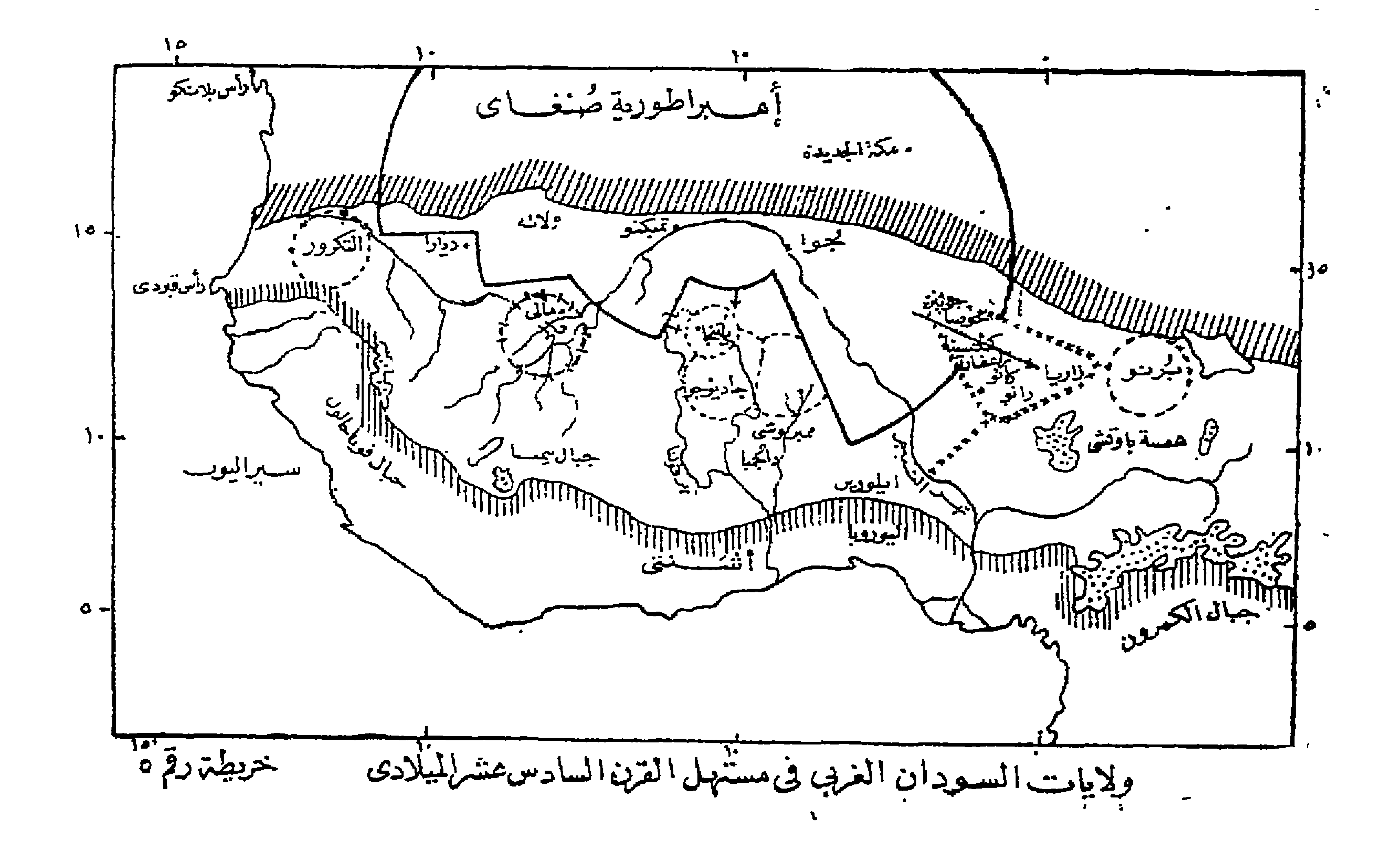
---

(١) Fage, History of Western Africa, pp. 26—27.

(٢) للوقوف على منشأ هذه المملكة ودخول الإسلام فيها فى القرن السابع الميلادى ، راجع السعدى : تاريخ السودان (طبعة باريس ١٨٩٨) ص ٣٣ وما يليها . سير توماس أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ، ترجمة ص ٢٦٩ .

وكانت جوا والبلاد التابعة لها تؤلف جزءاً من إمبراطورية مالى بين سنتى ١٢٣٥ و ١٣٣٥ م . وفى هـذه السنة الأخيرة تحرر ملوك « ديا » واستردوا استقلالهم ، واتخذوا لقب « سُنِّى » أو « السُّنِّى » . وكانت بلادهم حتى ذلك الوقت لا تجاوز وادى النيجر جنوبى جُوا ، إلا أن رقعتها أخذت تتسع فى عهد سُنى على (١٤٦٤ — ١٤٩٢ م) ، الذى جمع من بين رعاياه جيشاً سار على رأسه إلى الغرب . وفى سنة ١٤٦٨ كتب إليه أهل تُمبكتو يلتمسون مساعدته على الطوارق الوثنيين ، فاتخذ من ذلك فرصة للإغارة على هذه المدينة . وبعد ذلك بخمس سنوات استولى سنى على مدينة « چِـنِّى » (بكسر الجيم والنون مع التشديد) .

وكانت الدماء البربرية فى أسرة السنِّى لا تزال قليلة . وكان سنّى على مشغولا بمشروعاته السياسية منصرفاً عن شئون دينه ، فضلا عما عرف به من القسوة ، حتى إن الفقهاء والعلماء فروا فى عهده من مدينه تمبكتو واعتصموا بمدينة ولاتة . وبعد وفاته انتقل العرش إلى أحد قواده من السوننكى . وكان يدين بعقـائد المذهب السنى ، وقد تقلد حكم هذه البلاد وأطلق على نفسه اسم « اسـكِيا » (بفتح الألف مع الهمزة وسكون السين وكسر الـكاف) « محمد الأول » وقد نظم شئون البلاد واستخدم طائفة من الموظفين الأكفاء كما نظم الجيش ، واستغل ثروة سلفه فى النهوض بالشئون الدينية ، وحج بيت الله فى مكة سنة ١٤٩٥ م . وكان سفر محمد يفوق ماعرف عن منسى موسى فى الأبهة والـكرم ، واستردت تمبـكتو مكانتها كمركز للدراسات الإسلامية . ولما عاد اسكيا محمد الأول من مكة سنة ١٤٩٧ م ، قام بعدة حملات لتوسيع رقعة بلاده ونشر الإسلام بين الوثنيين من جيرانه الماندنجو والفُلانى فى الغرب والطوارق البربر فى الشمال والموسّى فى الجنوب ، والحوصا فى الشرق . ولم تقف فى وجهه إلا إمارات



خريطة رقم ٥

ولايات السودان الغربي فى مستهل القرن السادس عشر الميلادى

موسى الوحدة . أما فى الغرب فـكانت مملـكة مالى قد اضمحل شأنها ، فامتدت إمارات صُنْغاى إلى حدود التـكرور ، وفى الشمال والشمال الشرقى استولى هؤلاء الملوك على مدينتى تغزة (بفتح التاء وكسر الغين) وأجَديس من البربر ، وفى الشرق غزوا بلاد الحوصا وأرغموا أهلها على دفع الجزية .

وقد استطاع اسكيا محمـد الأول أن ينشر الأمن والسلام فى جميع ربوع مملـكته الشاسعة الأرجاء . ولـكن حكمه آذن بالزوال فى سنة ١٥٢٨ م حين أصيب بالعمى وانتابه المرض وتآمر عليه أولاده . وظل القواد والمغامرون يتنافسون من أجل السيطرة على الجيش والحـكومة . إلا أن أسكيا إسحاق الأول (١٥٣٩ — ١٥٤٩ م) استطاع أن يعيد الأمن إلى نصابه وأن يقضى على منافسيه . ثم خلفه داود الذى عين أنصاره فى الوظائف الهامة . وقد سار إسحاق وداود على نهج سلفهما فى نشر الإسلام بين الوثنيين من جيرانهم و بعد وفاة داود (١٥٨٢ م) أثرت المنازعات التى قامت على العرش تأثيراً سيئاً على مملـكة صُنغاى . فقد كان سلاطين المغرب منذ عهد بعيد يتطلعون إلى مناجم الملح فى تغزة و إلى السيطرة على تجارتهم مع السودان . وظل ملوك صُنغاى يصدون سلاطين المغرب حتى سنة ١٥٨٥ م حيث انقسمت البلاد على نفسها ، فاتخذ المغاربة من ذلك فرصة لتحقيق أطماعهم . وقد استغل أحمد المنصور الذهبى سلطان المغرب الذى انتصر على البرتغـاليين فى موقعة القصر الـكبير ضعف صنغاى للاستيلاء عليها ، فسير جيشاً عَبَر الصحراء ليضع يده على مناجم الذهب ، وفى سنة ١٥٩٠ سارت حملة تتألف من أربعة آلاف جندى ، و بعض الأوربيين وأسرى المسيحيين المسلحين بالبنادق التى لم تعرف إلا فى بلاد « بُرْنو » وقد حلت الهزيمة بجند إسحاق الثانى وتمزق جيشه ، وهرب أهل جُوا عبر النيجر إلى غير رجعة[1] .

---

(١) Fage, History of West Africa. pp. 27 - 30.

ولم تفلح جهود إسحاق وخلفائه فى وقف تقدم الجيش المغربى ، ووقفت حدود مملكته عند بلاد دِندى . وكانت موقعة تونديبى فاصلة فى تاريخ مملكة صُنغاى . ولكن هذه الواقعة لم تكن نصراً للمغرب إلا من الناحية العسكرية ، إذ أنهم لم يحققوا الأغراض التى قاتلوا من أجلها وهى السيطرة على مناجم الذهب فى غرب إفريقية . فقد اكتشفوا أن ثروة صنغاى لم تكن نتيجة امتلاكهم لمناجم الذهب ، وإنما كانت نتيجة لسيطرتهم على تجارته مع مواطن إنتاجه فى وانجارا و بُنْدوكو (بضم الباء وسكون النون) ، وأسنتى (بفتح السين وسكون النون) وهى تجارة لا تزدهر إلا فى ظل السلام والأمن الذى نجح ملوك صُنغاى فى إقامته فى غرب السودان ، كما أن إخفاق الحملات المغربية فى القضاء على ملوك صنغاى فى دِندى قد أظهر ضعف الجيش المغربى وقلة مقاومته للأمراض الاستوائية ، وعجزه عن الوقوف فى وجه الزنوج الذين كانوا يدافعون عن بلادهم ويتحصنون بالغابات . لذلك أخفق المغاربة فى الاستيلاء على مناجم الذهب فى داخل الغابات فى الوقت الذى تفرق فيه جيش صُنغاى الذى لم يعد قادراً على حفظ الأمن ، فتفرقت أوصال ملكهم ، وقامت الثورات فى بلادهم ، فقام الفُلانى والبمبارا والطوارق ينهبون و يسلبون ويخربون . وكان الجيش المغربى قليل العدد لا يستطيع أن يسيطر على أرجاء البلاد كافة ، ولم يستطع إلا السيطرة على جُوا وتمبكتو وجِنى السنى واستخدمها للإغارة كقواعد عسكرية منها على مايليها . وهكذا أخفق المغاربة فى حفظ الأمن والنظام فى أقاليم السودان العربى ، فى الوقت الذى بدأ فيه الأوربيون ينزلون على سواحل إفريقية الغربية ويطمعون فى مناجم الذهب .

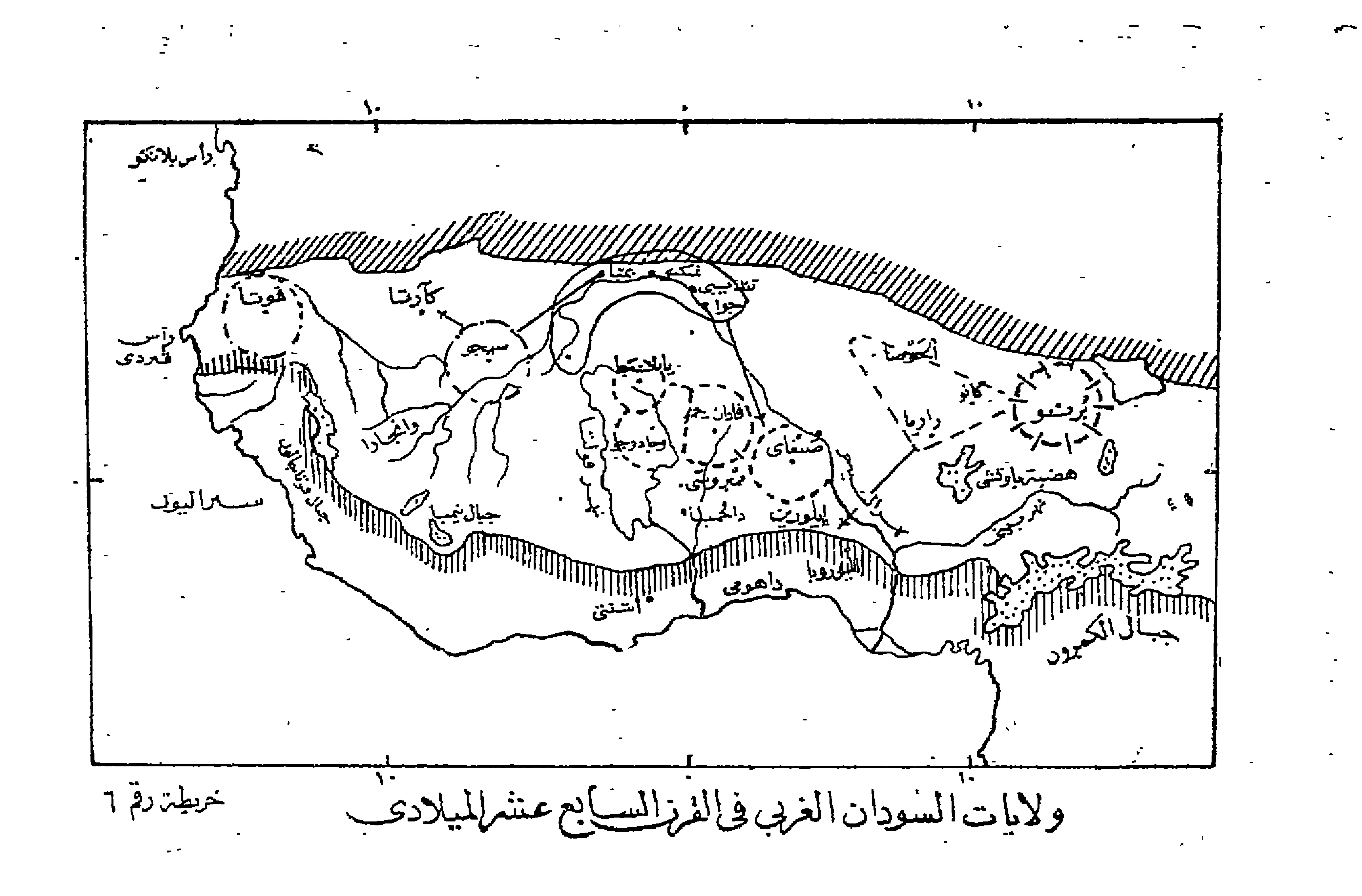
ولم يكن فى استطاعة السلطان المغربى أن يرسل قوات كالتى أرسلها فى سنة ١٥٩٠ ، وإن كان قد شرع فى إرسال الإمدادات والقواد حتى بلغ مجموع ما أرسله منها بين سنتى ١٥٩٠ — ١٦١٨ م . ما يقرب من ٢٣٠٠٠ لم يعد منهم أحد

وكان دخله من هذه البلاد غير قليل ، فكانت تمبكتو وجُوا تدفعان له الجزية ولكن هذا المال كان أقل مما كان يتوقعه ليبرر هذه الجهود العسكرية الضخمة. وكان فتح السودان بأمر المنصور المراكشي الذى لم يكن جمهور التجار على رأيه بل كانوا يعتقدون أن موارده وإن عظمت لا تفي بتجارة المغرب مع السودان التي لابد لها أن تقل شيئاً فشيئاً ، وقد صدق ظن هؤلاء التجار بعد وفاة المنصور حين عدلوا عن مشروع فتح بلاد السودان (١٦١٨ م) .

وقد ظلت فلول الجيش المغربي فى هذه البلاد حتى سنة ١٧٨٠ . وكانت صفوف هذا الجيش تنتظم كثيراً من الجند الزنوج . وكان الضباط يولون أولادهم ، وكانوا من المولدين الذين كونوا طبقة تسمى « أرما » (Arma) ، وكانت هذه الطبقة تختار ولاتها وتدعى التبعية لسلطان المغرب . وكانت تمبكتو مقر هذه الولاية ، وقد اتخذ بعض القواد مراكز لهم فى جُوا وبَمْبا وجِنِّى . وكان هَم الباشوات منصرفاً إلى جمع المال وحمل الزعماء المحليين على دفع الجزية . على أن سلطانهم قد ضعف تدريجيًا ، لأنه كان يعتمد على الجيش الذى كان يعزلهم إذا شاء ، حتى لقد بلغ عدد من تولى منهم بين سنتى ١٦٦٠ و١٧٥٠م ١٢٨ باشا . كما أن قوة الجيش قد أخذت تضعف هى أيضاً ، فلم يستطع أن يحمى البلاد أو يحمى أهلها ، واضطر الباشوات منذ سنة ١٦٧٠ م إلى دفع الجزية إلى الحكام الوثنيين . وقد بدأ القواد فى جُوا وبَمبا وجِنى يخالفون تعليمات تمبكتو ويحتفظون باستقلالهم المحلى . وفى سنة ١٧٨٠ م لم يعد الجيش ينتخب باشوات جدداً ، إنما كان القواد يعينون أنفسهم ، ثم انتقلت السلطة إلى حكام البمبارا على ما سيأتى[1] .

---

(1) Foge, History of West Africa, pp. 30 - 32



خريطة رقم ٦

ولايات السودان الغربي في القرن السابع عشر الميلادى

شعب الحوْصا — شمالى نيچيريا

وينتشر شعب الحوصا فى شمالى نيچيريا ولا سيما فى مقاطعات سُكتو (بضم السين والكاف) ، وكانو ، وزاريا ، وباوتشى . وقد تأثرت هذه القبائل بمؤثرات زنجية . وكان يظن إلى عهد قريب أن قبائل الحوصا تمثل جنسا قائما بذاته ، ولكن قد تبين أن الحوصا اصطلاح لغوى يطلق على جميع الشعوب التى تتكلم بهذه اللغة . وليس ثمة جنس يمكن أن يسمى بجنس الحوصا . كما أن لغة الحوصا منتشرة على نطاق واسع فى غربى إفريقية ، فهى ال lingua franca ، أى لغة المعاملات التجارية والمالية . ومما يؤسف له أن الفاتحين من الفُلانى قد قضوا على كل الوثائق التاريخية المسجلة التى يمكن الاعتماد عليها فى دراسة تاريخ هذه الشعوب . ويمكن أن يقال إنه كانت هناك سبع إمارات قامت فى قت مبكر وكانت تابعة للحوصا هى إمارات : كانو ، ورانو ، وزازيا ، ودُورا بضم الدال ، وجوبير ، وكَتْسينا (بفتح الكاف وسكون التاء) ، وزامفارا .

وكانت قبائل الحوصا تدين بالوثنية قبل أن تتحول فى القرن الثالث عشر الميلادى إلى الإسلام الذى انتشر انتشاراً واسعاً وترك أثراً بعيداً فى حياة هذه القبائل الاجتماعية والدينية ، وقد نشأ بينها نظام للحكم مستمد من تعاليم الإسلام ، كما نشأ نظام مالى دقيق ونظام قضائى يقوم على تطبيق الشريعة الإسلامية فى دقة وفهم . ويحكم كلا من هذه الإمارات ملك أو أمير يعاونه بعض الوزراء الذين يقومون بأعمال الوزراء فى العصور الوسطى . وتستمد كل إمارة اسمها من اسم المدينة الرئيسة فيها . ويحيط بكل من هذه المدن سور كبير مبنى باللبن ، وخندق متسع يجرى فيه الماء للدفاع عنها وقت الخطر . وكانت القبائل تعتصم بهذه المدن إذا ما تعرضت لأى هجوم عليها .

وكانت كل إمارة مستقلة عن الأخرى وإن كان قد قام بينها نوع من التحالف . وكانت الحروب الأهلية تجتاح هذه الإمارات فى بعض الأحيان . وإلى إمارة « زازيا » يرجع الفضل فى نشر الإسلام فى أواسط نيجيريا ، على حين كانت إمارة « كانو » تنشر هذا الدين فى منطقة « بُرْنو » فى الشرق . وكثيراً ما كانت إمارات الحوصا تتعرض لغارات شعب البرنو . ففى سنة ١٥١٣ م مثلا غزا هذا الشعب بلاد الحوصا واحتل إمارات كتسينا وزازيا وكانو . وأصبحت بلاد الحوصا ميدانا للتنافس بين قوتين عظيمتين هما : قوة البرنو وقوة السكبىّ ، وكلاهما كان يعمل على بسط نفوذه على غربى السودان كله . ومما ساعد هذه الإمارات على البقاء أن شعب الحوصا شعب يميل إلى التجارة ، والتجار عادة يتعاونون تعاوناً سلمياً مع قوى العدو . وهذه الحقيقة هى التى أتاحت لإمارة كتسينا أن تبقى برغم إخضاع « بُرنُو » لها ، وأن تسترد مكانتها القديمة كمركز من مراكز الثقافة الإسلامية .

أما إمارة جوبير فقد خضعت للقبائل الصحراوية ، ولكن بعد أن استطاعت أن تتحرر من ربقتها بدأت تحاول إخضاع إمارات الحوصا الأخرى . وفى منتصف القرن الثامن عشر أخضعت إمارة زامفارا وأصبحت أعظم إمارات الحوصا جميعاً ، على أن أمراءها كانوا يدينون بالوثنية . وكان الإسلام قد أخذ يضمحل فى هذه البلاد حتى أتيح له أن يسترد قوته من جديد على يد شعب الفُلانى بزعامة عثمان دان فوديو .

وقد بدأت بلاد الحوصا وهى فى عز قوتها وسؤددها تتعرض لهجرات سلمية كانت ذات أثر بعيد فى تاريخها ، وهى هجرات شعب الفلانى الذى يرجح أنه استقر فى بلاد التكرور على نهر الجمبيا حول القرن التاسع الميلادى . ويقول « سير ألان بيرنز » إن علماء الأجناس اختلفوا فى أصل هذا الشعب :

فبعضهم يرده إلى أصل هندى أو يهودى أو فينيقى . ويذهب بعض هؤلاء العلماء إلى أنهم من أصل مصرى ، وأنهم يشبهون صور المصريين المنقوشة على القبور من عهد الهكسوس . ويكاد هؤلاء الباحثون يتفقون على أمر واحد ، هو أن هؤلاء القوم جاءوا من صعيد مصر ، وأنهم هاجروا غربا عن طريق بلاد المغرب ، ثم انحدروا إلى المحيط الأطلسى ، فاستقر بعضهم هناك ، ومضى بعضهم الآخر قدما حتى بلاد السنغال ، ثم أخذوا فى القرن الثالث عشر يهاجرون شرقا ويتدفقون إلى شمالى نيجيريا . وكان بعض هؤلاء المهاجرين ينزعون إلى سكنى المدن ويختلطون بسكانها من الحوصا ، ويتزوجون منهم ، ويعتقدون الإسلام . وسرعان ما سيطروا على المدن . وهؤلاء يسمون فلانى جدّا (Fulani Gidda) أى الفلانى المُهَجَّنُون أو المختلطون . أما القسم الآخر من هذا الشعب فقد عاش بمعزل لا يختلط بالحوصا ، يعيش عيشة البداوة ويحتفظ بعقيدته الوثنية وبدمه نقيا . وهؤلاء يسمون « كاو فلانى » ، أى الفلانى رعاة البقر . وهم يمثلون هذا الشعب أحسن تمثيل : تقاطيع دقيقة ، وشعر مسترسل ، وقامة طويلة . وقد خضع هؤلاء للسلطات المحلية فى بلاد الحوصا قرونا طويلة(١) .

وكانت قبائل الفلانى حتى ذلك الوقت تتألف من عدة قبائل صغيرة متناثرة ومستعمرات منهم الرعاة والزراع فى مختلف بقاع السودان ، وقد دانت هذه القبائل بالإسلام فى وقت مبكر . ويتحدث « فرانسيس مور » الذى زار موطنهم على نهر الجمبيا سنة ١٧٣١ م عنهم فيقول إنهم ينتشرون على نهر الجمبيا ، وإنهم يشبهون العرب ، ومعظمهم يتكلم العربية لأنهم يتعلمونها فى مدارسهم ، ولهم لغة غير مهذبة تسمى « فولى » . وكانوا إذا أساء إليهم أحد الحكام الذين يقيمون فى بلادهم ، هدموا مدنهم وارتحلوا إلى قوم آخرين . ولهم رؤساء

---

(1) Burns, History of Nigeria, pp. 41—45.

من أنفسهم يحكمونهم حكما معتدلا . والفلانى على جانب كبير من النشاط والاقتصاد . فهم يزرعون القمح والقطن أكثر مما يفى بحاجتهم ويبيعونه بسعر معتدل . وهم يشتهرون بالكرم : فإذا علموا أن أى فرد من جماعتهم قد أخذ رقيقاً اجتمع الفلانيون وحرروه .

ولوفرة القمح عند الفلانى لا يَدَعون أى واحد منهم يقاسى الحاجة ، بل إنهم يعولون المسن والأعمى والأعرج ويساوون بينهم وبين الآخرين . وقلما يستولى الغضب على نفوسهم أو يسب أحد منهم الآخر ، ويرجع ذلك إلى انتشار الرخاء فى البلاد . وهم يُعرفون بشجاعتهم ومهارتهم فى استعمال الأسلحة ، ومنها القوس والنشاب ، ويستخدمون البنادق فى بعض الأحيان . وأهل هذه البلاد مسلمون مخلصون لدينهم ، يندر أن يشرب أحدهم الخمر أو أى مشروب أقوى من الماء[١] .

الشيخ عثمان دان فوديو — السلطان بِلُّو

وحول نهاية القرن الثامن عشر الميلادى ظهر من بين فقهاء الفُلانى[٢] (بضم الفاء) الشيخ « عثمان دان فوديو » . وقد اشتهر بأنه مصلح دينى وداع محارب . وقد رحل إلى مكة لأداء فريضة الحج ، وتأثر بمبادئ الوهابيين ، فأنكر الصلاة على روح الميت وتعظيم قبور الأولياء ، وحارب شرب الخمر وفساد الخلق . واستطاع بما عرف عنه من ورع وتقوى أن يُوَحِّد هذه الجماعات المنفصلة المتناثرة فى شتى أقاليم الحوصا ، وجعل منهم جماعة قوية . وتمتع بنفوذ

---

(١) Francis Moore, travels in the Inland Parts of Africa pp. 75—77.

راجع سير توماس أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ، ترجمة ص ٢٧٤ .

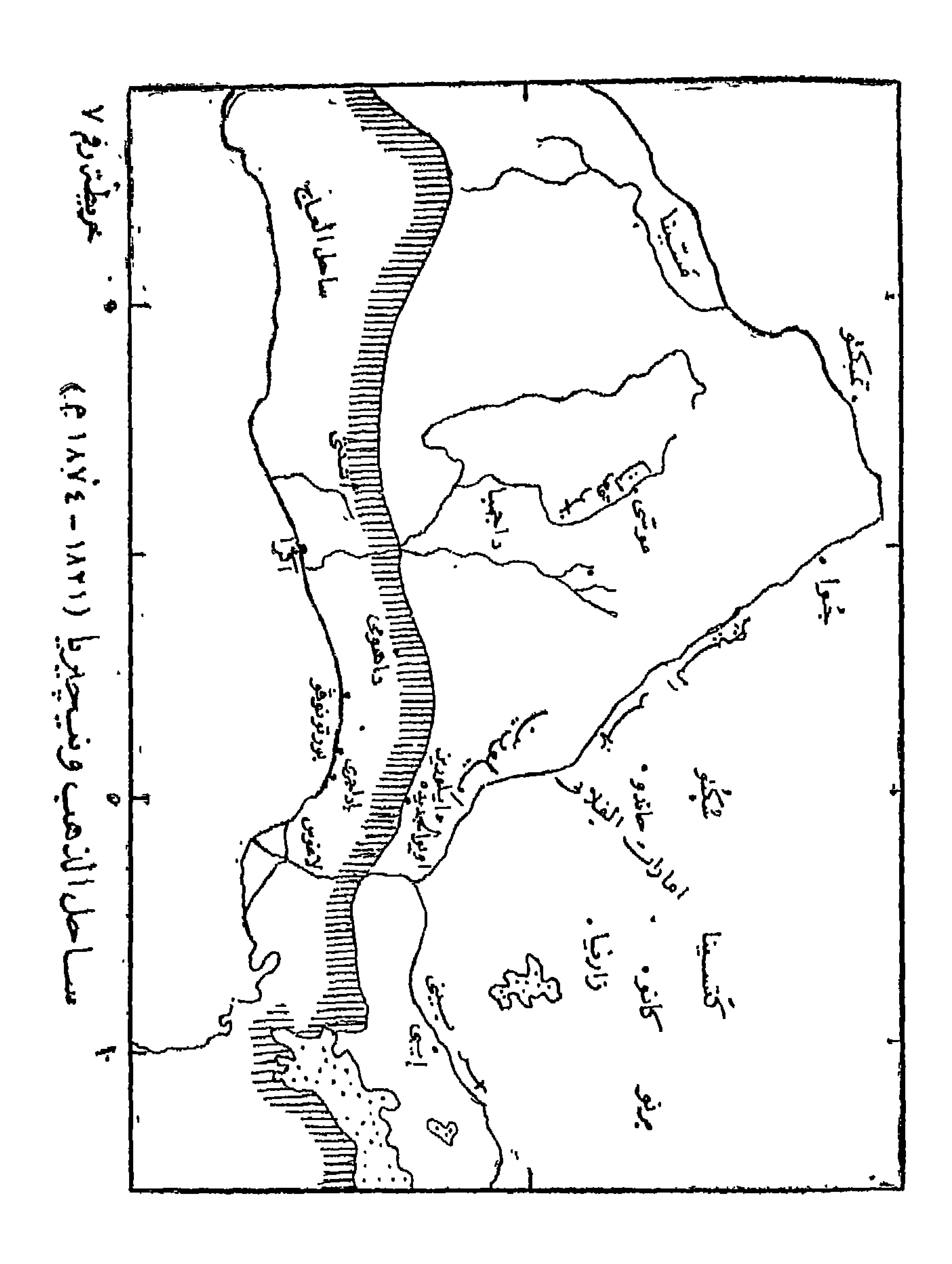
(٢) أو الفلى « بكسر الفاء مفردها پول » اسم أطلقه هذا الشعب على نفسه ، ويطلق عليهم جيرانهم أسماء مختلفة تربو على المائة ، أشهرها فلا وفلانى .

كبير حتى بين الملوك الوثنيين فى البلاد . وفى سنة ١٨٠٢ حدث شقاق بينه وبين مملكة « جوبير » ، وكانت لا تزال على الوثنية ، وقد بسطت نفوذها على أقصى شمالى بلاد الحوصا . وقد حاول ملك جوبير أن يعوق ازدياد قوة الفلانى فى بلاده . وحدث أنه اضطهد أحد الرعايا المسلمين ، فتدخل عثمان دان فوديو فى الأمر لدفع هذا الأذى ، فغضب ملك جوبير وبعث فى طلب عثمان . فلما رفض الحضور بعث الجند لإحضاره ، فثار أنصار عثمان ، وجاء أتباعه من الفلانى والحوصا من كل فج يباركون حركته وينتظمون فى سلك دعوته ، وبايعوه بإمامة المسلمين فى بلاده ، وطلبوا إليه أن يفتح هذه البلاد وأن ينشر الإسلام فيها . فأعلن عثمان الجهاد ، وعقد اللواء لأربعةَ عشر من أصحابه ، وطلب إليهم أن يقاتلوا فى سبيل الله ورسوله . وتلقب عثمان بلقب « ساركين مُسُلمانى » (Sarkin Musulmani) ، أى أمير المؤمنين ، واستقر فى سكتو (بضم السين والكاف) ، وأخذ ينظم فتوحه[1] .

ولكن هذا الجهاد لم يكن موجهاً نحو الوثنيين وحدهم ، إنما كان موجهاً نحو المسلمين العابثين بدينهم . فكان هذا أمراً بالمعروف ونهياً عن المنكر . وعلى الرغم من أن بلاد « برنو » كانت بلاداً إسلامية ، هاجمها شيعة عثمان دان فوديو فى سنة ١٨٠٨ م . وبين سنتى ١٨٠٤ و ١٨١٠ م سقطت ولايات الحوصا الإسلامية واحدة تلو أخرى فى يد عثمان دان فوديو . ولما تم لعثمان النصر ترك أمور الدولة لأخيه عبد الله وابنه بللو ، وقسم البلاد بينهما ، وظل يبشر بالإسلام ويفقه الناس فى الدين حتى توفى سنة ١٨١٧ م فى مدينة سُكتو قاعدة دولته . وما زال قبره فى سكتو مثابةً تعظمها جموع كثيرة من الزائرين . وقد اتخذ عبد الله أخو عثمان مدينة جُنْدُو (بضم الجيم وسكون النون وضم الدال) مقراً

---

(١) Fage, History of West Africa, pp.34—35.



خريطة رقم ٧

ساحل الذهب ونيجيريا (١٨٢١ - ١٨٧٤ م)

لملكه إلى أن توفى عثمان فاعترف بابنه سلطاناً على المسلمين[1] .

وكان عصر السلطان بللو حافلا بالفتن والاضطرابات والحروب الأهلية مع القبائل التى رفضت الخضوع لسلطانه ، ولم تستقر الأمور إلا قبيل وفاته . واستمر أصحاب الألوية الأربعة عشر وأحفادهم يقدمون فروض الطاعة لسلطان سكتو ، وأصبحت الإمبراطورية الفلانية تتكون من سبع المقاطعات التى كانت تتألف منها مملكة الحوصا القديمة . وقد زار بللو الرحالة الإنجليزى الملازم كلابرتون (Lieutenant Clapperton) فى سنة ١٨٢٤ م . ولما أزمع الرحيل سلمه هذا الملك رسالة بعث بها إلى ملك إنجلترا يحثه فيها على حسن معاملة الرعايا المسلمين . وقد خلف بللو ، ابنه أبو بكر عتيق الذى ظلت سلالته تتوارث عرش سكتو حتى العصر الحاضر متخذة لقب أمير المسلمين .

وليس من شك فى أن أمراء الفلانى قد أداروا دفة البلاد فى مقدرة ومهارة ونشروا لواء العدل . ولكن نفوذ هؤلاء الأمراء أخذ يضعف وتطرق الفساد إلى جسم الدولة ، فلم يعد الأمراء رجال زهد وتقشف كما كان أسلافهم من قبل ، بل انغمسوا فى الترف وتملكهم الطمع ولا سيما أمير « كانو » ، وبدءوا يقلدون الزعماء الوثنيين المجاورين لهم ، وأغفلوا تعاليم عثمان دان فوديو . وكان من أثر ذلك أن خرج كثير من الوثنيين عن طاعتهم ، واضمحل ملكهم فى الوقت الذى بدأ فيه البريطانيون يدخلون البلاد فى القرن التاسع عشر . ولكن برغم هذا نستطيع أن نقول إن الفُلانى استمروا يحكمون هذه البلاد حكما صالحاً قرابة قرن من الزمان ، فنشروا الإسلام ودانت لهم قبائل شمال نيجيريا كلها .

---

(١) Sir Alan Burns, History of Nigeria, p. 46.

ولما استقام لملوك الفُلانى أمر بلاد الحوصا ، وجدوا فى البلاد نظما إدارية صالحة احتفظوا بها ، فلم يغيروا كثيراً من نظم الضرائب التى سارت على وفق النظم الإسلامية المستمدة من تعاليم القرآن : فضريبة الزكاة كانت تدفع لبيت المال . وهناك ضريبة العشر ، وثمة ضريبة ثالثة تفرض على الماشية تسمى « جانجالى » ، وضريبة أخرى تضرب على الأراضى الزراعية وهى الخراج ، وتسمى بلغة الحوصا « كورْدين كاسا » ، وضريبة أخرى تسمى الجزية تفرض على الوثنيين الذين يرفضون الدخول فى الإسلام وتسمى « جانْدو » ، وضريبة على أرباب الحرف والصناعات ، وضريبة على الجور . إلا أن أغرب هذه الضرائب ضريبة تسمى « جيزورا » أو الهدية ، وهى تقضى بأن يقدم كل مرءوس هدية لرئيسه ، ثم تتوالى هذه الهدايا حتى تصل إلى السلطان ، و تقدم فى المناسبات ولا سيا فى الأعياد . وكان أمراء المقاطعات يدفعون هذه الضريبة لأمير المسلمين فى مدينة سكتو .

وهنا نلاحظ أن عبارة أمير المسلمين كانت لقباً لسلاطين المرابطين ، كما نلاحظ أن مذهب شعب الفُلانى هو مذهب مالك ، وهو مذهب المرابطين أيضاً ، مما يحمل على الظن أن شعب النيجر بصفة عامة قد تأثر بالمرابطين الذين قاموا بالدعوة الإسلامية فى حوض النيجر .

وكان القضاء أول الأمر مستقلا عن السلطة التنفيذية . ويطبق القضاة الشريعة الإسلامية على مذهب الإمام مالك . وكانوا يطبقون النظم الإسلامية إذا لم تتعارض مع نصوص القرآن والسنة . ويشتهر القضاة المسلمون فى هذه البلاد بالدقة والتبحر فى العلم وفهم القوانين التى يطبقونها . ولديهم مكتبات حافلة بالمؤلفات الفقهية . وولاية العرش لا تنتقل مُباشرةً من الأب إلى الابن مما يحمل على الظن أن الحكم فى هذه البلاد يسير على الأصل الدينى وهو مبدأ الشورى .

ويساعد الملك أو الأمير الوزير ، ويسمى بلغة الهوصا « وزيرى » ، ويسمى صاحب بيت المال «مآچى» ، ويسمى صاحب الشرطة «سار كين دوجارى»(١) .

وإن دل هذا على شيء فإنما يدل على أن الدعوة الإسلامية فى أفريقية الغربية قد تأصلت جذورها ونمت وترعرعت وآتت أكلها على أيدى المعلمين والدعاة والتجار ، حتى إننا لنجد ممالك ما تزال آخذة بالشريعة الإسلامية الغراء ليس فى الأحوال الشخصية فحسب ، بل فى نظمها السياسية والمدنية والاجتماعية التى تتفق مع القرآن والسنة ، فهم يجمعون الزكاة الإسلامية ويفرضون الجزية على غير المسلم فى نظام إسلامى دقيق يسير على مذهب الإمام مالك رضى الله عنه ، وقد بلغ من حرصهم على تنفيذ أحكام الدين الحنيف أن الحكم فى نيجيريا يسير على مبدأ الشورى الذى قرره القرآن فى قوله تعالى فى سورة الشورى (٤٢ : ٣٨) (وأمرهم شورى بينهم) وقوله تعالى فى سورة آل عمران (٣:١٥٩) (وشاورهم فى الأمر) .

ومما تقدم نخلص إلى أن المسلمين فى أفريقية الغربية يتمتعون بحضارة إسلامية خالصة ونظام إسلامى للحكم مما لا نراه فى كثير من الدول الإسلامية الراقية .

شعب اليوروبا — جنوب غربى نيچيريا

حينما عرف الأوربيون بلاد نيچيريا الداخلية فى النصف الأول من القرن التاسع عشر الميلادى ، كانت المناطق المكشوفة منها وطناً لشعوب زنجية أو مغربية الأصل اعتنقت الإسلام وأسست إمارات قوية متحضرة . ومن هذه الشعوب شعب اليوروبا (Yoruba) فى نيچيريا الجنوبية . ومن المرجح أن

---

(١) Burns, pp. 47—50.
Fage, pp. 115, 146—148.

أصول مملكة اليوروبا ترجع إلى المدة التى تقع بين سنتى ٦٠٠ر١٠٠٠م[1] .

ويدعى شعب اليوروبا أنهم جاءوا من مكة . ولكن هذا القول لا يدل على أنهم جاءوا من مكة فعلا ، وإنما يدل على أنهم جاءوا من الشرق . وهناك رأى آخر يقول أصحابه إنهم من صعيد مصر بدليل أن طريقتهم فى الدفن تشبه طريقة قدماء المصريين . وهناك رأى ثالث يقول أصحابه بأنهم ينسبون إلى الكنعانيين وأنهم من قبائل نمرود . ويقال إنهم جاءوا إلى غربى إفريقية بعد أن طردهم يعرب بن قحطان من بلاد العرب ، فهاجروا من موطنهم الأصلى ، واتجهوا نحو غرب إفريقية ، وأخذوا يتقدمون فى سيرهم حتى وصلوا إلى مدينة ياربا (Yarba) وكانوا إذا نزلوا إقليما تركوا فيه فريقاً منهم ؛ ولهذا يدعى اليوروبا أن كل قبائل السودان قد انحدرت منهم . ومهما يكن من أمر فإن الدراسات الجنسية (الإثنوغرافية) أثبتت أنهم لم يكونوا من أصل زنجى ، وإنما اختلطوا بالدماء الزنجية على نطاق واسع .

وقد أسس اليوروبا ملكا امتد من مصب النيجر شرقا حتى بلاد داهومى غربا . وكان يطلق على ملكهم اسم « ألافين » . وقد شق الإسلام طريقه إليهم من الشمال على يد الفُلانى الذين استقروا فى بلاد الحوصا . ويروى أن أحد ملوك اليوروبا (واسمه « أفونجا ») أرسل فى طلب أحد الفقهاء المسلمين ليستقر فى بلاطه . وسرعان ماأخذ كثيرون من الحوصا يفدون إلى الجنوب ، فاستخدمهم هذا الملك فى جيشه واعتمد عليهم فى فتوحاته . ولما أحس أنهم قد غلبوه على أمره أراد إقصاءهم فقتلوه . وقد استطاع ذلك الفقيه أن يؤسس ملكه فى « إيلورين » (Ilorin) وأن ينشر الإسلام فيها ، وأصبحت إمارة فُلانية تدين بالطاعة لسلطان سُكتو . وبدأ هؤلاء الفُلانى يتوسعون فى بلاد اليوروبا

---

(١) Ibid, p. 88.

ويفتحون كثيراً من مدنها . وبلغ من قوتهم أنهم استدعوا ملك البلاد وأرغموه على اعتقاد الإسلام . ولما هاج شعب اليوروبا وأراد هذا الملك مقاومتهم أوقعوا به الهزيمة . وبذلك استقر نفوذ الفُلانى بين شعب اليوروبا . وعلى الرغم من أن الإسلام والمسيحية انتشرا بين اليوروبا لا يزال كثير منهم على الوثنية وقد قيل إن آلهتهم بلغوا ٤٠١ إلهاً ، وبعضهم يعبد المحيطات أو الصخور أو الأشجار العالية أو الجبال[١] .

ويظهر أن مملكة اليوروبا بلغت درجة عالية من الثراء والثقافة . فقد بلغت قوة ولاية « أويو » (Oyo) أوج عزها حول منتصف القرن الثامن عشر الميلادى ، وامتد نفوذها غربا إلى داهومى التى دفعت الجزية إلى ملك اليوروبا . وقد امتد نفوذ ملك اليوروبا عن طريق الحروب التى كانوا يشنونها فى فصل الجفاف عادة . وإذا لم يحرز القائد اليوروبى النصر جرد من ألقاب الشرف ، وتوقعوا منه أن يبادر إلى الانتحار حتى لا يُرى وجهه فى « أويو » . وقد أسس بعض القواد الذين لم يحرزوا النصر على الشعوب الخارجة عن نطاق نفوذ اليوروبا مستعمرات بين أهالى هذه الشعوب ، وآثر غيرهم من القواد المنتصرين أن يؤسسوا ولايات صغيرة بدلا من عودتهم إلى مناصبهم الأصلية وتبعيتهم لبلاط « أويو » . وقد دبت الغيرة إلى قلوب بعض الرعايا والحكام لاشتداد قبضة « الألافين » (الملك) وموظفى « أويو » الذين نعموا بالثروات التى تدفقت على الحاضرة من الأعمال التجارية والحربية التى اشتركوا فيها . وفى مستهل القرن التاسع عشر أخذ حكام الولايات يتحدّون سلطة الملك ويعلنون استقلالهم ، على حين رفضت الولايات التى كانت تؤدى الجزية الاعتراف بسلطان هذا الملك . ولذلك أصبح أهالى الأجزاء العليا لدولته ، وولاية « إيلورين » بوجه خاص ، من رعايا أمراء

Burns, p. 21. (١)

الفُلانى فى شمالى نيجيريا ، ودخل حكام الجنوب فى سلسلة من الحروب الطاحنة استمرت نحواً من قرن مما أثر فى قوة اليوروبا تأثيراً سيئاً ، وتعرضت ثغور لاغوس[1] ، وباداجرى ، وأزدرا (بسكون الراء الأولى) وهى پورتو نوفو (أى الميناء الحديثة) لغارات الأوربيين طلباً للرقيق .

ولم تلبث هذه البلاد أن دخلت تحت الحكم البريطانى وتحت تأثير البعوث المسيحية . ففى سنة ٨٨٨ م خشى البريطانيون تدخل الفرنسيين فى شئون بلاد اليوروبا وغيرها من البلاد المجاورة ، فحثوا ملك « أويو » أو « الألافين » أن يبرم معهم معاهدة تقضى بدخول بلاده تحت الحماية البريطانية . وفى سنة ١٨٩٥ أثار ملك « أويو » المتاعب فى وجه البريطانيين بعد أن شعر بضياع نفوذه بازدياد قوة البريطانيين الذين أرسلوا إليه حملة حربية اضطرته إلى التسليم . وفى هذه السنة نفسها أصبحت جميع محميات اليوروبا تحت إشراف حاكم لاغوس ، ولم يعد يقف فى طريق تقدم التجارة البريطانية فى نيجيريا إلا عداء أمير « إيلورين »[2] .

وفى القرن العشرين استطاع مسلمو الحوصا الذين يدين بعضهم بعقائد الطريقة التِّجانية أن ينفذوا إلى القبائل الوثنية فى نيجيريا الجنوبية حيث نشروا الإسلام فى مملكة اليوروبا . وكانت غالبية المسلمين فى الفترة التى سبقت الاحتلال البريطانى تقيم فى مدن كبيرة تكتنفها الأسوار ، ولكنهم أصبحوا الآن بحيث يستطيعون الاستقرار فى القرى على مقربة من أعمالهم الزراعية . وبذلك أخذ نفوذ الإسلام يزداد فى هذه البلاد ، وفى مملكة « إيجيبو » (Ijebu) فى نيجيريا الجنوبية لم يدخل الإسلام إلا فى سنة ١٨٩٣ ، حين شاهد أحد الرحالة بلدة بها عشرون مسجداً وأخرى بها اثنا عشر مسجداً . وقد انتشر

---

(١) يقول « فيدج » إن مدينة لاغوس أصبحت فيما بعد أقوى ولايات اليوروبا نفوذا .

(٢) Fage, pp. 160—161.

الإسلام حديثاً بسرعة فى كل مكان على طول ضفتى النيجر الجنوبية بوجه خاص ، حتى لقد أصبح من النادر أن تجد قرية وثنية بأسفل إدّه (Eddah) ، وهى مدينة على نهر النيجر جنوبى الحدود الشمالية لنيجيريا الشمالية[١] .

ويشبه قيام وسقوط بينين (Benin) التى دخلت تحت حوزة « أويو » قيام وسقوط أويو نفسها . فقد بدأت هذه الأسرة تؤسس نفوذها عن طريق الفتوح والغارات التى كانت تشنها طلبا للرقيق . ثم استقلت بينين عن سلطان ملك اليوروبا ، ولكنها واصلت اعترافها بنفوذ إيفى (Efe) الروحى والثقافى . ومنذ النصف الثانى من القرن الخامس عشر أصبحت بينين مركزاً هاما ، كما أصبحت الطريق التجارى الرئيسى بين بلاد اليوروبا والأوروبيين . وكانت صادراتها الرئيسية : القماش الأزرق اللون المنسوج من القطن والرقيق ، والفلفل ، والخرز المصنوع من المرجان الذى كان شائع الاستعمال على ساحل الذهب . أما الرقيق فقد انتشرت أسواقه فى ساحل الذهب أولا ، ثم فى الجزائر البرتغالية فى خليج غينا ، وأخيراً فى أمريكا[٢] .

مملكة بُرْنو شرقى نيجيريا

تقع بلاد برنو إلى الشرق من بلاد الحوصا ، وقد قامت فيها إمبراطورية عظيمة بسطت نفوذها على الصحراء الكبرى وعلى جزء من السودان . وأهم قبائل برنو قبيلة « كانورى » ، ويبلغ تعداد سكانها ١ر٥٠٠ر٠٠٠ وهى خليط من الدماء العربية والحامية والزنجية استقرت فى بلاد برنو منذ قرون طويلة . وكانت « برنو » إحدى مقاطعات إمبراطورية « الكانم » .

---

(١) سير توماس أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ، ترجمة ص ٢٧٥ — ٢٧٦ .

(٢) Fage, pp. 88—92.

وفى سنة ١٨٤٩ م ظهرت مملكة برنو على خريطة برتغالية على أنها مملكة كبيرة . وفى القرن السادس عشر استطاعت أن تقف فى وجه دولة كِبِّى بكسر الكاف والباء المشددة (Kebbi) التى استقلت عن مملكة « صُنْغاى » . وكان جيش برنو فى ذلك الوقت مسلحاً بالبنادق التركية ، وإلى هذا السلاح يعزى تفوق برنو واتساع رقعتها الذى بلغ أقصى مداه . على أن هذه المملكة لم تلبث أن انحلت كما انحل غيرها من الإمبراطورية السودانية من قبل . وكانت مملكة برنو على هذا الحال من الضعف حين أعلن « عثمان دان فوديو » الجهاد على بلاد الحوصا ، وأخذت جيوشه فى سنة ١٨٠٨ م تغزو بلاد برنو على الرغم من أنها كانت قد تحولت إلى الإسلام ، ولما حلت الهزيمة بجيش برنو فر ملكها وأخذت بلاده فى الضعف ، إلى أن قيض الله لها رجلا يسمى محمد الكانمى الذى ولد فى مدينة فزان من أب عربى وأم كانمية .

وقد أعلن محمد الكانمى الجهاد على هؤلاء الفاتحين وانضمت إليه طائفة من أتباعه المتحمسين ، وهزم الفلانيين فى موقعة فاصلة ، وأنقذ بلاد برنو ، وانضوى الناس تحت لوائه ورفض العرش الذى عرض عليه ، وأعاد الملك القديم إلى عرشه ، وظل هو يشتغل بالعلم ، وإن كان فى الواقع السيد المطاع فى البلاد . وقد أصبحت « كوكا » التى بناها فى سنة ١٨١٤ الحاضرة الحقيقية للبلاد . وقد زار محمد الكانمى اثنان من الرحالة الإنجليز هما : دنهام (Denham) وكلابرتون (Clapperton) بين سنتى ١٨٢٢ ، ١٨٢٤ ، وقد وصفا أحوال هذه البلاد فى عهده وصفا دقيقا .

ثم أخذت مملكة برنو فى الضعف من جديد ، ودخل الجيش المصرى بقيادة « العبد رابح » مولى الزبير باشا بلاد « برنو » التى ظلت تابعة لمصر حتى قامت ثورة المهدى ، فحلت الهزيمة بجيش رابح ، ولكنه دخل بلاد برنو

مرة أخرى ، وظل يحكم هذه البلاد إلى سنة ١٩٠٠ حين دخل الفرنسيون السودان الغربى وهزموا رابح وقضوا على حكمه . وقد طبقت النظم الإسلامية فى بلاد برنو كما طبقت فى بلاد الحوصا من قبل ، وإن كانت قد استخدمت ضرائب جديدة مثل ضريبة « هاكو بينيرام » » أى ضريبة الدخل[١] .

مملكة الكانم ، شمال شرقى بحيرة شاد

كذلك تطرق النفوذ الإسلامى من مصر حتى دخل مملكة كانم أو الكانم (بفتح الكاف وكسر النون) ، وتقع إلى الشمال الشرقى لبحيرة شاد . وبعد أن اعتقد أهلها الإسلام فى القرن الحادى عشر ، أصبحت الكانم دولة ذات أهمية كبيرة ، و بسطت سلطانها على قبائل السودان الشرقى إلى حدود مصر و بلاد النوبة . ويقال إن أول ملوك كانم من المسلمين تولى الحكم حول نهاية القرن الحادى عشر أو فى النصف الأول من القرن الثانى عشر للميلادى[٢] . وقد ذكر أبو عبيد الله البكرى الجغرافى الأندلسى الذى عاش فى القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) أن مملكة كانم كانت فى عصره تمتد حتى نهر النيجر غربا ، وأنها كانت تضم جزءا من بلاد الحوصا . وقد استعان أهل كانم بالحفصيين فى تونس ، واستطاعوا أن يفتحوا الصحراء كلها فى نهاية القرن الثانى عشر الميلادى . وفى سنة ١٢٣٧ م ، زارت سفارة كانمية بلاد تونس . وقد تضاعفت قوة هذه البلاد فى مئة السنة التالية ، ولكن الضعف قد تطرق إليها قبل نهاية القرن الرابع عشر الميلادى بعد أن أغارت عليها قبائل « البولالا » ، ثم استعادت قوتها مرة أخرى ، و بسطت نفوذها غربا حتى بلغت بلاد الحوصا . وقد اضطر عمر بن إدريس ملك كانم إلى نقل قاعدة بلاده

---

(١) Burns, History of Nigeria. pp. 50 - 51.

(٢) سيرتوماس أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ، ترجمة ص ٢٧١ ،

إلى غربى بحيرة شاد وأقام فى بلاد برنو ، وقد أصبح اسم مملـكة كانم معروفا بها منذ ذلك الحين[١] .

ويتعامل أهل كانم بالقماش الذى ينسجونه فى بلادهم ويطلقون عليه اسم دَنْدِى ، ويبلغ طول الثوب منه عشرة أذرع أو أكثر . كما يتعاملون بالودع والخرز وقطع النحاس والورق على أساس تسعيرها بالقماش . وقد انتحل الـكانميون مذهب الإمام مالك ، فبنوا مدرسة للمالـكية اتخذوها مركزاً للثقافة الإسلامية . ويتلثم جندهم ، وهم لا يرون ملـكهم إلا فى يوم العيد ، ولا يكلمه أحد إلا من وراء حجاب[٢] .

إمارات موسِّى — داجُمْبا[٣]

ترجع الإمارات الخمس التى تقع اليوم بين نهر الفولتا (Volta) وانحناء النيجر إلى أصل مشترك ، ونقف على هذه الحقيقة من أخبار أهلها التى يتناقلونها على ألسنتهم . ويمكن أن يستخلص من هذه الأخبار أن حوض نهر الفولتا الأعلى كانت تقطنه جماعات زنجية مستقرة تتكلم لغة تسمى لغة الغور (Gur) ، وإن كان بعضها يتكلم لغة « الماندى » . وهذه الجماعات الزنجية قد تم الاستيلاء عليها فى القرن الثالث عشر أو الخامس عشر الميـلادى على يد طائفة من الفاتحين جاءت من الشمال الشرقى وأسست إمارات موسِّى — داجُمْبا . والرواية تسميهم بالرجال الحمر ، وتعنى بهم المولَّدين (بفتح اللام مع التشديد) ، وتقول إنهم جاءوا من منطقة بحيرة شاد عن طريق زامْفارا إحدى إمارات الحوصا السبع . ويبدو أن هؤلاء الغزاة كانوا يؤلفون فرعا من طبقة حاكمة تعايش قرب هذه

(١) سير توماس أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ، ترجمة ص ٢٧٢ .

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٥ ص ٢٨٠ — ٢٨١ .

(٣) موسى بكسر السين مع التشديد وداجمبا بضم الجيم وسكون الميم .

البحيرة ، وأن هذه الطبقة كانت تريد أن تفر من الغارات البربرية فى القرن العاشر الميلادى ، وتمخضت عن قيام إمارات الحوصا . ويبدو أن هؤلاء اللاجئين لم يجاوزوا زامفارا . ولـكن نفوذ الحوصا سرعان ما انتشر فى زامفارا ، ولم يطق اللاجئون على ذلك صبرا ، وإن كانوا قد تعلموا الـكثير من نظمهم وعاداتهم وتقاليدهم ، فاقتنوا الخيل وجندوا طائفة من الفرسان . إلا أنهم اضطروا إلى الهجرة نحو الجنوب الغربى ؛ فعبروا نهر النيجر ونزلوا فى بلاد الغور .

ولم يكن للغور عهد بركوب الخيل ، فلم يستطيعوا مقاومة الغزاة الذين مضوا فى تقدمهم غرباً حتى وصلوا إلى الحدود الشرقية للشعوب التى تتكلم بلغة الماندى . وقد أصهر هؤلاء الغزاة إلى المتكلمين بلغة الماندى ، وعاملوا الغور كما يعامل الرقيق ، وكانوا يتجرون فيهم مع بلاد المغرب . ولـكن الغور كان أكثر عدداً واستطاعوا مع الزمن أن يؤثروا فى الفاتحين الذين أخذوا عنهم لغتهم ودينهم .

وكانت أول إمارة أسسها الغزاة تقع إلى الشمال من مدينـة مامبروسى (Mamprussi) الحالية ، وهى أولى هذه الإمارات . وفى القرنين الرابع عشر والخامس عشر استطاعت طائفة من الخيالة أن تمعن فى تقدمها صوب الشمال فتهاجم المدن التجارية الواقعة على نهر النيجر وتتخطاها . وتدل الأخبار أن بلاد مَسِّينا (بفتح الميم وكسر السين مع التشديد) الغنية قد اجتيحت ، وأن مدينة تمبكتو قد نهبت فى سنة ١٣٣٨ م . ثم قامت طائفة أخرى بغارة ثانية على شعب « البنـكا » سنة ١٤٣٣ ، على أن هذه الغارة لم يكتب لها النجاح . وقد تلتها غارة أخرى (١٤٧٧ — ١٤٨٣ م) ، فحال ملك صُنْغاى دون تقدمهم صوب الشمال ، واستطاع هؤلاء القوم أن ينظموا من الشعوب التى فتحوا بلادها ثلاث إمارات كبرى ، كما أخذوا يوسعون رقعتها نحو الجنوب والجنوب الغربى . فقامت إمارة داُجْمبا .

وبهذه الطريقة استطاعت إمارات موسّى — داجُمْبا أن تحتل منطقة الحشائش (Savanna) الواسعة الواقعة بين منطقة الغابات ومنحنى نهر النيجر . وقد أفاد أهل هذه الإمارات من تجارة الرقيق ونبات الكولا والذهب . ولكن أمراء صُنْغاى ظلوا حتى القرن السابع عشر يحولون بينهم وبين الاستيلاء على هذه الأسواق . وعلى الرغم من ضغط صُنْغاى فى الشمال والأشنتى فى الجنوب ، استطاعت هذه الإمارات أن تعيش طويلا ، وكانت من أكثر الإمارات استقراراً وأطولها بقاء . ولما جاء الأوربيون فى نهاية القرن التاسع عشر وجدوا هذه الإمارات على حالها ، فوجدوا سلسلة الملوك قد تعاقبت عليها منذ خمسمائة سنة . ويرجع ذلك إلى أن هؤلاء الحكام قد نجحوا فى فرض عبادة الأجداد الذين أصبح الناس يقدسونهم . إلا أن طائفة من الشعوب الأصلية قد أفلحت فى أن تحتفظ بدمها القديم ، لأنها فرت من الغزاة ، ولجأت إلى منطقة صخرية كثيرة الغياض[١] .

مملكة البَمْبارا[٢] — فى سيجو وكاآرتا

وننتقل الآن إلى الكلام على مملكة البمبارا فنقول إن نابليون الثالث بعد أن اعتلى عرش فرنسا سنة ١٨٤٨ ، أعلنت حكومته عن رغبتها فى اتباع سياسة التوسع فى تجارة السنغال ونشر النفوذ الفرنسى على طول النهر إلى داخل البلاد . وفى أوائل القرن التاسع عشر كان الجزء الغربى من السودان إلى الغرب من مملكة الحوصا ينقسم إلى أربع إمارات هى من الغرب إلى الشرق : إمارة فوتاجالون (أو التكرور) ، إمارة كاآرتا ، إمارة سيجو ، إمارة مَسِّينا . وكانت إمارتا سيجو وكاآرتا أقوى هذه الإمارات ، وكانت الإمارة الأولى

(١) Fage, pp. 36—38.

(٢) بفتح الباء وسكون الميم .

فى وادى النيجر ووادى بانى جنوبى مدينة كانجابا غرباً حتى تمبكتو شرقا . وقد امتدت أطرافها شمالا حتى الصحراء . أما الإمارة الثانية ، وهى كاآرتا ، فقد كانت تحدق بإمارة سيجو من ناحية الغرب وتحتل البلاد الواقعة بين الصحراء وحوض السنغال الأعلى .

والشعب الغالب على هاتين الإمارتين هو شعب البمبارا ، وهم يتكلمون بلغة الماندى . وقد أوغلوا شرقا فى حوض النيجر وحوض بانى منذ القرن الثالث عشر الميلادى تقريباً . وكانوا فى الأصل ينتمون إلى إمبراطورية مالى . ولكن بعد أن هزم ملوكها على أيدى « الأسكياس » ، بدأت إمارة صغيرة من شعب البمبارا تظهر فى منطقة سيجو واستطاعت فى القرن السابع عشر أن تستقل عن مملكة مالى وعن إمارة تمبكتو المغربية التى كان يحكمها باشوات مراكش . وبين سنتى ١٦٦٠ — ١٧١٠ م أصبحت هذه الإمارة الصغيرة فى عهد أحد ملوكها دولة كبيرة منظمة غاية التنظيم ، تدفع لها مدينة تمبكتو الجزية . وقد رفض قسم من شعب البمبارا أن يعترف بهذا الملك وترك بلاده وهاجر صوب الشمال الغربى وأسس مملكة كاآرتا . وقد تنافست هاتان المملكتان وقامت بينهما حروب طوال القرن الثامن عشر ، ولكن الغلبة كانت لمملكة سيجو التى دفعت منافستها كاآرتا تدريجياً صوب الغرب .

ومنذ القرن الرابع عشر الميلادى استقرت طائفة من رعاة الفلانى بين الزنوج المشتغلين بالزراعة فى منطقة مسينا ، وكانوا يتكلمون بلغة الماندى . وتحتل بلاد مسينا هذه الجزيرة الخصبة الواسعة التى ترويها مياه النيجر ورافده بانى جنوبى مدينة جِنِّى (بكسر الجيم والنون مع التشديد) . وقد ظل وضع هؤلاء الفلانى فى هذه البلاد شاذاً حتى القرن التاسع عشر ، فقد كانوا يعيشون بعيدين عن الماندنجو : لهم زعماؤهم الذين يتولون أمرهم . ويسمون

« ديالُّو » (بضم اللام مع التشديد) (Diailo) . ولكن هؤلاء الزعماء لم يكونوا مستقلين إذ كانوا يعترفون بسلطان ملوك مالى ، ثم بباشوات تمبكتو ، ثم بملوك البمبارا فى سيجو .

وكان هؤلاء الفلانيون وزعماؤهم وسادتهم من البمبارا وثنيين ، إلا أن كثيرين منهم بدءوا فى العقد الأول من القرن التاسع عشر يدخلون فى الإسلام ، وذلك بتأثير أحمد لو بو . وهو من أصل فلانى ، ولد فى مسينا ، واشترك فى جيش عثمان دان فوديو فى فتح بلاد الحوصا . ومن ثم قامت حركة دينية انتشر أثرها حتى هددت سلطان زعيم « ديالّو » . وقد استنجد هؤلاء الفلانيون بملوك البمبارا فى سيجو للقضاء على المسلمين . غير أن المسلمين قضوا عليهم وهزموا جيش سيجو ، واستطاعوا حول سنة ١٨١٠ م أن يؤسسوا مملكة إسلامية حكمت بلاد مسينا كلها .

أما مملكة فوتا ، إلى الجنوب من حوض السنغال الأدنى ، فهى حفيدة مملكة التكرور القديمة التى تخطى نفوذها قبل غزوات البربر حوض السنغال ، فبلغ بلاد موريتانيا التى تكوّن الجزء الجنوبى من بلاد المغرب . وتاريخ هذه البلاد غريب الأطوار . فقد كان يحكمها بعض المهاجرين البيض من غانة أحياناً ، ويحكمها بعض المهاجرين من « كانياجا » أحياناً أخرى ، وأحياناً يحكمها الولوف ثم الفلانى . وكانت فوتا الموطن الأصلى لشعب الفلانى ، ومنها خرجوا وانتشروا صوب الشرق إلى بلاد الحوصا . وكان سكانها الأصليون — كما ذكرنا — من شعب التوكولور ، وهم بقايا المرابطين ، ويمتون بصلة القرابة إلى « الولوف » و « السيرير » وقد تأثروا بموجات الهجرة المتعاقبة وبالولاة الذين حكموهم ، وانتهى بهم الأمر إلى أن تعلموا لغة الفلانى . ولكنهم كانوا يختلفون عن الفلانى ، فقد أسلموا منذ عهد بعيد وأسهموا

منذ البداية فى حركة المرابطين التى بدأت عند مصب السنغال . وفى القرن الخامس عشر الميلادى كونوا أسرة تولت الحكم وطبقت مذاهب السنة المتشددة .

الحاج عمر — عُمر وكبا

وفى سنة ١٨٣٨ م ظهر من بين أفراد البيت الحاكم فى « فوتا » رجل قام بدور خطير فى تاريخ السودان الغربى ، وهو الحاج عمر الذى قام بحركة وحدت السودان من بلاد فوتا إلى تمبكتو تحت سلطانه . وقد ترك هذه البلاد بين سنتى ١٨٢٠ و ١٨٣٨ لحج بيت الله فى مكة ، حيث اعتنق مذهب التجانية وبويع بزعامة هذا المذهب فى غربى السودان . وقد زار مكة كما زار مصر وبلاد برنو وسكتو . وكانت تربطه بأمراء هذه البلاد صلات المودة والإخاء ، وتأثر بما وجده فيها من نظم طبقها فى فتوحه . ولما عاد الحاج عمر من الحج استقر فى « فوتا جالون » حيث أسس رباطاً للعبادة أصبح مركزاً للثقافة الإسلامية والنشاط التجارى ، وانضوى تحت لوائه نفر آمنوا برسالته ووهبوا أنفسهم للإسلام وتسلحوا بالأسلحة الحديثة التى اشتروها من التجار الأوربيين . وفى سنة ١٨٤٨ م كانت قوة الحاج عمر قد نمت نمواً أزعج المسلمين فى إمارة فوتا ، واضطر إلى المسير صوب دينجوريه (Dinguiray) ، وأعلن الجهاد على الإمارات الوثنية فى بلاد السودان .

وقد استهل الحاج عمر هذا الجهاد بغزو بلاد كآرتا التى دانت له بالطاعة فى سنة ١٨٥٤ م . ثم عمل على التعاون مع ولاية مسينا لمهاجمة إمارة سيجو . ولكن ملك مسينا رفض أن يجيبه إلى طلبه ، فاتجه الحاج عمر صوب الغرب وأغار على مدينة « خَسُّو » (بفتح الخاء والسين مع التشديد) ، ثم على جَلَم (بفتح الجيم واللام) ، وهى إمارة قامت فى حوض السنغال الأوسط . غير أن نشاط الفرنسيين فى هذه الجهات بين سنتى ١٨٥٧ و ١٨٥٩ أوقف تقدم الحاج عمر

فى هذه البلاد ، فاتجه نحو الشرق ، ففتح مملكتى سيجو (١٨٦١) ، ومسينا (١٨٦٢) ، ثم استولت قواته على تُمبكتو (١٨٦٣) .

ولم تكن إمارة البمبارا فى كآرتا هى الإمارة الوحيدة التى قاومت هذا الفاتح ووقفت فى سبيله ، وانتهى أمرها بالهزيمة . وكان هم الحاج عمر كله منصرفا إلى نشر الإسلام ، وإن كان بعض أتباعه قد طمعوا فى الغنيمة . غير أن الأطماع الدينية والدنيوية قد أثارت بعض الشعوب فى وجه هذا الفاتح . فقد ثارت إمارة البمبارا فى سيجو و إمارة الفلانى فى مسينا ، وانتهى الأمر بمقتله سنة ١٨٦٤ م . وقد بدت مملكة الحاج عمر بعد موته على وشك الزوال ؛ فقد ولى أولاده و بنى أخيه الولايات ، وقامت الثورات فى وجههم ، كما فرق التنافس بينهم ؛ غير أن ابنه أحمدو (من بنت سلطان سُكُتو) ادعى الزعامة على منافسيه ، وقامت حروب كثيرة أساءت إلى السكان ونشرت الخراب فى ولايات كثيرة ، وأصبح أحمدو مكروها من الرعية ، فى الوقت الذى بدأ فيه الفرنسيون يتقدمون إلى بلاده ، وانتهى الأمر بهزيمته ووفاته سنة ١٨٩٨ .

وكانت إمبراطورية «التوكولور» التى أسسها الحاج عمر آخر الإمبراطوريات الكبرى فى السودان الغربى التى أسستها طائفة من الغزاة المغامرين المسلحين . و بعد هزيمة أحمدو ، وجد الفرنسيون الطريق أمامهم ممهدا لاحتلال البلاد التى كانت تدين بالطاعة للحاج عمر ، وانتهى الأمر بنشر النفوذ الفرنسى فى هذه البلاد سنه ١٨٩٨ م . ولم يقف أمام الفرنسيين غير سَمُورِى (بفتح السين وضم الميم) ملك الماندنجو الذى قاوم التقدم الفرنسى زهاء ست عشرة سنة (١٨٨٢ — ١٨٩٨ م)[1] .

وفى أوائل القرن العشرين حاول أحد المرابطين ويدعى عُمَرُو (بضم العين وفتح الميم وضم الراء) كبا (بفتح الكاف) (Umaru Kapa) أن يحول

---

(١) Fage, History of West Africa, pp. 144 — 149.

البمبارا إلى الإسلام ، فأخفق فى محاولته . وقد أسس عمرو جمعية إخوان دينية جديدة كانت على صلة بالقادرية . فلما أخفق فى جذب أبناء دينه وجه اهتمامه إلى البمبارا الوثنيين ، وحاول أن يحولهم إلى الإسلام ويضمهم إلى جماعته . ويظهر أن عمرو كان فى طريقه إلى النجاح . وكان قد حول إلى الإسلام من قبل قرية وثنية فى ولاية سنسَنْدنج (Sansanding) ، حين طرد رئيس الولاية هذا الداعى إلى خارج حدود ولايته ، وأمر الذين دخلوا حديثاً فى الإسلام من البمبارا أن يرجعوا إلى عقائدهم الدينية القديمة[1] .

وحيثما كان التزاوج بين أمثال هذه الأجناس و بين غيرهم كالعرب والبربر الذين أكثروا من هذا التزاوج ، كان اندماجها فى المسلمين يسير سيرا منتظما . أضف إلى ذلك ما كان هنالك من نشاط ملحوظ فى الدعوة قامت به قبائل الفلانى والحوصا والماندنجو التى امتازت بحماستها فى سبيل دينها ، مما ساعد على نمو المجتمع الإسلامى لولا تلك الحروب الطاحنة التى جعلت كل دويلة إسلامية تقضى على الأخرى . وقد أدى ذلك إلى قيام قبيلة مالىّ على أنقاض غانة فى القرن الثالث عشر الميلادى ، وتحطيم صُنغاى لغانة فى أوائل القرن السادس عشر ، وتخريب صنغاى بعد ذلك بقرن على أيدى العرب . وقد دالت هذه الدول الإسلامية بسبب المذابح الكثيرة التى تميزت بها الحروب فى السودان ، واستردت الوثنية كثيراً من مكانتها التى كانت قد فقدتها . وكما كانت الحال فى المسيحية كذلك كانت فى العالم الإسلامى ، إذ كانت هناك فترات تدهورت فيها الحماسة فى الدعوة ، ورضى المسلمون فى بعض أجزاء السودان أن يتركوا الوثنية التى كانت تحيط بهم دون أن يمتد إليها أى نشاط فى نشر تعاليم الإسلام[2] .

(١) Delafosse. Les Confréries musulmanes et Le maraboutisme dans les pays du Sénégal et du Niger No. 4, Paris, 1911.

(٢) سير توماس أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ، ترجمة ص ٢٧٢ .

الباب الرابع

الدول الإسلامية

في شرق القارة الإفريقية

مملكة النوبة ودنقلة

ذكرنا فى الباب الأول عند كلامنا على الطرق التى سلكها الإسلام إلى إفريقية ، أن نهر النيل كان الطريق التجارى للعرب منذ عصور بعيدة على الرغم من وقوف مملكة النوبة المسيحية فى طريقهم فاتحين أو مهاجرين ، كما ذكرنا أن العرب قد حاولوا بعد فتح مصر فتح بلاد النوبة فى عهد خلافة عمر ابن الخطاب ، ولكنهم لم يتمكنوا من فتحها ، وعقدوا مع أهلها صلحاً كان أشبه بمعاهدة اقتصادية . وكان هذا أول اتصال رسمى بين العرب وشمالى السودان . غير أن أهل النوبة لم يحافظوا على الصلح ، ونقضوا ما كان بينهم وبين المسلمين من عهد ، فسارت جيوش النوبيين إلى صعيد مصر ، فخربوا وأفسدوا ، فغزاهم والى مصر عبد الله بن سعد بن أبى سرح سنة ٣١ هـ ، وتغلب عليهم ، وخرب دنقلة ، وكانت - كما يقول المسعودى[1] : « دار مملكة النوبة ، بينها وبين أسوان أربعون يوما » . ولم ير ملك النوبة بدا من طلب الصلح ، وكُتب بين المسلمين عهد يقوم على التسامح الدينى وحسن الجوار[2] وكان هذا الصلح عبارة عن هدنة أو معاهدة عدم اعتداء ، تقوم على تبادل المنافع الاقتصادية بين البلدين : فمصر تمد النوبة بالحبوب والثياب والخيل ، والنوبة

---

(١) مروج الذهب جـ ٢ ص ٢٥٩ .

(٢) المقريزى : خطط جـ ١ ص ٢٠٠ .

تمد مصر بالماشية والرقيق الذى كان يستخدم فى فلاحة الأرض لينصرف المسلمون للجهاد . ومما جاء فى هذا العهد بعد البسملة :

« عهد من الأمير عبد الله بن سعد بن أبى سرح ، لعظيم النوبة ولجميع أهل مملكته ، عهد عقده على الكبير والصغير من النوبة ، من حد أرض أسوان إلى حد أرض علوة ، أن عبد الله بن سعد جعل لهم أماناً وهدنة جارية بينهم وبين المسلمين ممن جاورهم من أهل صعيد مصر وغيرهم من المسلمين وأهل الذمة ، أنكم معاشر النوبة آمنون بأمان الله ، وأمان رسوله محمد صلى الله عليه وسلم ، أن لا نحاربكم ولا ننصب لكم حربا ولا نغزوكم ما أقمتم على الشرائط التى بيننا وبينكم ، على أن تدخلوا بلدنا مجتازين غير مقيمين فيه ، وندخل بلدكم مجتازين غير مقيمين فيه . وعليكم حفظ من نزل بلدكم أو يطرقه من مسلم أو معاهد ، حتى يخرج عنكم . وأن عليكم رد كل آبق خرج إليكم من عبيد المسلمين ، حتى تردوه إلى أرض الإسلام ، ولا تستولُوا عليه ، ولا تمنعوا منه ، ولا تتعرضوا لمسلم قصده وجاوره ، إلى أن ينصرف عنكم . وعليكم حفظ المسجد الذى ابتناه المسلمون بفناء مدينتكم ، ولا تمنعوا منه مصلياً . وعليكم كنسه وإسراجه وتكرمته . وعليكم فى كل سنة ثلاث مئة وستون رأساً ، تدفعونها إلى إمام المسلمين ، من أوسط رقيق بلادكم غير المَعِيب ، يكون فيها ذكران وإناث ، ليس فيها شيخ هرم ، ولا عجوز ، ولا طفل لم يبلغ الحلم ، تدفعون ذلك إلى والى أسوان . وليس على مسلم دفع عدو عرض لكم ، ولا منعه عنكم ، من حد علوة إلى أرض أسوان . فإن أنتم آويتم عَبداً لمسلم ، أو قتلتم مسلماً أو معاهداً ، أو تعرضتم للمسجد الذى ابتناه المسلمون بفناء مدينتكم ، أو منعتم شيئاً من الثلاث مئة رأس والستين رأساً ، فقد برئت منكم هذه الهدنة والأمان ، وعدنا نحن وأنتم على سواء ، حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين . علينا بذلك عهد الله وميثاقه وذمته ،

وذمة رسوله محمد صلى الله عليه وسلم ، ولنا عليكم بذلك أعظم ما تدينون به من ذمة المسيح ، وذمة الحواريين ، وذمة من تعظمونه من أهل دينكم وملتكم ، الله الشاهد بيننا وبينكم على ذلك . كتبه عمرو بن شُرَحْبيل سنة إحدى وثلاثين[1] » .

وإن الناظر إلى هذا العهد ليقف على سياسة المسلمين بإزاء النوبيين ، وكيف خيرهم المسلمون بين الإسلام والبقاء على دينهم ، وأعطوهم العهود والمواثيق على ألا يتعرضوا لهم « إلا إذا آذَوا مسلماً أو ذمياً ، أو تعرضوا للمسجد الذى بناه المسلمون فى دنقلة بسوء ، أو اعتدوا على المسلمين أو أغاروا على أرض مصر ، أو عدلوا عن إرسال ما تعهدوا بإرساله من الرقيق . كما يقضى هذا العهد بأن يتعهد النوبيون المسجد الذى بناه المسلمون بالكنس والإضاءة ، وأن يولوه ما هو خليق بدور العبادة من احترام ، وألا يحولوا دون إقامة المسلمين الصلاة فيه ، مما يدل على اهتمام المسلمين بإقامة الشعائر الإسلامية فى السودان . وكانت الكنيسة النوبية إذ ذاك تعترف بسيادة بَطْرق الإسكندرية اليعقوبى عليها ، ولما تسرب الانحلال إلى الكنيسة المصرية تسرب بدوره إلى الكنيسة النوبية .

يقول المقريزى[2] : « تجمع لعبد الله بن سعد بن أبى سرح فى انصرافه من النوبة على شاطىء النيل ، البُجَة (أو البُجاة) ، فسأل عن شأنهم ، فأخبر أن ليس لهم ملك يرجعون إليه ، فهان عليه أمرهم ، فنفذ وتركهم ، فلم يكن لهم عقد ولا صلح . وكان أول من هادنهم عبيد الله بن الحَبْحَاب (بفتح الحاء وسكون الباء) السَّلولى » ، فى أواخر القرن الأول الهجرى . وكان

(١) المقريزى : ج ١ ص ٢٠٠ .

(٢) خطط (ج ١ ص ١٩٥) نقلا عن ابن عبد الحكم .

البجة يقيمون على مقربة من عيذاب على البحر الأحمر ، كما انتشروا فى بلاد النوبة وغيرها ، ولا سيا بين النيل النوبى والبحر الأحمر فى الأراضى الممتدة بين دنقلة وأسوان تقريباً .

وبهذا يكون العرب قد اتصلوا بالنوبة والبجة اتصال تعاهد ومرور وانتقال ، وأن بلاد السودان قد عرفت اللاجئين السياسيين من العرب كبنى أمية الذين فروا من وجه العباسيين إلى بلاد النوبة أو إلى شرق السودان واستقروا فى أرض الجزيرة . ويبدو أن العرب اتصلوا اتصالاً وثيقاً بالبجة فى القرن الثامن الميلادى عن طريق البحر الأحمر وعن طريق وادى النيل ، وخاصة من إقليم أسوان ، فرحلوا إليهم تجاراً واجتازوا من مصر إلى بلادهم حاجين ، وهاجروا إلى مفاوز الذهب والزمرد منقبين ومستخرجين . ويظهر أيضاً أن جماعة من العرب المسلمين كانوا أول من استقر هناك وبنوا مساجد لهم . فهذه كلها ملابسات ومناسبات مهدت أول الأمر للعرب سبيل الاختلاط بالبجة فى شرق السودان ، وكانت من العوامل التى ساعدت على تعريب هذه المنطقة .

غير أن البجة لم يحافظوا على العهد الذى قطعوه على أنفسهم مع عبيد الله ابن الحبحاب ، فكثرت غاراتهم على جهات أسوان ، واشتد إيذاؤهم للمسلمين فيها ، فرفع أمرهم إلى الخليفة المأمون العباسى (٢١٦ / ٨٣١) ، فكانت له معهم وقائع انتهت بموادعتهم وإبرام عهد جديد بينه وبين كَنُّون (بفتح الكاف وضم النون مع التشديد) بن عبد العزيز زعيم البجة . ومن أهم شروط هذا العهد التى تبين لنا مدى اتصال العرب بمنطقة شرق السودان :

١ — أن تكون بلاد البجة من حدود أسوان إلى حد ما بين دَهْلَك (بفتح الدال واللام وسكون الهاء) وباضع ملكا للخليفة ، وأن يكون البجة

ورئيسهم عبيداً له ، على أن يكون كنّون ملكا على البجة . وهذه أول مرة تكون فيها منطقة السودان ملكا للخليفة ، فقد كانت المناطق المعروفة للعرب يومئذ مستقلة قائمة بذاتها يربطها عهد بأمير المؤمنين أو بولاته .

٢ — أن يؤدى ملك البجة الخراج أو « البَقْط[1] » (بفتح الباء وسكون القاف) كل عام على ما كان عليه أسلافه مائة من الإبل أو ثلثمائة دينار .

٣ — أن يحترم البجة الإسلام وألا يذكروه بسوء ولا يعينوا أحداً على أهل الإسلام .

٤ — ألا يمنعوا أحداً من المسلمين الدخول فى بلادهم والتجارة فيها براً وبحراً .

٥ — ألا يمنعوا أحداً من المسلمين تاجراً أو مقيماً مجتازاً أو حاجاً ، فهو آمن حتى ينزح من بلادهم . وهذا الشرط يدل على أن العرب المسلمين كانوا يذهبون إلى شرقى السودان للتجارة أو للإقامة أو المرور ، أو للحج ، وهى فى مجموعها مما تدعو إلى الاستقرار أو البقاء فى تلك المنطقة .

---

(١) قال المقريزى (خطط جـ ١ ص ١٩٩ — ٢٠٠) : « البقط مايقبض من سبى النوبة فى كل عام ضريبة عليهم فإن كانت هذه الكلمة عربية فهى إما من قولهم فى الأرض بقط من بقل وعشب أى نبذة من مرعى ، فيكون معناه على هذا نبذة من المال ، أو يكون من قولهم إن فى بنى تميم بقطاً من ربيعة أى فرقة أو قطعة ، فيكون معناه على هذا فرقة من المال أو قطعة منه . ومنه بقط الأرض فرقة منها ، وبقط الشىء فرقة : والبقط أن تعطى الجنة على الثلث أو الربع ، والبقط أيضاً ماسقط من التمر إذا قطع ... فيكون معناه على هذا بعض مافى أيدى النوبة. وكان يؤخذ منهم وقرية يقال لها القصر ، مسافتها من أسوان خمسة أميال ... وأول ماتقرر هذا البقط على النوبة فى إمارة عمرو بن العاص » . ولعل معنى بقط عهد (Pact) . وقد أورد المقريزى (خطط جـ١ ص ٢٠١) ما كان يدفعه أهل النوبة للمسلمين ، وهى ٣٦٠ رأساً من الغنم ، لبيت المال ، ولوالى مصر أربعون رأساً ، ويدفع المسلمون ألف إردب من القمح وثلاث مئة إردب أخرى لرسل ملك النوبة ، وكذلك من الشعير ، عدا فرسين ومائة ثوب وأربعة أثواب من القباطى عدا أنواع أخرى من الأثواب » .

٦ — إذا نزل البجة صعيد مصر مجتازين أو تجاراً فلا يظهرون سلاحاً ولا يدخلون المدن والقرى بحال[1] .

وتدل هذه الشروط على أن العرب المسلمين كانوا يترددون على شرق السودان تجـاراً ومقيمين ومجتازين وحجاجاً ، وأن من البجة من أسلم ، وأن للمسلمين بها مساجد معمورة فى أكثر من بلد ، وأن عمال الخليفة كانوا يغشونها لقبض الجزية . فهذه المنطقة إذن أسبق مناطق السودان إلى الدخول تحت لواء الإسلام ، وأهلها أول من أسلم ودخل فى هذا الدين قبل أن يسلم أهل شمالى السودان .

وكان هناك اتصال بين ملك النوبة والخليفة العباسى المعتصم (٢١٨-٢٢٧هـ) بسبب العهد الذى أبرم بين النوبة والمسلمين . فقد أرسلت السفراء ليجددوا هذا العهـد ، وزار ملك النوبة قاعدة مصر حيث قوبل بمظاهر الاحترام والتكريم وعاد إلى بلاده يحمل الهدايا . وفى عهد الخليفة المتوكل نقض البجة هذا العهد ، وامتنعوا عن أداء الجزية التى كانت مقررة عليهم ، وتعرضوا لمن كان فى مناجم الذهب من العمال والحفارين ، وامتدت غاراتهم على أعالى الصعيد ، ونهبوا بعض المدن المصرية كإسنا وأسوان . ولما علم الخليفة بذلك ، شاور كبار رجال دولته ، فذكروا له أن أهالى هذه البلاد يقيمون فى مناطق وعرة بعيدة عن العمران ، وأن الوصول إليها شاق مرهق ، كما بينوا له أن بين هذه البلاد وبين البلاد الإسلامية (أى وادى النيل من الناحية الشرقية حيث إقليم أسوان) مسيرة شهر فى أراض مقفرة وجبـال وعرة ، وبرارى موحشة ومفاوز معطشة ، وطرق يتعذر فيها الحصول على المـاء . وأضافوا أن هذه الحملة تستغرق وقتاً لا يقل عن شهر يتزود فيه الجيش بما

(١) المقريزى : (خطط جـ ١ ص ١٩٥ — ١٩٦).

يحتاج إليه من الماء والأقوات والعلوفات ، وإلا تعرض جنده للهلاك ، وأخذهم البجة من كل جانب بمعونة أهل الحبشة الذين كثيراً ما مدوا إليهم يد المساعدة من قبل .

وقد أثارت هذه الأنباء مخاوف الخليفة . ولكن أحد قواده أظهر استعداده لمحاربة البجة ، وجهزت الحملة بما تحتاج إليه من أسلحة ومؤن . وسار الجيش عن طريق البحر الأحمر حتى وصل إلى عيذاب ، وسار هو وجيشه مقتحما البرارى الموحشة ، وأوغل فى بلاد البجة حتى جاوز مناجم الذهب وبلغ قلاع البجاة ، فخرج إليه ملكهم « على بابا » فى جيش أضخم بكثير من جيش القمى (القائد العباسى) ، وهم على إبل فره[1] تشبه المهارى[2] ، فتحاربوا أياما ، ولم يَصْدُقهم على بابا القتال لتطاول الأيام وتفنّى أزواد المسلمين . وعلوفاتهم ، فيأخذهم بغير حرب . فأقبلت المراكب التى فيها الأقوات فى البحر ، ففرق القمىّ مافيها على أصحابه ، فاتسعوا . فلما رأى على بابا ذلك قصدهم فاقتتلوا قتالا شديداً . وكانت إبلهم زَعْرة[3] تنفر من كل شىء . فلما رأى القُمى ذلك جمع كل جرس فى عسكره وجعلها فى أعناق خيله ، ثم حمل على البجة ، فنفرت إبلهم من أصوات الأجراس ، ومرت على الجبال والأودية . وتبعهم المسلمون وهم يقتلون ويأسرون عدداً كبيراً منهم حتى أدركهم الليل ، فرجعوا إلى معسكرهم ، ولم يقدر القمى على إحصاء القتلى لكثرتهم . فطلب على بابا الأمان ، فأمّنه القمى على أن يؤدى ماعليه ، فحمل إليه الخراج عن المدة التى منعها ، وهى أربع سنين ، وعاد إلى مصر ثم إلى بغداد ومعه على بابا . فلقى الخليفة فى مدينة سامرا حاضرة الدولة العباسية آنذاك ، فرحب به وخلع عليه وولاه حماية الطريق فى بلاده .

(١) الفاره : الضخم .

(٢) جمع مهرية : نسبة إلى مهرة .

(٣) تنفر من كل شىء .

فهذه المناسبة الحربية التى حملت المسلمين على محاربة البجة مكنتهم فى أرضهم وأقرّت حقوقهم وحملت البجـة على احترام العهد الذى قطعوه على أنفسهم . ومن الثـابت أن العرب وخاصة ربيعة وجُهَيْنة ، قد كثر عددهم فى أرض السودان واختلطوا بالبجة . وللبجة أثر كبير فى إقليم أسوان حتى وقتنا هذا ، فإن قبائل العبابدة والبشّارية والمليكاب والهيدندوه المنتشرين فى الأراضى الممتدة من أسوان إلى بلاد السودان ليسوا سوى قبائل البُجَة أو البُجَاة .

وكان تدفق العرب على مصر والسودان متمشياً مع الأحداث التاريخية فى البلاد العربية . فلما نجح أحمد بن طولون فى تأسيس الدولة الطولونية فى مصر سنة ٨٦٨ م (٢٥٤ هـ) ، كانت هذه الخطوة فاتحة عهد جديد فى تاريخ مصر ، فلم يعد يحكمها ولاة من العرب ، بل أصبح يحكمها ولاة من الترك المنافسين للعرب . فالعهد الجديد الذى يرجع إلى عهد الخليفة المعتصم العباسى ، ذلك العهد الذى أقصى العرب عن مكانتهم المرموقة ، أثار فى نفوسهم الامتعاض والتذمر ، وأخذوا فى الهجرة جنوباً وغربا ، أى إلى بلاد السودان و بلاد المغرب تخلصاً من قبضة الأعاجم .

وهنا تبدأ المرحلة الثالثة وهى مرحلة التسليم التى أعقبت الظروف الحربية . ثم تلتها الخطوة الجريئة الأخيرة من عهد ابن طولون حتى عهد الظاهر بيبرس أحد سلاطين المماليك البحرية ، والقضاء على مملـكة النوبة فى الشمال والجنوب . أما ابن طولون فقد سار واليه عبد الرحمن العمرى ليؤدب النوبة فى الشمال . وكان معظم رجاله من ربيعة وجهينة . فانتصر العرب على النوبة . وولوا وجوههم شطر البجة ، وكانوا يؤذون مَنْ فى المناجم من المسلمين ؛ فأخضعوهم ، وترك العمرى وراءه من بنى ربيعة وجهينة من أقاموا وأكثروا العمارة حتى صارت الرواحل التى تحمل الميرة إليهم من أسوان ستين ألف راحلة غير الجلاب

التى تحمل من القلزم (وهى مدينة السويس الحالية ، إلى عيذاب على البحر الأحمر .
فلما كان القرن الحادى عشر الميلادى ، و بلاد النوبة لاتزال على المسيحية ، ظهرت بين أسوان وحاضرة النوبة العليا إمارة عربية يحكمها نفذ من ربيعة استقروا على مقربة من أسوان واختلطوا بالنوبيين عن طريق الزواج ؛ وذهبت منهم جماعة شرقاً إلى البجة ، واختلطوا بهم أيضاً حتى تكونت منهم إمارة أولاد الكَنْز .

كانت المناوشات قائمة بين ولاة مصر و بين النوبة والبجة الذين اشتبكوا مع الأيوبيين كما اشتبكوا مع المماليك البحرية فى القرن الثالث عشر الميلادى حين جلس على عرش النوبة ملك يسمى « شُكُنْدة » (بضم الشين والكاف وسكون النون) كان يؤدى لسلطان مصر الجزية و يؤدى له فروض الطاعة . فثار عليه خاله « داود » فى سنة ١٢٧٥ م وانتزع الملك من يده ، وامتنع عن دفع الجزية لسلطان مصر ، وجاوز حدود مملكته ، فعاث بثغر عيذاب ، وأغار على بعض القرى المصرية حتى قربت جيوشه من مدينة أسوان . وقد سارت إليه الجيوش المصرية فلم تدركه ولكنها قبضت على فرسانه .

وقد قصد الملك المخلوع مصر واستنجد بسلطانها الظاهر بيبرس ، فأعد جيشين كثيفين ولاهما اثنين من أمهر قواده . وفى خارج مدينة دنقلة حلت الهزيمة بداود ، ولكنه عبر النيل ، وأعيد شكندة إلى عرشه ، وتعهد بأن يؤدى الجزية إلى سلطان مصر[1] . وعرض القائدان المصريان على أهل النوبة الإسلام أو الجزية ، فاختاروا الجزية ، وكتبا نسخة من اليمين حلف عليها الملك ، ونسخة أخرى من هذا اليمين حلفت عليها الرعية . وهاك نص هذه الشروط التى حلف عليها شكندة ملك النوبة :

---

(١) المقريزى : خطط ج ١ ص ٢٠٢ .

« والله والله والله ، وحقّ الثالوث المقدس ، والإنجيل الطاهر ، والسيدة الطاهرة العذراء أم النور ، والمعمودية والأنبياء والرسل الحواريين والقديسين والشهداء والأبرار ، ألاّ أجحَد المسيح كما جَحد يودس ، وأقول فيه ما تقول اليهود . . . أنني أخلصتُ نيتي وطَويتّي من وقتي هذا وساعتي هذه ، لمولانا السلطان الأعظم الملك الظاهر ركن الدنيا والدين بيبرس خلّد الله ملكه . وإنني أبذل جهدى وطاقتي فى تحصيل مرضاته . وإننى ما دمتُ نائبه لا أقطع ما قرّر فى كل سنة تَمضى ، وهو ما يصل من مشاطرة بلادى على ما كان يُتَحصَّل لمن تقدّم من ملوك بالنوبة ، وأن يكون النصف من المتَحصَّل لمولانا السلطان . . . والنصف الآخر رَصداً لعمارة البلاد ، وحفظها من عدو يطرقها ، وأن يكون علىّ فى كل سنة من الأفيلة ثلاثة ، ومن الزرافات ثلاثة ، ومن إناث الفهود خمسة ، ومن الصُّهب الجياد (الخيل) مائة ، ومن الأبقار الجيدة أربعمائة رأس . وإننى أقرّر على كل نفر من الرعية التى تحت يدى فى البلاد من العقلاء البالغين ديناراً عينا . وأنه مهما كان لداود ملك النوبة ولأخيه (كذا) شُكَندة ولأمه وأقاربه ، ومَنْ عهد من عسكره بسيوف العسكر المنصور ، أحمله إلى الأبواب العالية . وإننى لا أترك شيئاً منه ، قَلّ ولا جَلّ ، ولا أخفيه ، ولا أمَكنُ أحدا من إخفائه . ومتى خرجت من شيء مما قُرّرَ علىّ أعلاه كنتُ بريئاً من المسيح ، ومن السيدة الطاهرة ، وأخسر دينى النصرانية ، وأصلى لغير الشرق ، وأكفر بالصليب ، وأعتقد ما يعتقدونه كذلك اليهود . ثم إننى لا أترك أحدا من العربان ببلاد النوبة صغيراً ولا كبيراً . ومن وجدتُه احتطت عليه وأرسلته إلى الأبواب العالية . وإننى مهما سمعته من الأخبار الضارة والنافعة طالعتُ به مولانا السلطان فى وقته . وإننى لا أنفرد بشيء من الأشياء ، وإننى عبدُ مولانا السلطان عَزّ نصرُه وغَرْسُ صنائعه ، وسيفُه المنصور . وأنا ولىٌّ من والاه ، وعدوٌّ من عاداه . والله على ما أقول وكيل وشهيد » .

وفى أواخر القرن الثالث عشر الميلادى كان الإسلام قد تسرب إلى مدن النوبة السفلى ، وكان للزواج بين العرب والنوبيين أثر فى إسلام الأخيرين ، حتى أصبح صاحب دنقلة من رعايا صاحب مصر ، وجعل يخطب على منابر بلاده « لخليفة العصر وصاحب مصر » : فلما كانت سنة ١٣١٩ م زالت مملكة النوبة من الوجود ، وأصبح ملوك النوبة ألاعيب فى أيدى القبائل العربية .

ويظهر أن المملكة النوبية المسيحية قد صارت ، كما يقول سير توماس أرنولد[١] ، إلى الزوال ، لظهور الانقسامات الداخلية من ناحية ، وهجمات القبائل العربية والإفريقية التى كانت تغير على حدود هذه المملكة من ناحية أخرى ، وأخيراً لقيام دولة الفونج القوية فى القرن الخامس عشر .

ومنذ ذلك الوقت تدفقت موجات من العرب ، ولا سيما عرب جهينة ، إلى داخل السودان حتى بلاد الحبشة ودارفور . وفى سنة ١٣٨٥ م أخذ نفوذ بنى الكنز يمتد حتى منطقة عيذاب ، وبلغ من شدة تأثرهم ببلاد النوبة ، أنهم احتفظوا باللهجة النوبية حتى بعد أن اعتنق أهل النوبة الدين الإسلامى[٢] فى القرن الثالث عشر الميلادى .

وفى سنة ١٥١٧ م هزم السلطان سليم الأول المماليك البرجية فى مصر ، وأصبحت هذه البلاد ولاية عثمانية ، ومد قواده نفوذ الأتراك العثمانيين حتى الشلال الثالث ، وبسطوا السيادة العثمانية على شعب الشكوت (بضم السين مع التشديد) والمحَس (بفتح الميم والحاء) (قبائل نوبية) سنة ١٥٢٠ م ، وأقاموا حاميات عثمانية فى أسوان وإبريم . وكانت هذه الحاميات من أهل البوسنة يقودهم قواد من الأتراك يسمون كُشافا . ومن الغريب أن هؤلاء

---

(١) الدعوة إلى الإسلام ، ترجمة ص ٩٩ .

(٢) Trimingham, Islam in the Sudan, p. 83.

الناس تزوجوا من النوبيين ، وسُلالتهم يسميها السودانيون إلى الآن « الغزّ » .
وظل هذا النسل يحكم بلاد النوبة زهاء ثلاثة قرون ، وما زال بعض البرابرة إلى اليوم يدعون انتسابهم إلى الغز . ولم يكن للحكومة المركزية سلطان فيما وراء أسوان ، وخصوصاً حين استطاعت قبائل هوّارة المغربية أن تسيطر على صعيد مصر فى القرن الثامن عشر . وقد استقل « الغز » تماماً ، وإن كانوا قد اعتادوا أن يرسلوا إلى القاهرة ضريبة سنوية من العبيد والبلح الإبريمى ، واستطاع ثانى هؤلاء الكشاف أن يصد غزوة الفونج سنة ١٥٣٠ م عند بلدة الحَنَك (بفتح الحاء والنون) فلم يعودوا إلى غزو النوبة من بعدها . ولما فتح محمد على بلاد السودان فى سنة ١٨٢٠ م ، كانت السلطة فى بلاد النوبة يتقاسمها ثلاثة إخوة من الكشاف يسميهم Burchardt فى كتابه : Travels in Nubia : « حكام النوبة » .

وفى بلاد دنقلة جنوبى منطقة نفوذ الكُشاف ، انقسمت بلاد النوبة إلى إمارات صغيرة على كل منها ملك صغير (مَكّ) (بفتح الميم) يدين بالطاعة لملوك الفونج ، والمنطقة الشمالية من دنقلة كانت خاضعة لقبيلة مغربية هى قبيلة الجوابرة ، وهم فرع من الزناتية كان الغز قد طردوهم إلى هذه البلاد . وإلى الجنوب من منازل الجوابرة قبائل البديرية وتنتشر مضاربهم حتى الشايقية .

وقد أصبح الدناقلة والجعليون أعظم تجار العبيد فى بلاد السودان . ولم يكن الطريق الرئيسى لهذه التجارة فى ذلك الوقت عبر أسوان ، إنما كان عن طريق شندى وسواكن . وكان العبيد ـ وخصوصاً الأطفال منهم ـ يجيئون من دار فَتَيت (بفتح الفاء والتاء وسكون الياء) ومن بلاد دارفور ، وكانوا يتجنبون المرور فى بلاد النوبة ، لأن القبائل النوبية كانت تقاوم هذه التجارة .

مملكة الفونج فى سنار

انتشر الإسلام فى شرقى السودان فى القرن الرابع عشر الميلادى . إذ أن سقوط المملكة المسيحية فى دنقلة (أو مَقُرَّة — بفتح الميم وضم القاف وفتح الراء مع التشديد) فتح الطريق أمام النفوذ الإسلامى من الشمال ، وذلك بسبب تدفق القبائل البدوية ومسيرها مع مجرى النيل عبر إقليم دنقلة . كما أن تجار النوبة كانوا ينفذون حتى بلاد نيجيريا ، على حين كانت التأثيرات الآتية من غربى السودان تنفذ إلى الشرق . واتصلت بُرْنو وودّاى بدارفور وكردفان . ولكن نشر الإسلام بين الشعوب الوثنية كان يرجع إلى قبائل الغرب أكثر منه إلى قبائل الشرق . ولا ريب أن التيار الآتى من الشرق يلتقى بالتيار الآتى من الغرب . لكن هذا التيار لم يستطع أن يجاوز سنار جنوباً ، لأنه على الرغم من أن مملكتى دنقلة وعُلْوة (بضم العين وسكون اللام وفتح الواو) قد دخلتا فى الإسلام ، كان التقدم صوب الجنوب الشرقى يقف بسبب نفوذ أهل الحبشة ، وكان التقدم صوب الجنوب يقف بسبب مناهضة الشعوب الزنجية فى السودان .

وبقراءة ما ذكره المقريزى[1] ، نقلا عن ابن سليم الأسوانى مؤرخ النوبة ، نستطيع أن نقول إنه كانت هناك سياسة إسلامية مرسومة لنشر الإسلام بين الشعوب الوثنية فى القرن الخامس عشر الميلادى . فقد التقى ابن سليم فى بلاط مَقُرَّة بأحد الوثنيين فى النوبة . وقد سأله عن دينه : فقال : « ربِّى وربك الله ، ورب الملك ، ورب الناس كلهم واحد . وهو فى السماء وحده . وقال له : إذا أبطأ عنهم المطر أو أصابهم الوباء أو وقع بدوابهم آفة ، صعدوا الجبل ودعوا الله فيجابون للوقت ، وتُقْضى حاجتهم قبل أن ينزلوا » . فلما أقر الرجل أن الله لم يرسل قط رسولا

---

(١) خطط جـ ١ ص ١٩٣ .

فيهم ، ذكر له ابن سليم بعثة موسى وعيسى ومحمد صلوات الله عليهم وما أيدوا به من المعجزات ، فقال : « إذا كانوا فعلوا هذا فقد صدقوا ، وقد صدقتهم إن كانوا فعلوا » .

وهذا يدل على ما كان يبذله الدعاة المسلمون من محاولة لنشر الإسلام بين الشعوب الوثنية . وهنا ينبغى أن نشير إلى أن نشر الإسلام فى إفريقية كان يتم على أيدى الإفريقيين أنفسهم ، والحاميين منهم بوجه خاص ، كما أن ممالك السودان الأوسط كلها (مثل ممالك وداى وبرنو ودارفور) قد أسسها بعض الفقهاء الحاميين المتبحرين فى العلوم الإسلامية الذين جاءوا إلى هذه البلاد للتجارة ونشر الإسلام . وبذلك كان الإسلام ، كما يقول « ترمنجهام » ، إفريقيا فى إفريقية .

ويعد نشر الفرق الصوفية ، مثل القادرية والشاذلية ، أهم ما تركه الفقهاء الحجازيون الذين نشروا خلوات الفرق الصوفية التى ساعدت على انتشار الإسلام بعد الفتح المصرى للسودان سنة ١٨٢١ م . كما انتشرت الدعوة إلى هذا الدين فى ظل المهدية التى عملت على نشره بين القبائل الزنجية فى حوض النيل . ويرى « ترمنجهام[١] » أن تجارة الرقيق وحركة التجنيد فى الجيش من أهم العوامل التى ساعدت على انتشار الإسلام .

أما عن تدفق القبائل العربية جنوبى بلاد النوبة فقد استقر بعضها فى هذه البلاد ، ولم تكن بلاد النوبة مما يغريهم بالبقاء ، لأنها لا تستطيع أن تعول عدداً كبيراً من البدو . كما أن الصحراء الشرقية كان يسكنها شعب محارب هو شعب البُجَة و بعض القبائل العربية التى نزحت إليها منذ وقت بعيد . لذلك سار هؤلاء مع النيل حتى وصلوا إلى إقليم المراعى ، ثم اتجهوا نحوا لجنوب الغربى ، أى نحو كردفان ،

---

(١) Islam In the Sudan, pp. 98 - 104.

وإلى الجنوب الشرقى نحو عطبرة والنيل الأزرق فى البُطانة[1] ثم فى الجزيرة . كما اتجه بعض الجماعات القبلية التى يمثلها الآن شعب الكبابيش إلى المنطقة الصحراوية الغربية التى كان ينزلها البدو من قبائل التِّبُّو (بكسر التاء مع التشديد وضم الباء مع التشديد) (Tibbu) . كما وجدت هذه القبائل فى إقليم كردفان مراعى صالحة لتربية الإبل ، وبدأت تختلط بالشعب الزنجى الذى يسكن كردفان الآن ، على حين نجد أن القبائل التى استقرت فى منطقة الجزيرة قد اختلطت مع الفونج . فقد استقر بنو عبد اللات (عبد الله) فى منطقة « قِرِّى » (بكسر القاف وكسر الراء مع التشديد) ، واستقر الخوالدة عند بلدة عواطب والكابوشية ، واستقر الجعليون عند شندى . أما الرُّفاعة (بضم الراء مع التشديد) فقد اخترقوا منطقة الجزيرة وخضعوا لمملكة الفونج .

وأما القبائل العربية التى يمثلها شعب البقّارة (بفتح الباء والقاف مع التشديد) الآن فقد دخلت السودان عن طريق وادى النيل ، ثم غرّبوا متجاوزين دنقلة حتى دخلوا البلاد التى كان يطلق عليها اسم السودان الفرنسى ، واستقر بعضهم فى منطقة دارفور ؛ ولم تكن هذه القبائل أو العشائر كبيرة العدد . أما القبائل الكبرى مثل الُحمَر (بضم الحاء وفتح الميم) والكبابيش ، فقد تكونت فى القرن الثامن عشر أو التاسع عشر حين انضمت إليها بعض الجماعات المتفرقة . وليس من شك فى أن هذه القبائل لقيت معارضة فى طريق تقدمها وأنها عقدت معاهدات مع ملوك الزنوج الأقوياء فى الجنوب ، ولكن طبائعهم البدوية وقدرتهم على التزاوج قد مكنتهم من الانتشار فى البلاد . وسرعان ما استقر بعضهم فى هذا الجزء وأخذوا يندمجون فى الأهالى الأصليين . وقد اتجهت القبائل

---

(١) بضم الباء بقرب الخرطوم وهى مساحة فسيحة تشغل نحو أربعة ملايين فدان لا ينقصها إلا ماء الرى .

الحامية النوبية (كالجعليين) فى الوقت نفسه نحو الجنوب والجنوب الغربى ، أى إلى إقليم كردفان . وهذه الحركة تعتبر حركة عربية برغم أن العرب الحقيقيين فيها كانوا أقلية . ومن القبائل التى اتجهت إلى كردفان الجوامعة (وهم ينتسبون إلى بنى جامع الهلاليين) والبُدَيْرية ، والشُّوَيحات . وقد تأثرت هذه القبائل وهى فى بلاد النوبة ببعض المؤثرات الزنجية . وفى القرن الثامن عشر ، كان البُدَيرية لا يزالون يتكلمون الرطانة البربرية . كما أن بعض هذه القبائل التى اتجهت نحو الجنوب والغرب كان ذا تأثيرات نوبية ـ فونجية ولنتكلم الآن على مملـكة الفونج فى سنار .

اختلف الباحثون فى أصل الفونج ؛ فقيل إنهم من سلالة عربية أموية هربت من وجه العباسيين ، وإنهم جاءوا من الحبشة أولا ثم إلى السودان الشرقى حيث تصاهروا مع ملوك السودان . وقيل إنهم جاءوا من مملـكة بُرنو غربى بحيرة شاد وجنوبى الصحراء الغربية . وسرعان ما ظهر نفوذ الفونج بين الوثنيين الزنوج وهم الشِّلُكْ (أو الشِّلوك) (بكسر الشين مع التشديد) ، الذين كانوا يعبدون الأشجار ويقيمون على الضفة الغربية للنيل الأبيض عند خط عرض ١٣° تقريباً .

وقد تأسست مملـكة الفونج فى سنار ، وتعرف فى بلاد السودان باسم السلطنة السوداء (أو السلطنة الزرقاء بعبارة أصح ، لوقوعها على النيل الأزرق الذى يسمى عادة باسم النيل الأزرق) على أيدى جماعة من المغيرين الذين تحالفوا مع السكان الأصليين فى أرض الجزيرة ، (ويطلق عليهم الفونج اسم همج) ضد القبائل العربية التى تدفقت على هذه البلاد . وقد آلت سيادة الفونج على كل من هؤلاء السكان الأصليين والعرب . ويظهر أن كلمة «فونج» اصطلاح سياسى يدل على السيادة فى سنار وغيرها ، لا على أى جنس أو ثقافة .

اتسع ملك الفونج من القرن السادس عشر إلى الربع الأول من القرن التاسع عشر . وتضم تلك الفترة الممالك الإسلامية التى قامت فى مناطق متفرقة من السودان . ومن أهم هذه الممالك :

١ — مملكة الفونج (١٥٠٥ — ١٨٢٠ م) التى قامت فى بلاد النوبة بعد زوال المسيحية عنها .

٢ — سلطنة دارفور (١٦٣٧ — ١٨٧٥ م) التى قامت فى أطراف السودان الغربية ، وكانت تضارع مملكة فونج فى العظمة .

٣ — مملكة تَقلى (بفتح التاء) التى قامت سنة ١٥٣٠ م وسط جبال تَقلى فى الشمال الشرقى من منطقة جبال النوبة غربى السودان . وكانت أقل من هاتين المملكتين فى القوة والعظمة ، برغم ما بذله ملوكها من جهود فى نشر الإسلام والعروبة عن طريق التزاوج مع أهالى البلاد وتشجيع القبائل العربية على الهجرة إليها من السودان .

وقد مد الفونج فتوحهم بين سنتى ١٤٩٩ ، ١٥٣٠ م من الجنوب حتى بلاد الحبشة ، وأسسوا ولاية سنار القوية [1] . وكان أول ملوك الفونج « عمارة دونْقَس » (بسكون النون وفتح القاف) (١٥٠٤ — ١٥٣٤ م) . وهو الذى أسس مملكة الفونج وبنى مدينة سنار سنة ١٥٠٥ م . وقد حارب العرب بزعامة « العبدلات » (عبد الله) الذى أسس أسرة حكمت بلاد النوبة ، وانتصر عليه فى موقعة « أربجى » ، وكان عمارة قد عينه نائباً عنه فى حكم جميع القبائل العربية فى وادى النيل . وكان الفونج ورعاياهم من غير العرب على الوثنية . وقد قيل إن عمارة قد تحول إلى الإسلام لأسباب سياسية . فقد ذكر المؤرخون أن السلطان سليما العثمانى بعد أن فتح مصر سنة ١٥١٧ م ، أرسل حملة إلى بلاد النوبة

---

(١) سير توماس أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ، ترجمة ص ١٠١

(١٥٢٠ م) ، وأسس قواعد حربية فى سواكن ومصوّع ، وهدد بلاد البجة والحبشة ، ودعا عمارة إلى الدخول فى طاعته . وقد استولى الفزع على نفس عمارة وخشى أن تكون إغارات السلطان سليم تهديداً لمملكته ، فبعث إليه برسالة يقول فيها : « إنى لا أعلم ما الذى يحملك على حربى وامتلاك بلادى ، فإن كان لتأييد دين الإسلام ، فإنى وأهل مملكتى عرب مسلمون ، ندين بدين رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإن كان لغرض مادى ، فاعلم أن أكثر مملكتى عرب بادية ، وقد هاجروا إلى هذه البلاد فى طلب الرزق ، ولا شىء عندهم تجمع منه جزية سنوية »[١] .

وقد قيل إن عمارة أرسل إلى السلطان سليم مع هذا الكتاب كتاب أنساب قبائل العرب فى مملكته ، وقد جمعه له الإمام السمرقندى أحد علماء سنار . فلما وصل هذان الكتابان إلى السلطان سليم أعجبه ما فيهما وعدل عن حرب سنار . وقيل إنه أخذ كتاب الأنساب إلى الآستانة ، وهو لا يزال فى خزانة كتبها إلى اليوم[٢] .

وقد ذكر « ترمنجهام »[٣] . أن هذه القصة بعيدة عن الصحة ، لأنه بعد أن استولى جند سليم الفز على بلاد النوبة حتى الشلال الثالث ، نازعهم الفونج وأرسلوا إليهم حملة باءت بالإخفاق ، ولم يحاول الفونج أن يشتبكوا فى أعمال حربية مع الغز .

وقد قيل إن الفونج شجعوا بعض رجال الدين من المسلمين على زيارة مملكتهم والاستقرار فيها . وإلى هؤلاء يرجع الفضل فى تحول القبائل الوثنية فى أرض الجزيرة إلى الإسلام .

---

(١) نعوم شقير ، تاريخ السودان القديم والحديث (طبعة القاهرة) ج ٢ ص ٧٤

(٢) نعيم شقير . أنظر الدكتور عبد المجيد عابدين : تاريخ الثقافة العربية فى السودان ص ٤٣ وما يليها .

(٣) Islam in the Sudan, p. 85

وقد امتدت رقعة مملكة الفونج فى الوقت الذى بلغت فيه أوج عزها وثرائها فى عهد « بادى الثانى أبو دِقْن » (بكسر الدال وسكون القاف) (١٦٤٢ — ١٦٧٧ م) من الشلال الثالث إلى النيل الأزرق ، ومن البحر الأحمر إلى كردفان . على أن هذه البلاد لم تكن تربطها وحدة ولم يكن لها نظام مشترك للحكم ، اللهم إلا إذا استثنينا الأراضى الممتدة بين النيل والنيل الأزرق التى كانت تخضع لحكم سنار مباشرة . ذلك لأن الفونج كانوا قد أقروا ملوك الولايات فى حكم بلادهم ماداموا يدفعون إليهم الجزية ، وسمحوا لهم بتطبيق النظم التى كان معمولا بها فى بلادهم .

وإذا مات أحد هؤلاء الملوك عين ملك سنار خلفاً له وفرض عليه الجزية وخلع عليه « طاقية ذات قرنين » (وتشبه القرنين) ، والعمامة ، والسيف ، وأحياناً سلسلة ذهبية ، ثم يناديه بلقب « مَكّ » (بفتح الميم) ويباركه ، فيقبل الملك يد الملك ويدعو له . ثم يأمر الملك بضرب النحاس (وهو طبل القبيلة) (إيذاناً بتنصيبه على عرش بلاده . وكان لكل مك وزير ، ويتمتع أقارب الملك (ويطلق عليهم الأرابيب ومفردها أرباب) أيضاً بنفوذ كبير[(١)] .

وقد انتهت سيادة الفونج باستيلاء محمد بن أبى لكيلك كَتْمور[(٢)] (توفى سنة ٧٧٦ م) على السلطة . وكان محمد ينتمى أصلا إلى الهمج الذين فتح الفونج بلادهم . وقد هزم الأحباش سنة ١٧٧٤ م وجمع شتات الفونج بعد أن حلت بهم الهزيمة فى كردفان وحول هزيمتهم نصراً . ثم عاد إلى سنار وخلع الملك « بادى الرابع » ونصب على العرش ملكا آخر أصبح ألعوبة فى يده ، وتقلد الوزارة التى أصبحت وراثية فى بيته . ثم بدأت الانقسامات الداخلية والحروب الأهلية

---

(١) ترمنجهام pp, 86 - 88.

(٢) بفتح الكاف وسكون التاء .

تزيد فى انحلال الأسرة المالكة حتى غزا الأتراك العثمانيون بلادهم ، فسلموا إليهم دون قتال .

وقد استقل بنو عبد اللات عن سنار منذ سنة ١٧٧٠ م ، لازدياد نفوذ قبيلة الشائقية التى تنتمى إلى البجة ، والتى سكنت الأراضى التى تحيط بالنيل جنوبى دنقلة إلى الشلال الرابع . وقد آلت السيادة إلى هؤلاء الشائقية منذ نهاية القرن السابع عشر . وكان الشائقية من رعايا أسرة عبد اللات ، ولكنهم لم يلبثوا أن نالوا استقلالهم واجتاحوا البلاد التى كانت خاضعة لنفوذ عبد اللات ، وامتنعوا عن دفع الجزية إليهم . ثم امتد نفوذهم فى نهاية هذا القرن إلى ملتقى النيل بالنيل الأزرق .

وفى نهاية القرن التاسع عشر ضعف نفوذ الشائقية فى الشمال ، بعد أن هرب المماليك من مذبحة القلعة المشهورة التى أوقع بهم فيها محمد على ، وقتل كثيراً منهم سنة ١٨١١ م . وقد استقر هؤلاء المماليك فى دنقلة وطردوا الشائقية من معقلهم فى مراغة (وهى دنقلة الجديدة) . وتفاقم العداء بين الشائقية والمماليك حتى فتح محمد على السودان سنة ١٨٢٠ ، ففر هؤلاء المماليك جنوباً واختفوا من وجه التاريخ . وقد اتحدت الشائقية وحاربوا الغزاة بشجاعة ، ولكنهم انهزموا أمام الجيش المصرى الذى تفوق عليهم فى السلاح ، واضطروا إلى الاندماج فى صفوف الغزاة جنوداً غير نظاميين . ولما فتح محمد على بلاد السودان سنة ١٨٢٠ م كان نفوذ الفونج إسمياً ، إذ لم يكد يتعدى الشاطىء الأيمن من النيل نفسه ، أى من بلاد الجزيرة إلى بلاد الحبشة [١] .

وقد أظهر الفونج نشاطاً عظيماً فى نشر الدعوة الإسلامية . وكانت هذه ذات طابع سلمى ، إذ قلما استخدمت وسائل العنف والإرهاب فى حمل القبائل

---

(١) ترمنجهام pp. 88 - 89

الوثنية على قبول الإسلام ، وإنما كانت هذه القبائل تدخل فى هذا الدين عن طريق الحجة والإقناع . وكان للدعاة الذين وفدوا من الحجاز والمغرب ومصر والعراق واشتركوا مع الدعاة الوطنيين أثر بعيد فى نشر الإسلام فى مملكة سنار كما كان لتبادل التجارة بين الحجاز والسودان أثر ملحوظ فى نشر هذه الدعوة . وكان بعض السودانيين إذا غادروا بلادهم لحج بيت الله فى مكة يشجعون علماء الحجاز على الرحيل إلى بلاد الفونج لنشر الإسلام فيها ، كما كان كثير من السودانيين يتلقون العلم فى مكة والمدينة المنورة و بلاد المغرب ومصر ، ثم يعودون إلى بلادهم لينشروا الدين والثقافة الإسلامية . وقد تمتع هؤلاء العلماء بنفوذ كبير فى عهد الفونج [١] ولننتقل الآن إلى الكلام على مملكة دارفور .

مملكة دارفور

إن بلاد دارفور عبارة عن هضبة تنتشر فيها المراعى وتتخللها بعض المرتفعات ولا سيما جبل مَرّة (بفتح الميم والراء مع التشديد) ويتألف سكانها من العنصر الزنجى أو العنصر الحامى . وفى تاريخ لا يمكن تحقيقه بالضبط قبل القرن الثانى عشر الميلادى دخل بلاد دارفور شعب أسود هو شعب « الداجو » . وقد جاء من الشرق ، وسيطر على البلاد وأسس ملكا فيها . وفى القرن الرابع عشر الميلادى دخل هذه البلاد عنصر مغربى من تونس يتمثل فى شعب التنجور (Tunjor)[٢] وإذا كان هؤلاء مغاربة ، فلا يبعد أنهم تركوا بلادهم هرباً من بنى هلال فى شمالى إفريقية .

وقد اخترق هؤلاء المهاجرون بلاد « بُرْنو » و « وداى » حتى وصلوا

(١) سير توماس أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ، ترجمة ص ٢٨٣ .
الدكتور عبد المجيد عابدين : الثقافة العربية فى السودان ص ٥٤ — ٥٦ .
(٢) بفتح التاء مع التشديد .

إلى دارفور ، ثم جاء غيرهم من الشرق[١] . وسرعان ما سيطر هؤلاء المهاجرون على بلاد دارفور ، واختلطوا بالسكان الأصليين ، ونتج عن ذلك جنس مختلط بين الداجو والتنجور يسمى شعب الفور . وقد نشر التنجور سلطانهم على منطقة وداى فى الغرب ، وحالوا دون انتشار الإسلام فى هذه المنطقة . وظل تاريخهم غامضاً حتى القرن الخامس عشر حين سقط آخر ملوكهم ، واسمه « دليل بحر » . وكانت دارفور أكثر اتصالا بوسط السودان منها بشرقه . وكانت تخضع لقبائل التنجور الوثنية من القرن الرابع عشر إلى القرن السادس عشر .

وقد دخل الإسلام هذه البلاد مع شعب التنجور . ومن هذا الشعب رجل يدعى «أحمد المعقور» . وقد لقى حفاوة عظيمة من ملك دارفور الوثنى الذى قربه إليه وعهد إليه بالإشراف على شئون بيته ، واستشاره فى أمور دولته ، لأن خبرته بأساليب الحكم كانت أرقى من الأساليب التى كانت فى دارفور . وبذلك استطاع أحمد أن يدخل عدة إصلاحات فى الحكومة . ويقال إنه جذب بسياسته الرشيدة قلوب الزعماء المتمردين ، وقسم الأراضى بين الفقراء ليضع حداً للإغارات الداخلية ، وقوى فى نفوسهم شعوراً بالرضا والطمأنينة لم يعهدوه من قبل . ولما لم يكن للملك وريث من الذكور ، زوج ابنته من أحمد وعينه خليفة له ، ولقى هذا التعيين قبولاً من الأهلين . وكان أحمد أول ملوك المسلمين فى دارفور . واستمرت هذه الدولة الإسلامية إلى الوقت الحاضر . وقد اقترنت إصلاحات أحمد وأولاده من بعده بنشاط ملحوظ فى نشر الدعوى ، ولو أنهم لم يبدوا مثل هذا النشاط مع جيرانهم الوثنيين . على أن دارفور لم تدخل فى الإسلام حقاً إلا بجهود أحد ملوكها ، ويدعى « سليمان سولون » ، وهو أول من أسلم [illegible] الفور الذين كانوا يعبدون الأحجار والأصنام[٢] .

---

(١) ترمنجهام ص ٨٩ .

(٢) سير توماس أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ، ترجمة ص ٢٧٢ — ٢٧٣ .

وقد فتح « سليمان سولون الممالك السهلية ، ووحد القبائل ، وأسس أسرة بسطت نفوذها على دارفور وكردفان . وفى القرن الثامن عشر حفرت سلسلة من الآبار تمتد بين « الفاشر » ومرتفعات « كاجاه » . وكان لهذه الآبار أثر كبير فى تسهيل طرق التجارة بين الشرق والغرب وفى ربط دارفور بمراكز الإسلام الشرقية التى تدفق منها إلى منطقة دارفور . وقداستقدم «سليمان سولون» الفقهاء ليعلموا الناس الإسلام ؛ وسار حفيده على نهجه وحاول أن يجعل من بلاده دولة إسلامية . كما جلب عناصر جديدة للبلاد من برنو وباغرمى ، وشجع التجارة وأسس المساجد والمدارس ، واستخدم الأسلحة النارية وأخذ الناس يدخلون فى الإسلام أفواجاً بسبب اتصالهم بالتجارة والفقهاء مع احتفاظهم ببعض بقايا المذهب الحيوى الذى يقدس الحيوانات . وقد ظل الحكم فى أعقاب سليمان سولون حتى سنة ١٩١٦ .

ويذكر سير توماس أرنولد[١] نقلا عن « وسترمان »[٢] أن قدم الإسلام لم ترسخ فى البلاد الواقعة بين كردفان وبحيرة شاد ، كوداى وباغرمى ، إلا فى القرن السادس عشر . غير أن مملكة وداى التى أسسها عبد الكريم حول سنة ١٦١٢ م كانت المركز الرئيسى للنفوذ الإسلامى فى ذلك الوقت ، ولم يدخل عامة باغرمى فى الإسلام إلا فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر .

وكان اتصال أهالى دارفور بالغرب مع وداى وبرنو أكثر من اتصالهم بالشرق . وقد فقد ملوك دارفور منطقة كردفان بعد وفاة سليمان سولون ، ثم استردتها دارفور مرة أخرى حتى فتح المصريون السودان . وظلت دارفور القوة الكبرى فى السودان حتى اخترق محمد بك الدفتر دار هذه البلاد سنة ١٨٢١ م ؛ على أنه أرغم على الارتداد بسبب المقاومة العنيفة التى لقيها . وقد حاول سلاطين

---

(١) الدعوة إلى الإسلام ، ترجمة ص ٢٧٢ — ٢٧٣ .

(٢) The International Review of Missions, Vol. i. b, 628.

دارفور الاحتفاظ باستقلالهم بالتزام سياسة العزلة ، فمنعوا البيض من دخول بلادهم ، ودفعوا الجزية لسلاطين العثمانيين فى القسطنطينية ، ولكن أمرهم انتهى بالخضوع للحكم المصرى . فقد تقدم الزبير باشا من بحر الغزال إلى دارفور وقتل إبراهيم آخر ملوكها سنة ١٨٧٤ م[١] .

بلاد الحبشة

ترجع علاقة بلاد العرب بالحبشة التى كانت تدين بالمسيحية إلى العصر الجاهلى ولا سيما بعد استيلاء الحبشة على بلاد اليمن . وقد فكر أبرهة الأشرم[٢] فى بناء كنيسة فى صنعاء لصرف الحجاج عن الكعبة إليها . فقد ذكر المؤرخون أن أبرهة كتب إلى قيصر الروم وسأله العون ، فأرسل إليه الصناع وأمده بالفُسَيفِساء والرخام . فلما تم بناء هذه الكنيسة كتب أبرهة إلى النجاشىّ أنه يريد أن يصرف حجاج العرب إلى هذه الكنيسة ويحوّل تجارة قريش إلى صنعاء . وقد أثار ذلك حفيظة العرب ، فدخل بعضهم الكنيسة وعبث بأثاثها وانتهك حرمتها ، فغضب أبرهة وأقسم ليهدمن الكعبة ، وجرد جيشا عظيما من أهل الحبشة سيّر أمامه الفيلة ويمم شطر مكة ، فأرسل الله عليهم طيرا من البحر أمثال الخطاطيف رَمَت جند الأحباش بحجارة من سجيل ، فحلت بهم الهزيمة وأبيدوا عن آخرهم ، ولم ينج منهم إلا رجل عاد إلى بلاد اليمن وتحدث بما صنع الله بأهل الحبشة الذين ورد ذكرهم فى القرآن فى سورة الفيل (١٠٥ : ١ — ٥) : ألمْ ترَ كيف فعل ربُّك بأصحاب الفيل ، ألم يجعل كيدهم فى تضليل ، وأرسل عليهم طيرا أبابيل ، ترْمِيهم بحجارة من سِجِّيل ، فجعلهم كعصف

---

(١) ترمنجهام : الإسلام فى السودان pp 90 - 91,102.

(٢) لما تغلب أرياط على بلاد اليمن وحكمها من قبل النجاشى ، قامت المنافسة بينه وبين أحد قواده أبرهة وتحاربا ، فقتل أرياط ، وجرح أبرهة وشرمت شفته ، فلقب « الأشرم ».

مأكول)[1] . وكان ذلك سنة ٥٧١ م ، وهى السنة التى ولد فيها النبى صلى الله عليه وسلم .

ولما اشتد تحدى قبيلة قريش فى مكة للرسول وأجمعوا على التنكيل به وبأتباعه ، فكر الرسول فى هجرة المسلمين . لذلك اتجه الرسول إلى بلاد الحبشة لما كان يعرف فى ملكها من العدل والتسامح وقال للمسلمين : « لو خرجتم إلى أرض الحبشة » فإن بها ملكا لا يُظلَم عنده أحد وهى أرض صِدْق ، حتى يجعل الله لكم فرجا مما أنتم فيه » . وقد هاجر عشرة رجال وأربع نسوة ؛ ثم زاد عددهم حتى بلغ ثلاثة وثمانين رجلا وسبع عشرة امرأة ، سوى الصِّبيان . وقد أجمع مؤرخو العرب على أن النجاشىّ أكرم وفادة هؤلاء المهاجرين ، وأنهم أمِنوا واطمأنوا بأرض الحبشة ، واستقر بعضهم فيها وعاد بعضهم الآخر إلى مكة قبل هجرة الرسول إلى يثرب سنة ٦٢٢ م[2] .

وفى السنة السادسة للهجرة (٦٢٨ م) أرسل الرسول إلى الملوك والأمراء ومن بينهم النجاشىّ ، كتبا يدعوهم فيها إلى الإسلام[3] . وقد أكدت الرواية العربية أن النجاشىّ قد أسلم ، وأن صلة قد نشأت ودامت بينه وبين الرسول طوال حياته . وقد تكون هذه الرواية متأثرة بما أبداه النجاشىّ من حسن استقبال المهاجرين وإكرام وفادتهم ، وامتناعه عن تسليمهم إلى قريش ، حين بعثت إليه وفداً يطلب إليه ردهم إلى بلادهم . وقد روى أن النبى صلى الله عليه وسلم نعى النجاشىّ إلى المسلمين ، مما جعل بعض المؤرخين يذهبون إلى أنه كان مسلما[4] . وروى عن السيدة عائشة زوج الرسول أنها قالت : لما مات

---

(١) ابن هشام : سيرة النبى جـ١ ص ٥٣ — ٥٣ .

(٢) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسى (الطبعة السابعة سنة ١٩٦٣) جـ١ ص ١٥٧ — ١٥٩ .

(٣) الطبرى جـ ٣ ص ٨٩ .

(٤) ابن هشام : سيرة النبى جـ ٣ ص ٣٦٣ .

النجاشيّ كان يتحدث أنه لا يزال على قبره نور . وهذا الحديث – إن صح – يبين لنا مبلغ إعجاب المسلمين بالنجاشيّ[١] .

على أن هذا كله لا يحملنا على القول بإسلام النجاشيّ ، ولا سيما أن جمهرة المؤرخين يكادون يجمعون على أن الإسلام لم يظهر فى بلاد الحبشة إلا بعد مدة طويلة . يدل على ذلك ما رواه الطبريّ[٢] وابن الأثير[٣] من أن الحبشة « كانت قد تطرفت طرفا من أطراف الإسلام[٤] فى عهد عمر بن الخطاب ، فبعث إليهم علقمة بن مُجَزِّز (بضم الميم وفتح الجيم وكسر الزاى مع التشديد) العلقميّ فى البحر فى نفر من المسلمين فأصيبوا ، فجعل عمر على نفسه[٥] ألا يحمل فى البحر أحدا ، يعنى للغزو » .

ومما يدل على أن الرسول طالب الناس جميعا بقبول الإسلام وأنه قصد أن يكون دينا عالميا ، قوله متنبئا أن بلالا « أول ثمار الحبشة » ، لأنه كان أول من أسلم من أهل الحبشة ، كما قال إن سلمان « أول ثمار الفرس » لأنه كان أول من أسلم من الفرس ، وأن صُهَيْبا « أول ثمار الروم » لأنه كان أول من أسلم من الروم . وهكذا صرح الرسول أن الإسلام ليس مقصورا على الجنس العربى . يؤيد ذلك ما ورد فى كثير من الآيات البينات[٦] .

وكانت الكنيسة الحبشية تابعة لكنيسة الإسكندرية . وكان بطارقة الحبشة يعتبرون بطارقة الإسكندرية خلفاء الحواريين أصحاب المسيح عليه السلام ،

---

(١) حسن ابراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسى ج ١ ص ١٦٦ .

(٢) ج ٤ ص ٢٣١ .

(٣) الكامل فى التاريخ ج ٢ ص ٢٤٠ .

(٤) أى إنها أغارت على طرف من أطراف المسلمين .

(٥) أى عزم .

(٦) حسن ابراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسى ج ١ ص ١٦٦ — ١٧٠ .

يعينون من قبلهم مطارنة من الأقباط اليعاقبة يباشرون شئون الشريعة فى بلاد الحبشة ، وذلك بتفويض من حاكم مصر بناء على طلب النجاشى[١] .

وقد تحول كثير من أهل الحبشة إلى الإسلام و بنوا ببلادهم المساجد لإقامة شعائرهم الدينية ، وظهر بين المسلمين كثير من العلماء والفقهاء والزهاد الذين يدينون بعقائد المذهب الحنفى ، و بعضهم يدين بعقائد المذهب الشيعىّ . وكانت الحبشة فى العصور الوسطى تنقسم سبعة أقسام يحكم كلا منها ملك ؛ وهذه الأقسام هى :

١ — وفات ، وتسميها العامة أوْفات (بسكون الواو) وهى أوسع هذه الممالك . ومن أهم مدنها زَيْلَع (بفتح الزاى وسكون الياء وفتح اللام) ، وهى فُرضة على البحر بإزاء عدن . وهى شديدة الحر ، وأغلب أهلها مسلمون ، و يتردد عليها التجار ، و بها مغاص للؤلؤ .

٢ — دَوارو (بفتح الدال) وتلى وفات .

٣ — أرابينى وتلى دوارو .

٤ — هَدْية (بفتح الهاء وسكون الدال) جنوبىّ وفات ، و يعد ملكها أقوى ملوك الحبشة وأشدهم بأساً برغم ضيق بلاده .

٥ — شَرْحا (بفتح الشين وسكون الراء) وتلى هَدْية .

٦ — بالى وتلى شرحا ، وهى أكثر خصباً وأطيب مقاماً وأبرد هواء .

---

(١) كان للبطارقة أربعة كراسى : الأول للملكانيين بروما ، والثانى لليعاقبة بالإسكندرية ، والثالث بأنطاكية ، والرابع ببيت المقدس . وكان أهل الحبشة والنوبيون ومسيحيو السودان يتبعون كرسى الإسكندرية . وكان بطرق الاسكندرية يقوم بتولية ملوك الحبشة وعزلهم . وكان هذا البطرق يقلد المطارنة والقسيسين والشمامسة وغيرهم من رجال الدين الذين يقيمون الطقوس الدينية فى هذه البلاد (القلقشندى : صبح الأعشى ج ٥ ص ٣٢٢ — ٣٢٣) . وقد أورد القلقشندى فى (ج ٦ ص ٣٠٩ — ٣٢٢) أسماء البطارقة اليعاقبة إلى أيامه ، أى إلى سنة وفاته (١٤١٨ م) .

٧ — دارَة (بفتح الراء) وتلى بالى ، وهى أفقر الممالك وأقلها خيلا ورجالا[١] .

وكانت معاملات أهل الحبشة ثلاثة أنواع : منها المقايضة ، بمعنى أن تباع البقر بالغنم كما كانت الحال فى وَفات ، ومنها ما هو بالدنانير وبالدراهم كما كانت الحال فى مصر والشام وغيرها . ولم تكن هناك دار لضرب النقود ، بل كانوا يتعاملون بدنانير ودراهم مصر التى كان يحملها التجار . ومن النقود التى كانت مستعملة الحُنْكات ، (جمع حنكة بضم الحاء وسكون النون وفتح الكاف) ، وهى قطع من الحديد طولها طول الإبرة ، وعرضها ثلاثة أمثال عرض الإبرة ، ويتعاملون بها فى سائر الممالك . وقد اشتهرت هذه البلاد برخص الأسعار ، حتى كان حمل البقل من الحنطة يباع بدرهم واحد ، أى بنحو أربعة قروش مصرية[٢] .

ويتوارث ملوك هذه الأقسام الملك . على أن أحداً منهم لا يستطيع أن يستقل بالحكم إلا إذا نصبه سلطان « أمْهَرة » (أو أمحرا على ما ذكره مؤرخو العرب) . لذلك كان هؤلاء الملوك نوابا عن السلطان فى حكم ممالكهم . وقد وصف القلقشندى[٣] هذه الممالك فقال : « وهذه الممالك السبع ضعيفة البناء ، قليلة الغَناء ، لضعف تركيب أهلها ، وقلة محصول بلادهم ، وتسلط الحَطِّى (بفتح الحاء وتشديد الطاء مع كسرها) سلطان أمحرا عليهم ، مع ما بينهم من عداوة الدين ، ومباينة ما بين النصارى والمسلمين . وهم مع ذلك كلهم متفرقة وذات بينهم فاسدة » .

وكان هؤلاء الملوك يحملون إلى سلطان أمحرا كل سنة مما يجلب إليهم من القماش : الحرير والكتان من مصر واليمن والعراق . وكان الملك يلف حول رأسه عصابة من الحرير ، ويكشف وسط رأسه . كذلك كان الأمراء يعصبون

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى (ج ٥ ص ٣٢٤ — ٣٢٩)

(٢) القلقشندى (ج ٥ ص ٣٣١) .

(٣) المصدر نفسه (ج ٥ ص ٣٣٢) .

رءوسهم بعصائب من القطن . ويلبس الفقهاء العمائم ، ويلبس العامة كوفيات بيضاء ، ويتزر السلطان والجند بثياب غير مخيطة ، فيشد وسطه بثوب ويتزر بآخر . ويلبسون مع ذلك سراويل . ويقتصر غيرهم على شد الوسط والاتزار دون لبس السراويل . ويلبس الفقهاء وبعض رجال الدولة القمصان . وأغلب سلاحهم الحراب والنُّشَّاب[1] .

ومن الممالك الإسلامية فى بلاد الحبشة « دهْلَك » (بفتح الدال وسكون الهاء وفتح اللام) ، وهى جزيرة فى البحر الأحمر ، على طريق المسافر من عيذاب إلى اليمن . ومنها عَوَان ، وهى على ساحل البحر الأحمر ، مقابل تهامة على خليج عدن ، ومَقْدَشو[2] (أو مقدشيو)[3] على بحر الهند ، يجرى بها نهر كبير يصب فى المحيط الهندى على مقربة من مَقْدَشو . وقد تغلب النجاشىّ على هذه الممالك بعد القرن الثامن الهجرى (الرابع عشر الميلادى) وخربها ، وقتل أهلها ، وحرق ما بها من المصاحف وأرغم أكثرهم على اعتقاد المسيحية . ولم يبق من هؤلاء الملوك تحت طاعة النجاشىّ سوى ابن سمار ، الذى تقابل بلاده جزيرة دَهْلك[4] والسلطان سعد الدين صاحب زَيْلَع وما يليها . وقد خرج عن طاعة النجاشىّ ، وكانت بينهما حروب كان النصر فيها حليف هذا السلطان .

وحول سنة ١٣٠٠ م شقّ أحد الدعاة المسلمين طريقه إلى بلاد الحبشة ليدعو أهلها إلى الإسلام ، وتمكن من هداية مائتى ألف من المسلمين هاجم بهم ملك أمهرا ، واشتبك معه فى كثير من المعارك . ويقول سير توماس أرنولد[5] :

---

(١) المصدر السابق (ج ٥ ص ٣٣٣ — ٣٣٤) .

(٢) بفتح الميم وسكون القاف وفتح الدال .

(٣) بضم الميم وفتح القاف وكسر الدال وسكون الشين .

(٤) Trimingham : Islam in Ethiopia, pp. 47,50.

(٥) الدعوة إلى الإسلام ، ترجمة (١٠١ — ١٠٢) .

« وفى نهاية هذا القرن انشغلت بلاد الحبشة بالحروب الداخلية التى صحبتها حالة من القلق والاضطراب ، ومهدت بذلك السبيل للقبائل العربية المختلفة التى استقرت على طول الساحل ، وطرد أهل الحبشة إلى المناطق الداخلية » .

على أن جماعات من العرب خضعت لملك الحبشة وعاشوا فى مصوع فى كنف الأحباش ، ودخل كثير منهم فى خدمة الملك ، وكان يسند إلى بعضهم مناصب مهمة فى الدولة . وكانت المناطق التى يسكنها المسلمون والتى تمتد من البحر الأحمر حتى سنار غربا وفى الجهة الجنوبية والجنوبية الشرقية تدفع الجزية لملك الحبشة [١] .

وكان التجار والدعاة المسلمون يفدون على هذه البلاد تقربا إلى زعماء الأحباش . وكان طبيعيا أن تكون لهذه العلاقات آثار اجتماعية حين يصهر أهل الحبشة إلى العرب أو يصهر العرب إليهم . وكان النفوذ التركى فى ذلك الوقت قد بدأ يظهر فى بلاد اليمن ومضيق باب المندب وشرق إفريقية ، حين أخذ البرتغاليون يتطلعون إلى محالفة أهل الحبشة للقضاء على النفوذ الإسلامى فى البحر الأحمر . وكان الأتراك قد استولوا على زيلع وأنشئوا أسطولا قويا فى البحر الأحمر ، وعملوا على القضاء على الحلف البرتغالى الحبشى ، فعقدوا محالفة مع إمارة « عدِل » (بفتح العين وكسر الدال) الإسلامية القريبة من حدود الحبشة ، وأمدوا أميرها المستقل أحمد جران [٢] بالأسلحة النارية ، وحرضوه على غزو بلاد الحبشة . وقد انضم إلى جيشه الظافر الذى غزا هذه البلاد كثير من زعماء الحبشة وأتباعهم وأشراف مكة وكثير من المتطوعين العرب [٣] . وزحف

---

(١) عرب فقيه : فتوح الحبشة (باريس ١٨٩٧ — ١٩٠٩) ص ٢٧٥ — ٢٧٦ و٣١٩ و٣٢٤) .

(٢) هو الإمام أحمـــد بن ابراهيم الغازى الملقب بجران (أى الأشول) . انظر : Trimingham, p. 85.

(٣) عرب فقيه ص ٢٨ و١٢٩ و٢٧٥ .

العدليون وحلفاؤهم على بلاد الحبشة وغزوا شعب الجَلاّ (بفتح الجيم واللام مع التشديد) وهرر وأكسوم . واستمرت غزوة أحمد جران هذه خمس عشرة سنة (١٥٢٨ — ١٥٤٣ م) .

وكان لهذه الغزوة أثر بعيد فى نشر الإسلام فى بلاد الحبشة . يقول سير توماس أرنولد [١] نقلا عن عرب فقيه [٢] « وبمثل هذه الطريقة الآلية كان تحول كثير من الناس ، وخاصة زعماء المسلمين الذين كانوا قد دخلوا فى خدمة ملك الحبشة ، وأولئك المرتدون الذين اتخذوا من غزو بلادهم على أيدى جيش المسلمين الفاتح ، الفرصة لأن ينبذوا فى الحال المسيحية ، وأن يخلعوا طاعتهم للملك المسيحى ، ويعلنوا إسلامهم من جديد » .

وقد صادف الإسلام نجاحا كبيراً بين قبائل الجَلاّ الذين استوطنوا بلاد الحبشة . وينقسم هؤلاء المهاجرون إلى سبع قبائل تسمى « وَلُّوجا » (بفتح الواو وضم اللام مع التشديد) ، وهو اسم الجنس الذى ينتمون إليه . وأكثر المسلمين يقيمون فى جنوبى الحبشة . وقد تحول بعض القبائل إلى الإسلام حول سنة ١٥٠٠ م ، وصادف هذا الدين نجاحا رائعاً بين أهالى السهول ، وانتشر على أيدى دعاة فى زى التجار . وقد لَقُوا ترحيباً حارا فى بلاط الجلاّ ، لما وجدوه هناك من سوق لاستبدال حاصلات البلاد التجارية بسلع مستوردة من المصنوعات الأجنبية . وانتهز هؤلاء التجار فرصة رحلتهم إلى الساحل مرة فى كل سنة أو سنتين لنشر الإسلام بين أهالى هذه البلاد ، حيث ظفر هذا الدين بدخول عدد كبير فى مدة قصيرة . وقد أخفق المبشرون إخفاقا تاما ، على حين حقق الدعاة المسلمون نجاحا مستمرا وشقوا طريقهم نحو الجنوب [٣] .

---

(١) الدعوة إلى الإسلام ، ترجمة ص ١٠٣ .

(٢) فتوح الحبشة ص ٣٤ — ٣٥ ، ١٢٠ — ١٢١ ، ١٨٢ — ١٨٣ ، ٢٢٤ ، ٣٢٧

(٣) سير توماس أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ، ترجمة (ص ٢٩١ — ٢٩٢) .

وكان تدفق النفوذ الإسلامى إلى بلاد الحبشة مشجعاً للعناصر العربية التى كانت تعيش هناك ظاهرة أو مستخفية . غير أن الملوك المسيحيين فى الحبشة استطاعوا أن يستردوا نفوذهم منذ سنة ١٥٨٩ . على أن الاضطرابات التى أصابت مرافق البلاد فى البقية الباقية من القرن السادس عشر وفى القرن السابع عشر والمنازعات التى قامت بين رجال الكنيسة قد مكنت الإسلام من الاستقرار والبقاء . وقد أثارت جهود المبشرين الكاثوليك ، وتدخل البرتغاليين فى كل الشئون المدنية والسياسية مقاومة مسيحيى الحبشة ، حتى إن بعض قوادهم قد أعلن صراحة أن من الخير لهم أن يخضعوا للحاكم المسلم من أن يظلوا على محالفة البرتغاليين . وانتهت هذه الحركة القومية بطرد البرتغاليين حول سنة ١٦٣٢ م وإخراج كل المسيحيين الأجانب من البلاد [١] . وقد استغل بعض قبائل الجَلاَّ هذه الفرصة فشقت طريقها إلى قلب البلاد ، حيث لا تزال الأماكن التى استوطنوها باقية إلى اليوم . ويذكر رحالة عاش فى القرن السابع عشر أن المسلمين كانوا منبثين فى جميع أنحاء بلاد الحبشة وأنهم يؤلفون ثلث سكان البلاد . ويقول سيرتوماس أرنولد إن عدد المسلمين قد زاد فى القرن الذى يليه . على أن بعض هؤلاء المسلمين قد تظاهر بالتحول إلى المسيحية حتى يتمكنوا من الانتظام فى سلك الأشراف . وكان ذلك من أهم الأسباب التى أدت إلى نجاح هذا الدين بفضل ما أحرزه المسلمون من تفوق أدبى على أهالى الحبشة من المسيحيين [٢] .

وقد أخذ الإسلام يشق طريقه إلى الحبشة ، لا عن طريق الفتح وحده بل عن طريق التجارة أيضاً . فقد أخذ التجار المسلمون يفدون على هذه البلاد ويدخلون الناس فى الإسلام . كما وفد دعاة العرب بكثرة ، حتى قيل إنه كان يفد

---

(١) Trimingham, p. 77

(٢) سير توماس أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ، ترجمة ص ١٠٣ — ١٠٤ .

عدة مئات منهم فى كل سنة ، ينتشرون فى بلاد الصومال والحبشة للدعوة إلى هذا الدين . وكان أغلبهم من الحضارمة . إلا أن الفضل الأكبر فى نشر الإسلام فى الحبشة عن طريق التجارة إنما يرجع إلى طائفة من التجار المسلمين نشأت فى مدينة قوص المصرية . وكانت هذه الطائفة تتألف من مهاجرين من أهل التكرور و بعض الهنود والعرب . وقد اتخذت لنفسها اسم الكارمية ، أو الكانمية ، نسبة إلى بلاد الكانم ، وأخذت تشتغل بتجارة التوابل . وسرعان ما عظم نفوذها وتضاعفت ثروتها وانضم إليها التجار المسلمون من جميع البلاد . وكان التجار الكارمية على جانب كبير من الورع والتقوى ، وقد جعلوا من أنفسهم دعاة للإسلام إلى جانب اشتغالهم بالتجارة . وكان منهم فقهاء ومحدثون وقراء اتخذوا التجارة حرفة لهم . وقد دخل هؤلاء الكارمية بلاد الحبشة تحت ستار التجارة ، ووجدوا من الأمراء والحكام ترحيباً عظيما بسبب نشاطهم الاقتصادى الجم ، واشتغالهم بتجارة الرقيق بمساعدة ملوك الحبشة أنفسهم . واتخذ هؤلاء الكارمية التجارة وسيلة لبث الدعوة إلى الإسلام ، وساعدهم على ذلك طول إقامتهم فى البلاد واختلاطهم مع الأهلين ومعرفتهم بعاداتهم وتقاليدهم ، حتى أسلم على أيديهم كثير من أهل الحبشة . ومما ساعد على نجاح هؤلاء الدعاة أن الحبشة فى القرن السابع عشر قد انقسمت إلى إمارات تكاد تكون مستقلة لاهمّ لها إلا إثارة الخلافات المذهبية والحروب الطائفية . وكانت الطبقات الفقيرة من المسيحيين المحتقرة من الرؤساء المثقلة بالضرائب أكثر الناس تحولا إلى الإسلام . هذا إلى ما كان ينعم به المسلمون من مكانة اجتماعية رفيعة وحرية موفورة وإقبال على التعليم منقطع النظير . وقد لاحظ الرحالة ربپل (Ruppell) عند زيارته بلاد الحبشة أن الملوك كانوا إذا أرادوا أن يلتمسوا شخصاً تتوافر فيه الأمانة والثقة اختاروه من بين المسلمين ، لأنهم أكثر حيوية

ونشاطا فى البلاد ، ولأنهم كانوا سادة التجار المسكين بعنان الحياة الاقتصادية فى البلاد[١].

على أن الإسلام قد أحرز تقدماً بطيئاً فى خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر . ومع ذلك فإن ما اتصف به رجال الكنيسة من جمود وما قام بين الزعماء من منازعات قد فسح للمؤثرات الإسلامية المجال لتعمل فى حرية واطمئنان . وعلى الرغم من محاولة الملوك المسيحيين عزل المسلمين وإقصائهم عن الوظائف الرئيسية فى البلاد لم يتوقف انتشار الإسلام فى الحبشة ، بل إنه تغلغل فى صفوف الزعماء من أهل الحبشة أنفسهم . وكان أحد « رءوس » (نواب) الملك فى القرن التاسع عشر ، واسمه « الرأس على » مثلا حياً لتغلغل النفوذ الإسلامى بين الطبقة الممتازة . ففى أثناء حكمه تحول نصف أهالى الولايات الوسطى من بلاد الحبشة إلى الإسلام . وبرغم العداء الذى ساد بين الحبشة ومصر طوال القرن التاسع عشر والحروب التى قامت بينهما من سنة ١٨٧٥ إلى سنة ١٨٨٢ بسبب الخلاف على الحدود ، ظل انتشار الإسلام يسير فى طريقه المرسوم[٢].

ومما ساعد على استقرار المسلمين فى الحبشة أن مصر كفت عن مطامعها فى شرقى إفريقية بعـــد عزل إسماعيل وثورة عرابى وظهور ثورة المهدى فى السودان[٣]. وقد بدأت المهدية فى السودان تهتم بنشر الدعوة إلى الإسلام فى الحبشة واتخذت مدينة القلابات فى شرقى السودان مركزاً لنشر النفوذ الإسلامى فى داخل الحبشة . وقد أحس أهل الحبشة بخطر هذه الدعوة على

(١) سير توماس أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ، ترجمة (ص ١٠٤ — ١٠٥) .
الدكتور عبدالمجيد عابدين : بين الحبشة والعرب (القاهرة ١٩٤٧) (ص١٩٩ — ٢٠٣) .
(٢) سير توماس أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ، ترجمة (ص ١٠٥ — ١٠٦) .
(٣) Theobald, The Mahdiya, pp. 21, 138 .

المسيحية وحاولوا انتزاع مدينة القلابات والقضاء على نشاط الدعوة المهدية فى البلاد. وقد أثار هذا العداء السخط على المسلمين فى الحبشة و بدأت الدولة تشدد النكير عليهم لتضعف من روح الدعوة الإسلامية . إلا أن جهودها ذهبت أدراج الرياح ولا سيما فى عهد خليفة « مِنِليك » (بكسر الميم والنون) الذى وطد سلطانه فى جميع أنحاء بلاد الحبشة بعد وفاة الملك « چون » سنة ١٨٨٩ ، وعاد الدين المسيحى الدين الرسمى فى ولاية « كافا » . و يقول سير توماس أرنولد[١] . « ولكن هذه التدابير الصارمة التى اتخذت لصالح المسيحية قد أخفقت فى وقف نمو النفوذ الإسلامى فى القرن التاسع عشر ، فقد أسلمت قبائل بأجمعها كانت يوما ما تدين بالمسيحية » .

ولما تولى « ليج إياسو »[٢] حفيد منليك الحكم أنكر الدين المسيحى ، وادعى أنه من سلالة النبى محمد صلى الله عليه وسلم ، وتزيا بزى المسلمين ، ونقش على العلم الحبشى : لا إله إلا الله محمد رسول الله ، بل إنه فكر فى إعلان الجهاد والقضاء على المسيحيين ، وأعد جيشاً عظيما لتنفيذ هذه الخطة ، وقرر فى سنة ١٩١٦ « تبعية البلاد لتركيا فى الشئون الدينية » . وهنا تدخلت الدول الأوربية وأرغمته على النزول عن العرش ، وعمل خلفاؤه على الحد من النفوذ الإسلامى[٣] .

يرجع قيام الحبشة الحديثة إلى عهد الملك تيودور الذى نمت قوته تدريجيا حول سنة ١٨٤٠ . وبعد أربع عشر سنة استطاع أن يعلن نفسه إمبراطورا

---

(١) الدعوة إلى الإسلام ، ترجمة ص ١٠٧٠ .

راجع Cederquist, Islam and Christianity in Abyssinia, vol. ii.(1912) p. 153 et seq. Budge, A History of Ethiopia (2 vols. London, 1932), pp. 407 - 409.

(٢) Trimingham, p. 130.

(٣) Idem.

على الحبشة ، وإن لم يستطع أن يضم إليه مملكة « شُوا » القوية . وكان من أثر سوء التفاهم الذى قام بين الحبشة وبريطانيا أن أرسلت بريطانيا فى سنة ١٨٦٧ حملة بقيادة روبرت نابير (Robert Napier) الذى حلت الهزيمة به فآثر الانتحار . ثم عادت القوات البريطانية فى مايو من السنة التالية . وفى سنة ١٨٧٠ اشترت إيطاليا ميناء عصب جنوبى مدخل البحر الأحمر ، ثم استولت على ميناء بيلول . وقد أثار استيلاء الايطاليين على مصوع (١٨٨٥ م) سخط أهل الحبشة ، فهجموا على قوة إيطالية قوامها خمسمائة جندى قتلوا منهم أربعمائة .

وعند موت الملك يوحنا الرابع سنة ١٨٨٩ آلت الامبراطورية إلى حكم منليك الثانى ملك شوا . ثم قامت الحرب مع الايطاليين الذين انتصروا أول الأمر ، ثم حلت بهم الهزيمة (١٨٩٦) ، واعترف باستقلال الحبشة فى اكتوبر من تلك السنة ، وأصبحت عضوا فى عصبة الأمم سنة ١٩٢٣ . وفى أغسطس سنة ١٩٣٥ قامت الحرب ثانية بين الحبشة وبين إيطاليا التى احتلت إديس أبابا فى مايو سنة ١٩٣٦ ، وفرّ الامبراطور هيلاسيلاسى إلى انجلترا ، وأعلن ملك إيطاليا نفسه إمبراطورا على الحبشة . على أن هيلاسيلاسى دخل بلاده فى يناير سنة ١٩٤١ ، حيث بدأت القوات الحبشية والبريطانية الأعمال الحربية ضد القوات الايطالية وأحلت بها الهزيمة ، وعاد هيلاسيلاسى إلى حاضرة ملكه[١].

الساحل الشرقى للقارة الإفريقية

ذكرنا فى الباب الأول أن استيطان العرب لإفريقية الشرقية كان فى العصور القديمة يمتد حتى سوفالا (فى موزمبيق) جنوبى نهر زمبيزى ، برغم ما قيل من أن استيطانهم الحقيقى يرجع إلى القرن الثامن الميلادى

(١) عن الصراع بين الأحباش والإيطاليين : أنظر . Trimingham, (op. cit), p. 137.

على أثر نفى الزيدية أتباع زيد بن على ، وما قيل أيضاً من أن استيطانهم يرجع إلى القرن العاشر الميلادى . وعلى كل حال فإنه مما لا ريب فيه أن هجرات العرب أخذت بعد ظهور الإسلام تتوالى على شرق القارة الإفريقية ، و بصفة مستمرة من نواحى عمان والبحرين والأحساء واليمن وحضرموت ، وأنهم انتشروا على طول الساحل الشرقى و بنو المدن العربية التى امتدت من خليج عدن إلى مدار الجدى ، فى المنطقة التى أطلق عليها جغرافيو العرب اسم « بر الزَّنج » . ولم يلبث هؤلاء المهاجرون أن أوغلوا فى أنحاء القارة الإفريقية المتاخمة للساحل ، فشقوا طريقهم إلى بلاد الحبشة ، وإلى أوغندة وتنجانيقا ، وإلى نياسالاند ، بل إلى أقصى القارة الإفريقية جنوباً حيث مستعمرة الرأس . « وكان سكان الساحل الشرقى من هذه القاره ، كما يقول سير توماس أرنولد[1] ، وثيق الصلة بالأرض التى نشأ فيها الإسلام . وعلى الساحل الشرقى بنى العرب مدنا مهمة اتخذوها مرافىء لسفنهم ، مثل سوفالا وكِلْوا وزنزبار ومُمْبَسَّة ومالنْدى ، مما يدل على روح المغامرة والمهارة التى تميز بها بحارة عمان والخليج الفارسى » (العربى) .

ومهما يكن من شىء فإن الاستعمار البرتغالى فى شرق إفريقية لم يترك أثراً يذكر ، ولا يمكن أن يعزى ذلك إلى سوء المناخ ؛ فقد كان البرتغاليون غرباء عن البلاد ولم يبق حكمهم فيها إلا عن طريق القوة العسكرية . كما أنهم لم يحتلوا شرق إفريقية كله وإنما أقاموا محطات قليلة لا يجاوز عدد سكان كل منها مائة . على أنهم أدخلوا محاصيل جديدة مثل الذرة والأناناس ، ولو أن زراعة هذه المحاصيل كانت على نطاق ضيق . كما أنهم لم يزاولوا أى نشاط تجارى بين إفريقية وأوربا . وكل ما تركه الاستعمار البرتغالى من أثر هو أنه أساء إلى

(١) الدعوة إلى الإسلام ، ترجمة ص ٢٨٦ .

العرب الذين استقروا فى هذه البلاد ، وأن ضعفهم قد زاد على مرِّ الزمن . وقد ورث الفرنسيون والإنجليز النفوذ البرتغالى فى المحيط الهندى وانصرفوا إلى سواحل شرقى إفريقية بعد قليل ، وانتقل مسرح الحوادث إلى ميناء مسقط الذى يعد من المراكز الاستراتيجية فى المحيط الهندى(1) والآن نأخذ فى الكلام على شرقى إفريقية ، ثم على الصومال وزنزبار .

ولننتقل الآن إلى الحديث عن الفتح البرتغالى لشرقى القارة الإفريقية :

بعد استيلاء المسيحيين على غرناطة سنة ١٤٩٢ م ووقوف فتوحات الأتراك العثمانيين عند أسوار فيينا ، بدأت أوربا المسيحية تدخل فى عصر جديد من القوة وتتهيأ لهجوم مضاد على العالم الإسلامي ، ليس عن طريق البر فحسب بل عن طريق البحر أيضاً للبحث عن مسالك جديدة للتجارة . وقد أدى ذلك إلى دوران « دياز » حول رأس الرجاء الصالح واكتشاف كولمبس القارة الأمريكية (١٤٩٢ م) .

ولم يكن عمل دياز أقل شأناً من اكتشاف كولمبس للقارة الأمريكية ، فقد كانت بداية عهد جديد فى العلاقات بين أوربا وبين إفريقية وآسيا وإلى سيطرة الأوربيين على تجارة المحيط الهندى وبسط نفوذهم السياسى والاقتصادى على السواحل الإفريقية والأسيوية .

وكان البرتغاليون هم الرواد الأوائل فى هذا الميدان ، فقد استطاعت هذه الإمارة البحرية الصغيرة أن تستولى فى وقت قصير على الطريق التجارى الموصل إلى الهند وأن تحتكر تجارة الشرق كله . وفى سنة ١٤٩٧ سار فاسكو داغاما مترسما خطا سلفه دياز ، فاستدار حول رأس الرجاء الصالح ووصل إلى المستعمرات

---

(1) كوبلاند ص٤٨٠ وما يليها .

العربية فى موزمبيق وما لندى ، ثم شق طريقه إلى قاليقوط ثم عاد إلى لشبونة سالكا نفس الطريق الذى بدأه من قبل .

وقد أخذ البرتغاليون ينشئون على ساحل إفريقية الشرقى مستعمرات ومحطات تجارية وحصونا وثغورا . وكان صاحب هذه المشروعات الاستعمارية البوكرك (Albuquerque) الذى اعتقد أن الطريق إلى الهند لن يكون آمنا إلا بإنشاء هذه المستعمرات ، كما رأى أن تأمين التجارة يقتضى الاستيلاء على ثلاثة مواقع استراتيجية هامة وهى : ملقا وعدن وهرمز ، لأنها تعد مفاتيح الطريق إلى البحر الأحمر والخليج العربى وجزر الهند الشرقية . أما ساحل إفريقية فقد رأى البوكرك ضرورة احتلاله والسيطرة على نشاطه التجارى . فألقت سفنه مراسيها عند كلوا سنة ١٥٠٢ م وأرغم سلطانها على الاعتراف بالسيادة البرتغالية ودفع جزية مقدارها ألف وخمسمائة مثقال من الذهب .

ثم جاء دور زنزبار . فدخلها البرتغاليون فى السنة التالية وفرضوا عليها السيادة البرتغالية وجزية مقدارها مائة مثقال من الذهب . وفى سنة ١٥٠٥ م خرج أسطول برتغالى يتألف من عشرين سفينة بقصد إنشاء مستعمرات فى ستة مراكز حربية تمتد من جنوب شرقي إفريقية إلى جنوب غربى الهند . وكانت مشروعات البرتغاليين فى الهند تهدف إلى احتلال سوفالا والاستيلاء على مناجمها من الذهب .

ثم جاء دور مدينة ممبسة التى دافع المسلمون عنها دفاع الأبطال ولكنهم هزموا آخر الأمر ونهبت مدينتهم وخربت ثم أحرقت . وقد أرسل سلطان ممبسة يحذر أهل ما لندى الذين كانوا يضمرون لبلاده الكراهية أكثر مما كانوا يضمرون للبرتغاليين . وفى سنة ١٥٠٦ م أبحر إلى شرقي إفريقية أسطول برتغالى من موزمبيق حتى بلغ الساحل الغربى من مدغشقر ، ثم يمم شطر كلوا وما لندى

وأخضع مدن لامو وأوجا وبراوة التى رضيت أن تدفع الجزية للبرتغاليين . ثم جاء دور مقدشيو ، وكانت أقوى هذه المدن وأغناها . ولما ألقى البرتغاليون مراسيهم فى مينائها وجدوا الساحل يزخر بالمقاتلة واضطر البرتغاليون إلى مغادرتها بسبب موسم الرياح للوسمية الذى كان على وشك ، وساروا إلى جزيرة سقطرة واستولوا عليها وأنشئوا بها قلعة برتغالية تتحكم فى مدخل البحر الأحمر . ولم يبق أمام البرتغاليين إلا خطوة واحدة لإتمام سيادتهم فاستولوا على موزمبيق سنة ١٥٠٧ م واتخذوها قاعدة عسكرية وأنشئوا فيها قلعة ومستشفى وكنيسة ومستشفيات للجند ، وغدت موزمبيق أهم مدن ساحل إفريقية فى العهد البرتغالى وما زالت كذلك حتى اليوم .

وبذلك تم للبرتغاليين فتح شرقى القارة الإفريقية فى أقل من عشر سنوات وخضعت لهم كل المدن الساحلية ، إما بقبولها السيادة البرتغالية ودفع الجزية وإما بالقضاء عليها . ولم ينج من ذلك إلا مدينة مالندى حليفة البرتغاليين . وفى سنة ١٥٠٩ م عين ملك البرتغال حاكما عاما للمستعمرات البرتغالية فى إفريقية الشرقية وساحل بلاد العرب . ولم يبق لإتمام هذه السيادة إلا مقدشيو ومدغشقر اللتين ظل البرتغاليون يتطلعون إليهما ، لولا انشغالهم بمشروعاتهم فى الخليج العربى بعد أن نهبوا مسقط وهرمز وبعد أن هزموا الأسطول المصرى فى موقعة « ديو » (١٥٠٩ م) لم يبق أمامهم إلا ثغر عدن . وهكذا تحقق مشروع البرتغاليين الذى رسمه « البوكرك » فاستولى على ملقا ومات فى مستعمرة « جوا » (بضم الجيم)مقر الامبراطورية البرتغالية . وبذلك انتهت سيطرة العرب على شرقى إفريقية والمحيط الهندى وانتقلت إلى البرتغاليين[١] .

على أن البرتغاليين لم يقضوا على العرب قضاء مبرما ، فإنهم لم ينشئوا

---

(١) كوبلاند ص ٤١ — ٤٧ .

إلا ثلاث مستعمرات رئيسية فى كلوا وموزمبيق وسوفالا ، و إن كانوا قد أنشئوا مستعمرات أخرى فرعية فى زنزبار و بمبا . أما سائر المدن الساحلية فقد احتفظت بحكوماتها ونظمها المحلية مقابل أداء الجزية ، وكانت المدن الشمالية تتمتع بحرية التجارة أكثر مما كانت تتمتع به المدن الجنوبية على حين ظلت التجارة البرتغالية على ما كانت عليه[1] . وكانت قوافل العرب تسير إلى داخل البلاد .

وصفوة القول أنه لم يكن لمشروعات البرتغاليين نتائج إيجابية فى الميدانين الاقتصادى والسياسى ، وأنهم أخذوا يفقدون مستعمراتهم الأخرى بعد ضم البرتغال إلى أسبانيا سنة ١٥٨٠ م وأخذت دول أوربية أخرى تسلك نفس الطريق الذى سلكه البرتغاليون من قبل . فقد استدارت سفينة فرنسية حول رأس الرجاء الصالح فى سنة ١٥٢٩ ، أى بعد رحلة دياز بثلاث وأربعين سنة ، وبدأت أول سفن الانجليز تدخل هذا الميدان فى سنة ١٥٨٠ م ، واقتفت سفن هولندة أثرها فى سنة ١٥٩٥ م . ولكن مغامرات الفرنسيين كانت منصرفة إلى ميدان آخر ، على حين بدأ الهولنديون والانجليز ، كما كان البرتغاليون من قبل ، يتدرجون من مرحلة الكشف إلى مرحلة الاهتمام ، ومن الاهتمام إلى الهجوم المباشر المنظم . فقد استطاع لانكستر Lancaster الإنجليزى أن يصل إلى الهند (١٥٩١ م) سالكا نفس الطريق البرتغالى القديم ، وتأسست شركة الهند الشرقية سنة ١٦٠٠ م . وأخذت كل من انجلترا وهولندة ترسلان السفن التجارية المسلحة لتنتشر من البحر الأحمر إلى جزائر الفلبين ، وأدت هذه الجهود إلى القضاء على البرتغاليين الذين لم يبق من إمبراطوريتهم العظيمة إلا « جوا » التى طردهم الهنود منها حديثا ، كما طردهم الإيرانيون بمعونة الإنجليز من هرمز سنة ١٦٦٢ م ، وأصبح الإنجليز والهولنديون والفرنسيون فى صراع مستمر من

(١) فى سنة ١٥٧٢ م مضى البرتغاليون قدما على طول وادى نهر زمبزى ولكنهم أصيبوا بالحمى ولم يتحقق هذا النجاح إلا على أيدى الإنجليز فيما بعد .

أجل السيادة قرناً من الزمان ، فقد تفوق الهولنديون أول الأمر على الإنجليز ، فأنشئوا مستعمرة فى جزيرة موريتس (Mouritius) (١٦٤٤ م) ، واستولوا على جزيرة سيلان من البرتغاليين (١٦٥٨ م) . وفى نهاية هذا القرن انتشرت المستعمرات والشركات الهولندية فى الخليج العربى وعلى سواحل الهند وفى أرخبيل الملايو ، ولكنهم انسحبوا من هذه البلاد (١٧٥٠) وركزوا نشاطهم فى جزر الهند الشرقية مع احتفاظهم بسيلان ومستعمرة الرأس .

وقد أخذ الإنجليز والفرنسيون يدعون وراثة أملاك البرتغاليين . فالفرنسيون تأسست شركتهم فى جزر الهند الشرقية سنة ١٦٤٤ م واحتلوا جزيرة بربون (Bourbon) فى المحيط الهندى ، وأخذوا يستعمرون جزيرة مدغشقر وخلفوا الهولنديين فى جزيرة موريتس التى أطلقوا عليها اسم إيل دى فرانس (١٧١٢) وبلغ النشاط الفرنسى أقصى مداه فى منتصف القرن الثامن عشر ، ففى سنة ١٧٥٥ أصبح لهم ممثل فى البصرة . وفى ذلك الوقت بدأ الإنجليز يهتمون اهتماماً خاصاً بالهند ، فاحتلوا سورات و بمباى ومدراس وكلكتا وانتزعوا تجارة الخليج العربى من الهولنديين ، ثم خرجوا من صراعهم مع الفرنسيين ظافرين . فانتصروا فى حرب السبع سنوات ، وأصبحت بريطانيا القوة الأوربية الأولى فى الشرق الأقصى، وخاصة بعد انتصارها على نابليون .

أما إفريقية الشرقية فإنه لم يرد لها ذكر فى هذا الصراع المرير فى المحيط الهندى بسبب تحكم البرتغال فى شئونها وانصراف القوى الكبرى إلى الشرق الأقصى . وظلت ثغور شرقى إفريقية مثل ممبسة وكلوا ومالندى تزاول التجارة بين شرقى هذه القارة و بين الهند .

وكانت السفن البريطانية تزور موانى إفريقية الشرقية فى طريقها إلى الشرق الأقصى طلباً للمئونة وتبادل السلع التى تحملها من الهند أو إليها ، و بدأ الكتاب

الإنجليز يهتمون بهذه البلاد ويقدرون أهميتها التجارية وما تحويه من ثروات قد تدر على بلادهم الربح الوفير ، كذلك تطلعت فرنسا إلى مستعمرة موزمبيق الهولندية وأغارت عليها مرتين دون جدوى ولكن انجلترا ظلت حتى ذلك الوقت لا تحرك ساكناً ، لأن اهتمامها كان منصرفا إلى الشرق الأقصى ولاعتقادهم أن الساحل الشرقي للقارة الإفريقية غير ملائم لسكنى الأوربيين ، وكان استعمار هذه المناطق يرتبط إلى حد كبير بتطور العلم والطب في أوربا . فلا عجب إذا كان استعمار هذه المناطق قد لاحت تباشيره منذ القرنين الثامن عشر والتاسع عشر .

وفى الوقت الذى تقلص فيه النفوذ البرتغالى فى شرقى إفريقية استردت ممبسة العربية ثراءها القديم وشهرتها السالفة . على أنه قد ظهر عامل لم يكن فى الحسبان ؛ فقد ظهر العثمانيون فى البحر الأحمر والخليج العربى ، فقد قوبل مندوب السلطان العثمانى بحماس شديد فى مقدشيو وممبسة و براوة وكسمايو وفازا ولامو وغيرها ودخلت فى طاعة السلطان ، ثم وصل الأسطول البرتغالى وأخضع أهالى هذه المدن ، ثم اندلعت نيران الثورة فى أكثر المدن التى استنجد أهلها بالسلطان العثمانى ، ولكن الأسطول البرتغالى سرعان ماقضى على الأسطول العثمانى وأرغم أهالى هذه المدن على الإذعان لطاعتهم من جديد . وقد رأى البرتغاليون أن قاعدتهم العسكرية فى موزمبيق لا تكفى لصد العدوان التركى ، فأنشئوا قاعدة أخرى فى ممبسة وأخذوا يشجعون المستقرين الغربيين ويمدونهم بالمعونة لزراعة الأراضى الصالحة ، كما استقروا فى مدينة زنجبار وثبتوا أقدامهم فيها لمنع إغارة الأتراك العثمانيين عليها ، وبدأ الدومينيكان والجزويت يبشرون بالمسيحية وينشئون المدارس ويبنون الكنائس .

وقد انتقل مركز النفوذ البرتغالى من مالندى إلى ممبسة ، ونقل سلطان مالندى ، ويسمى حسن بن أحمد ، حاضرة ملكه إلى ممبسة ، وبدأ نفوذ هذه

الأسرة المالندية الموالية للبرتغاليين ينمو فى ظل الحكم البرتغالى ، بل لقد أخذ يطغى على نفوذ البرتغاليين الذين أحسوا بالخطر ، و بعث الحاكم البرتغالى العام فى جوا يستدعى السلطان لمقابلته ، ولكنه أحس بالخطر ورفض تلبية دعوة الحاكم العام وفر إلى المناطق الداخلية حيث لقى حتفه . فولت الحكومة البرتغالية ابنه يوسف ، وكان فى السابعة من عمره ، ونقلته إلى جوا وعلمته تعليما برتغالياً وحولته إلى المسيحية .

على أن هذا السلطان لما شب عن الطوق و بلغ مبلغ الرجال حنَّ إلى وطنه وعاد إليه وتحول إلى الإسلام ، وعول على أخذ الثأر لما لحق بأبيه ، فأعلن الثورة على البرتغاليين سنة ١٦٣١ م وقد تعلم لغتهم ووقف على أساليبهم فى القتال ، وقتل الجالية البرتغالية على بكرة أبيها ، كما قتل البطريق البرتغالى بيدهليثأر لما ناله من المسيحية ، وطلب إلى أهالى المدن العربية الأخرى الانضمام إلى ثورته ، واستنجد البرتغاليون كعادتهم بأسطولهم فى جوا فى الوقت الذى تقاعس فيه العثمانيون عن نصرة إخوانهم فى الدين . وثبت البرتغاليون أقدامهم فى هذه البلاد من جديد .

ولم يكن معنى هذا أن البرتغاليين قد نجوا من الأخطار : فقد أخذت تفقد ممتلكاتها فى المحيط الهندى ، و بدأ الهولنديون الإنجليز يحلون محلهم ، واحتل الإيرانيون هرمز ، وتحرر العمانيون فى عهد الإمام سلطان بن سيف (١٦٥٠ م) وطردوا البرتغاليين من مسقط ومن ساحل الجنوب العربى ، ولم يبق أمامهم إلا شرقى إفريقية ، وأرسلت ممبسة إلى سلطان بن سيف تدعوه إلى إنقاذ المسلمين كما أنقذ أبناء وطنه من قبل ، فخف إلى شرقى إفريقية (١٦٥٢ م) وقضى على بعض السفن البرتغالية فى زنزبار ، وفى سنة ١٦٥٢ م أبحر سلطان ابن سيف على رأس أسطوله إلى الساحل الشرقى فاستولى على مدينتى ممبسة وفازا ، وفى أواخر عهد هذا السلطان دخل العمانيون مدينة موزمبيق (١٦٦٩ م)

وأحلوا الهزيمة بالبرتغاليين (١٦٧٩ م) وعملوا فى نهاية القرن السابع عشر على تخليص بنى عمومتهم من الخطر البرتغالى . فنى سنة ١٦٩٦ م أرسل الإمام سيف ابن سلطان بن سيف أسطولا هاجم ممبسة وحاصرها حتى سقطت هذه المدينة التى لم يستطع البرتغاليون استردادها إلا فى سنة ١٧٤٠ ، وذلك بسبب قيام النزاع بين إمارتى ممبسة وزنزبار ، ونشوب الفتن الداخلية فى سلطنة عمان نفسها وتهديد إيران لها .

ومنذ سنة ١٧٤٠ استطاع الإمام العظيم أحمد بن سعيد أن يوحد صفوف بلاده ويقضى على الخطر الفارسى ، واستعاد العرب ماضيهم القديم ونشاطهم التجارى وتحرروا من كل نفوذ أجنبى .

والعرب فى جزيرة سُقُطرة[١] إما خلص أو ممن اختلطوا بالسودانيين . وهم يستوطنون الساحل الشمالى لهذه الجزيرة ، ويقيمون فى قرى من الحجر ويحترفون التجارة . ويشتغل الذين يستوطنون القسم الشمالى الشرقى بتربية الماشية أو بالزراعة . وتختلف لغة سكان سقطرة الأصليين عن لغة من جاورهم . ويظهر أن لهذه اللغة صلة بلهجات مَهرة . ويمكن أن نخلص من ذلك إلى أن سكان سقطرة الأصليين قد انقرضوا منذ زمن بعيد وحلت محلهم جاليات أتت من سواحل بلاد العرب الجنوبية[٢]. وقد احتلت بريطانيا جزيرتى بريم (١٨٥٨م) وسقطرة (١٨٧٦م) .

وفى جزائر قمر[٣] امتزجت جاليات العرب بالسكان الأصليين . وقد نشأ

(١) بضم السين والقاف وسكون الطاء وفتح الراء .

(٢) حسن ابراهيم حسن : رسالة خطية موضوعها : وصف اثنغرافى لأشهر الأمم التى تسكن بعض أصقاع إفريقية الشرقية ص ٥ .

(٣) بفتح القاف والميم وسكون الراء ، وهى أرخبيل يتألف من أربع جزر كبيرة الى الشمال من مضيق موزمبيق بين جزيرة مدغشقر والساحل الافريقى ، وهى جزر مايوت ، وأنجوان . وموهيلى ، ونجازنجا ، وتعرف نجازنجا عند الأوربيين باسم قمر الكبرى .

من هـذه الأجناس جنس مختلط من السامى الخالص إلى الأسود البنتو[١] والملجاشى[٢] ، ويعرفون بالجنس القمرى . ويتردد التجار العرب على جزيرة نجازنجا . والعرب فى أنجوان يفخرون بأصلهم . وقد امتزج السود فى جزيرة مايوت بالدم العربى ، ونشأ عن هذا الاختلاط ما يعرف بالجنس الماهورى . ويسير القمريون على وفق الشريعة الإسلامية ، ويتكلمون اللغة السواحلية التى تمتزج ببعض عبارات ملجاشية . وهم مسلمون سنيون شديدو التمسك بدينهم . ويبنون دورهم من الحجر والجص ، ويشتغل العرب منهم بالزراعة ، ويشتغل بعضهم بصناعة الحصر وحبال النارنجيل والسيوف والحراب واستخراج السكر ويتكلم بعضهم العربية ، ويلتحق أطفالهم بالمدارس الأولية التى يتعلمون فيها القرآن واللغة العربية[٣] .

وقد استوطن العرب إقليم سوفالا جنـوبى موزمبيق بين سنتى ٥١٠ و ١٢٢٠ م . وقد ورد ذكرها فى التوراة ؛ وبالغ جغرافيو العرب ولا سيما الإدريسى فى ثروة هذه البلاد التى يتردد العرب عليها كثيراً .

وقد قيل إن سكان جزيرة مدغشقر جاءوا من إفريقية وبلاد العرب . وقد اختلط بعض ملاحى العرب الذين كانوا يترددون على الساحل الإفريقى الشرقى منذ زمن بعيد بسكان هذه البلاد ، كما اختلطوا بجنس الملايو الذين لا يبعد أن تكون الرياح قد طردتهم وألقت بهم السفن التى كانت تقلهم على سواحل هذه الجزيرة . وتدعى قبيلة أنتيمورونا التى تحتل جزءا من الساحل الجنوبى الشرقى

---

(١) ويسكنون ساحل إفريقية الجنوبية الشرقية ، ومنهم كفرة ناتال ومستعمرة الرأس وسكان بتشوالاند ويتـكلم البنتو (بفتح الباء وسكون النون وضم التاء) بلهجات مختلفة مشتقة من لغة واحدة تختلف اختلافا كبيراً عن لغة البربر . ويتصف البنتو بشعورهم المجعدة وسواد اللون وضيق الجبهة . وقد اختلطوا مع البوشمان وأعقبوا الهوتنتوت .

(٢) بفتح الميم واللام .

(٣) حسن ابراهيم حسن : المصدر نفسه ص ٤ — ٥ ، ١٠ ، ١٩ .

أنهم عرب من مكة[١] . ويقول سير توماس أرنولد إن تحولهم إلى الإسلام لا بد أن يكون قد تم على أيدى دعاة من العرب . وإن الوقت الذى تحولت فيه هذه القبيلة إلى الإسلام لا يمكن تحديده بالضبط ، برغم هذه الأساطير التى تروى أنه يرجع إلى عهد الرسول . وتعزى هذه المعلومات الموثوق بها عن المسلمين فى هذه الجزيرة إلى ما كتبه الإيطاليون والبرتغاليون فى القرن السادس عشر الميلادى[٢] .

وينتشر الجنس العربى فى مدغشقر ولا سيما فى الشمال الشرقى والجنوب الغربى . ولا يبعد أن تكون الأسرة المالكة من سلالة العرب الذين اختلطوا مع السكان الأصليين بالمصاهرة . وقد تكوّن من الإفريقيين والعرب والملايو فى مدغشقر ما يعرف بالجنس الملجاشى أو الملجاش . وهم يميلون إلى الشعر والموسيقى ، ويشتغل الرجال بالزراعة ، ويقضى النساء أوقاتهن فى نسج وغزل الخيوط . وقد مهر الرجال فى أعمال البناء وفى صناعة الحديد والنحاس والسلاسل الذهبية والفضية والفخار . ويعرف الملجاش بالفصاحة ، وتنتشر بينهم الخرافات ، ويشتغل الكثير منهم بالعرافة[٣] :

ولقد شق الإسلام طريقه إلى أقصى الجنوب من القارة الافريقية ، أى إلى مستعمرة الكاب . ففى السنين الطويلة التى تلت الرحلات البرتغالية التى بدأت فى نهاية القرن الخامس عشر الميلادى ، نمت التجارة إلى الشرق حول القارة الإفريقية نموا واسع النطاق ، واجتذبت هذه التجارة الأمم البحرية فى الغرب ولا سيما هولندة وانجلترا . على أن فتح قناة السويس سنة ١٨٦٩ قلل من أهمية هذا الطريق ، ثم عادت الدول الغربية إلى إحيائه من جديد سعيا وراء الرقيق

---

(١) المصدر السابق ص ٦ .

(٢) الدعوة إلى الإسلام ، ترجمة ص ٢٩٥ — ٢٩٦ ، نقلا عن Boneon, Les Missionaires De L, Islam en Afrique (Revue Chrétienne, tome xiii. p. 295).

(٣) حسن ابراهيم حسن : وصف أنتنغراف ص ١٠ .

والذهب[١] . وقد استعمرت الجاليات الهولندية رأس الرجاء الصالح من سنة ١٦٥٢ إلى سنة ١٧٩٥ . ولما استردوه بعد صلح إميان (Peac eof Amiens) فى سنة ١٨٠٢ احتله البريطانيون من جديد بمجرد نشوب الحرب مرة أخرى (١٨١٤) .

ومسلمو الـكاب من سلالة أهل الملايو الذين جاء بهم الهولنديون فى القرن السابع عشر أو الثامن عشر . ومنهم الشيخ يوسف ، وهو معلم دينى كان ذا نفوذ عظيم فى جاوة . وقد ساقه الهولنديون منفيا إلى مستعمرة الـكاب هو وأسرته وكثيراً من أتباعه ؛ ولا يزال ضريحه يعد مكانا مقدسا يزوره المسلمون فى هذه البلاد. وإن الأسماء الهولندية الصرفة التى يتكلم بها بعض أهالى مستعمرة الـكاب وملامح الوجه التى تلاحظ فى كثير منهم ، لتدل على احتمال اختلاطهم بالهولنديين ، أو أن بدمائهم على الأقل قدراً كبيراً من الدم الهولندى . كما أنهم ضموا إلى صفوفهم بعض الهوتنتوت الذين تحولوا إلى الإسلام[٢] .

وقد ذكر بعض الباحثين أن الذين تحولوا من الوثنية إلى الإسلام من بين الزنوج والسود من أهالى الـكاب كانوا أكثر عدداً من هؤلاء الذين تحولوا إلى المسيحية ، على الرغم من الجهود الجبارة التى يبذلها المبشرون . ويعزون ذلك إلى النفور الذى أبداه السادة المسيحيون من تعميد عبيدهم خوفا من الحقوق التى قد ينالها العبد الذى يُعمّد . على أن هذا النفور قد أخذ الآن يزول بدليل ازدياد عدد الذين يتحولون إلى المسيحية . بيد أن هذا لا يقلل من الجهود التى يبذلها الدعاة المسلمون المتحمسون ، ولا سيما الهنود الذين يزورون مستعمرة الـكاب بطريقة منتظمة ، والذين يهتمون بتعليمهم أصول الإسلام ويبعثون فى نفوسهم حياة دينية أعمق من الحياة التى كانوا يحيونها . ويعتبر عمال الهنود الذين يأتون

---

(١) Sir philip Mitchel, Africa To - Day, pp. 5—6.

(٢) سير توماس أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ، ترجمة ص ٢٩٤ — ٢٩٥ .

للعمل فى حقول الماس فى إفريقية الجنوبية دعاة للإسلام . وقد أحرز هؤلاء الدعاة نجاحاً ملحوظا بين الأهالى السود فى مستعمرة الكاب ، حيث أسسوا فى هذه البلاد مركزاً هاماً لنشر الدعوة الإسلامية . ومن الوسائل التى يستغلها هؤلاء الدعاة تبنِّى الأطفال الشاردين أو المهملين وتنشئتهم على الإسلام[١] . ويحج فريق من أهالى الكاب كل عام إلى مكة حيث يعين لهم شيخ خاص للإشراف عليهم[٢] .

والإسلام فى إفريقية الاستوائية الشرقية حتى النصف الثانى من القرن التاسع عشر يكاد يكون منحصراً فى البلاد الساحلية وما يتاخمها من البلاد . على أن منع تجارة الرقيق ومد السكك الحديدية[٣] قد اقترن بنشاط ملحوظ فى نشر الدعوة الإسلامية ، واستطاع التاجر المسلم أن يشق طريقه إلى مناطق كانت مغلقة فى وجهه حتى ذلك الحين . وقد استطاع تجار العرب الذين أتيح لهم أن يدخلوا أوغندة فى النصف الأول من القرن التاسع عشر أن يحولوا كثيرين من أهل « بُجَنْدة » (بضم الباء وفتح الجيم وسكون النون) إلى الإسلام . على أن زيارة ستانلى لملك هذه البلاد سنة ١٨٧٥ أدت إلى دخول بعثات مسيحية لقى بعض أفرادها حتفهم على أيدى أهل بُجندة ، كما أدت إلى ضعف قوة المسلمين بزيادة عدد الذين تحولوا إلى المسيحية وإعلان الحماية البريطانية فى هذه البلاد

---

(١) سير توماس أرنولد : كتاب الدعوة الى الإسلام ، ترجمة ص ٢٩٥ — ٢٩٦ .
انظر Sir T. E Colebrooke, The Life of H. T. Colebrooke (London, 1873) p. 35.

(٢) Snouck Hurgronge, Mekka pp 296 - 297.

(٣) افتتح خط حديدى من ممبسة الى بحيرة فكتوريا سنة ١٩٠١ ، ويبلغ طوله من ممبسة إلى كيسومو ٥٨٧ ميلا ، وانتهى العمل فى هذا الخط فى شهر ديسمبر سنة ١٩٠١ ، ثم مد الخط إلى كامبالا سنة ١٩٣١ .

(١٨٩٤ م)[١] . ومع ذلك فإنه لا يزال فى أوغندة عدد من المسلمين يشغلون مراكز مهمة . كما دخل عدد كبير فى بلاد بوسوجا (Busoga) شمالى أوغندة فى الإسلام سنة ١٩٠٦[٢] .

كذلك شق الإسلام طريقه من الساحل الشرقى إلى « نياسالاند » على أيدى العرب وحلفائهم الياوو (Yaos) الذين جاء أجدادهم من مكان قريب من الساحل الشرقى حيث اعتقدوا الإسلام منذ زمن بعيد . وقد انتشر الإسلام فى هذه البلاد بسرعة فائقة فى العقد الأول من القرن العشرين[٣] .

« على أن تأثر أهالى البلاد الساحلية الشرقية للقارة الإفريقية (عدا أهالى الصومال وزنزبار والجلاّ) ، كما يقول سير توماس أرنولد[٤] — قليل قلة ملحوظة ، برغم وجود جموع كبيرة من تجار العرب التى كانت تختلف إلى هذه البلاد الساحلية .

بلاد الصومال

لم تتعد البلاد التى احتلها الصوماليون منذ عهد بعيد الساحلَ الإفريقى من خليج عدن ، وكان يعرف باسم الصومال البريطانى ، على حين احتلت الجزء الجنوبى من بلاد الصومال الحالية قبائلُ البَنْتو (ويطلق عليهم جغرافيو العرب اسم الزَّنْج) التى حلت محلها قبائل الجَلاّ[٥] . وقد سجل الإسلام

---

(١) أصبحت أوغندة منطقة نفوذ بريطانية سنة ١٨٩٠ ، ثم أعلنت الحماية على جزء منها وعلى كينيا سنة ١٨٩٤ وفى سنة ١٨٩٤ أعلنت الحماية البريطانية على ما يعرف الآن باسم أوغندة ، وقد نالت استقلالها .

(٢) سير توماس أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ، ترجمة ص ٢٨٩ .

East Africa (ed. by Gordon—Brown), pp. 7 - 9.

(٣) سير توماس أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ، ترجمة ص ٢٩١ .

(٤) الدعوة إلى الإسلام ، ترجمة ص ٢٨٨ .

(٥) Trimingham, Islam in Ethiopia, p. 209.

انتصاراً حاسماً فى إفريقية الشمالية الشرقية ولا سيما فى بلاد الصومال حيث تفد من بلاد العرب مئات من الدعاة كل سنة . وكان هؤلاء الدعاة — كما يقول سير توماس أرنولد[1] — أكثر توفيقاً بين قبائل الصومال منهم بين قبائل الجَلاَّ . ولعل قرب هذه البلاد من بلاد العرب قد جعل منها مسرحاً لنشاط الدعوة الإسلامية فى عهد مبكر .

وقد ذكر ابن حوقل[2] أن أهالى زيلع كانوا يدينون بالمسيحية فى النصف الثانى من القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) . ولا يبعد أن يكون تجار العرب الذين لجئوا إلى الصومال هم الذين حملوا الإسلام معهم عبر البحر . وتقول أسطورة شائعة لدى الصوماليين بأن عربياً عريقاً فى الأصل أجبر على أن يغادر بلاده ، فعبر البحر إلى « عَدِل » (بفتح العين وكسر الدال) حين دعا إلى الإسلام بين أجدادهم . وفى القرن الخامس عشر الميلادى جاءت من حضرموت جماعة تتألف من أربعة وأربعين عربياً نزلوا فى بربرة على البحر الأحمر ، ثم انتشروا فى بلاد الصومال يدعون إلى الإسلام . وقد شق أحد هؤلاء اللاجئين ، وهو الشيخ إبراهيم أبو زرباى ، طريقه إلى هَرَر حول سنة ١٤٣٠ م واستطاع أن يحول كثيرين إلى هذا الدين . ولا يزال قبره موضع تعظيم فى هذه المدينة . وعلى مقربة من بربرة جبل يسمى جبل الأولياء ، تخليداً لذكرى هؤلاء الدعاة الذين يقال إنهم كانوا يجلسون هناك فى خلوة قبل أن ينتشروا فى طول البلاد وعرضها لتحويل الناس إلى الإسلام[3] . وفى أوائل القرن السادس عشر كان الصوماليون كافة قد تحولوا إلى الإسلام عن طريق

---

(١) الدعوة إلى الإسلام ، ترجمة ص ٢٩٣ .

(٢) المسالك والممالك (طبعة ليدن ١٨٧٣) ص ٤١ .

(٣) سير توماس أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ، ترجمة ص ٢٩٣ — ٢٩٤ .

استقرار العرب من اليمنيين وغيرهم فى المراكز التجارية الساحلية [١] . وبذلك ساد الإسلام جميع أرجاء إفريقية الشمالية الشرقية حتى احتل الإمبراطور منليك هَرَر سنة ١٨٨٦ ، فتحول بعض الأهالى إلى المسيحية [٢] .

ثم استولت إيطاليا على المنطقة الشمالية التى تعرف الآن باسم إريترية ، ثم قسمت البلاد التى تحتلها القبائل الصومالية الأخرى بمقتضى المعاهدة التى أبرمت بين بريطانيا وفرنسا وإيطاليا وإثيوبيا . وتعد إريترية أقدم المستعمرات الإيطالية ، وهى ليست أكثر هذه المناطق تقدما وإن كانت أكثرها ازدحاما بالسكان ، لأنها تشتمل على مناطق جبلية صالحة لاستقرار سكان زراعيين . ولذلك نزلت بها جاليات كثيرة من الأوربيين مع أن الأراضى الزراعية لا تزيد على ربع مساحة البلاد .

وفى سنة ١٨٧٠ امتلكت إيطاليا ميناء « عَصَب » . وفى سنتى ١٨٧٤ — ١٨٧٥ حصل الخديو إسماعيل من الباب العالى على إذن بمد نفوذه على دَنْكلى وساحل الصومال حتى جنوبى رأس جواردافوى . على أن الحكم المصرى لم يدم أكثر من عشر سنين ، واضطرت مصر إلى سحب حامياتها حين اشتعلت نار الثورة المهدية فى السودان . ثم احتلت إيطاليا ميناء مُصَوَّع (١٨٨٥) على ساحل إريترية ، ويمتاز بوجود مرفأ طبيعى تحيط به مجموعة جزائر ، وعقدت مع الإمبراطور منليك الثانى معاهدة اعترفت فيها إثيوبيا بالحكم الإيطالى على إريترية (١٨٨٩) . ثم امتدت الحماية الإيطالية فى رأس جواردافوى إلى خليج عدن . وقد ذهب احتجاج السلطان العثمانى الذى كانت له السيادة على هذه البلاد أدراج الرياح [٣] .

---

(١) Trimingham, Islam in Ethiopia, p. 209

(٢) سير توماس أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ، ترجمة ص ٢٩٤ .

(٣) Trimingham, Islam in Ethiopia, p. 132.

وفى ذلك الوقت مدت بريطانيا نفوذها على القبائل الصومالية التى كانت تحت حكم العثمانيين . ففى سنة ١٨٨٤ [١] أعلنت الحماية البريطانية على بعض هذه القبائل ، ثم أعقب ذلك عقد معاهدات فردية مع القبائل الأخرى سنة ١٨٨٧ . وقد احتلت بريطانيا ميناء زيلع [٢] ، كما احتلت ميناء بربرة التى وصفها أحد الرحالة فقال إنها المفتاح الحقيقى للبحر الأحمر ، والمركز التجارى لإفريقية الشرقية ، والمكان الوحيد لرسو السفن على الساحل الغربى من إريترية ، من السويس إلى خليج جواردافوى [٣] .

وقد دل الإحصاء الذى قامت به إيطاليا سنة ١٩٣١ أن ٧٣٪ من سكان إريترية كانوا مستقرين ، وأن سائر السكان رحالة متنقلون أو شبه رحالة بنسبة متعادلة . وفى الصومال الإيطالى ١٧٫٥٪ يقيمون على الساحل وعلى الأنهار الكبيرة ، و٤٢٪ رحالة ، و٤٠٫٥٪ شبه رحالة . وينتشر الرحالة المتنقلون أيضاً فى الصومال البريطانى والصومال الفرنسى وفى بلاد الحبشة وبين قبائل الجلاّ الجنوبية ، ونجد كثيرين ممن يقيمون فى الهضبة الجنوبية شبه رحالة .

وقد دخلت فرنسا فى سباق مع بريطانيا التى مضت قدما فى مد رقعة أملاكها فى إفريقية من الجنوب إلى الشمال . فمدت هى رقعة أملاكها من الغرب إلى الشرق ، فاحتلت بعض أجزاء البلاد التى يطلق عليها الآن اسم الصومال الفرنسى . وفى مؤتمر برلين (١٨٨٥ م) إتفقت الدول العظمى على تقسيم إفريقية . وفى سنة ١٨٨٨ عقدت بريطانيا وفرنسا مؤتمراً لتحديد مناطق

---

(١) عقدت بريطانيا أول اتفاق مع الصومال سنة ١٨٢٧ ، ثم عقدت اتفاقات مماثلة مع بعض حكام هذه البلاد . مثال ذلك : الاتفاق الذى عقد مع حاكم زيلع سنة ١٨٤٠ ، كما احتلت بريطانيا جزيرتى بريم (١٨٥٧) وسقطرة (١٨٧٦).

(٢) Trimingham, Islam in Ethiopia, p. 132.

(٣) Theobald, The Mahdiya, pp. 138 - 139.

النفوذ الخاصة بكل منهما ، وتقررت حدود المحمية البريطانية فى الصومال نهائياً بمقتضى الاتفاق الذى تم بين بريطانيا وإيطاليا سنة ١٨٩٤ ، وبينها وبين إثيوبيا سنة ١٨٩٧ . وهكذا اتفق كل من بريطانيا وفرنسا وإيطاليا وإثيوبيا على تقسيم بلاد الصومال .

ثم بقيت مقاطعة هرر الخصبة ، وتقع جنوبى غربى زيلع وعلى بعد نحو مائتى ميل منها . ولم يعد من الممكن أن تبقى هذه المقاطعة فى أيدى المصريين بعد ما أصاب الحكم المصرى من ضعف ووهن بعد الاحتلال البريطانى لمصر سنة ١٨٨٢ . لذلك اضطرت الحامية المصرية إلى إخلاء هذه المنطقة سنة ١٨٨٥ ، ولم يستطع ابن آخر سلاطينها أن يحتفظ باستقلاله . وانضمت هذه المقاطعة إلى بلاد الحبشة فى عهد منليك الثانى بعد ذلك بسنتين . وبذلك زالت معالم الإمبراطورية المصرية الواسعة التى بذل إسماعيل جهوداً جبارة فى دعم أسسها ، وآل حكم إريترية والصومال إلى بريطانيا وفرنسا وإيطاليا والحبشة [١] .

وقد أثار أحد زعماء الصوماليين وهو محمد بن عبد الله المتاعب فى وجه البريطانيين ، وأعلن الجهاد ضد بريطانيا وإثيوبيا ، بل ضد الدول الغربية . وكانت حركته مظهراً آخر لثورة محمد بن أحمد المهدى ضد الحكم العثمانى المصرى فى شرق السودان . وقد وجد مهدى الصومال كما وجد مهدى السودان حماسة دينية بالغة من القبائل التى تقيم فى بلاده ، وجمع قوات ضخمة من الدراويش الذين تدفقوا من المناطق الشرقية والجنوبية الشرقية ، ومن مناطق الصومال الخاضعة لحكم الإيطاليين وأهل الحبشة .

وقد حج محمد بن عبد الله بيت الله فى مكة أكثر من مرة ، واندمج فى سلك إحدى الطرق الصوفية ، واستقر فى بربرة سنة ١٨٩٥ ، وأعلن نفسه

---

(١) Trimingham, Islam in Ethiopia, p. 133.

خليفة الطريقة الصالحية التى اعتنق مبادئها فى أثناء تأدية فريضة الحج . على أن دعوة محمد بن عبد الله لم تلق كثيراً من الاهتمام فى بادىء الأمر بسبب منافسة الفرق الصوفية الأخرى ، كالقادرية التى كانت قد جذبت إليها أتباعاً كثيرين . لذلك لم ير محمد بن عبد الله بداً من مغادرة بربرة ولجأ إلى مكان آخر ، ورأى أن يدعو مواطنيه إلى التمسك بعقائد الإسلام والتزام الشعائر الإسلامية كما كانت فى عهد السلف الصالح ، كما دعاهم إلى الوحدة لتحقيق الغرض المشترك وهو طرد الغربيين من بلادهم . لذلك لقيت دعوة محمد بن عبد الله أذناً مصغية ، لأنها كانت منبثقة من بواعث دينية ، فضلا عما اتصف به من البلاغة والفصاحة ، وما كان ينشده من الأشعار التى كانت تلهب حماسة أنصاره . لذلك لقيت دعوته ما لقيته دعوة النبى صلى الله عليه وسلم فى بلاد العرب ودعوة محمد بن أحمد المهدى فى السودان من إقبال وترحيب .

وقد عمت الفوضى فى داخل بلاد الصومال وقامت الحروب الأهلية حتى فنى ثلث السكان . ولم تقو الحكومة البريطانية إلا على السيطرة على المناطق الساحلية ، حيث تجمعت قواتها فى زيلع و بربرة وغيرها . وانقطعت التجارة فى المدن الساحلية ، وتعطلت المناطق المخصصة لرعى الأغنام بسبب كثرة الهجرات وتوالى إغارات الدراويش . ولم تدخر بريطانيا وسعاً فى توجيه الحملات الحربية لقمع حركة محمد بن عبد الله حتى سنة ١٩٢١ ، وانتهت هذه الحركة بعد أن كلفت البريطانيين خسائر فادحة فى الرجال والأموال [١] .

وفى التسع عشرة السنة التالية انتشر السلام فى ربوع بلاد الصومال ، حتى أغار عليها الإيطاليون الذين اتخذوا بلاد الحبشة قاعدة لأعمالهم الحربية سنة ١٩٤٠ . وقامت السلطات البريطانية فى الصومال البريطانى وفى الصومال

(١) Trimingham, Islam in Ethiopia, pp. 133 — 135.

الفرنسى بوضع خطة مشتركة للدفاع عن هذه البلاد : على أن هزيمة فرنسا أمام الجيوش الألمانية فى يونية سنة ١٩٤٠ وقيام نظام ڤيشى فى چيبوتى قد حال دون تنفيذ هذه الخطة ، وانسحبت القوات البريطانية أمام القوات الإيطالية إلى عدن . وفى مارس سنة ١٩٤٠ عادت القوات البريطانية فاستولت بمساعدة قوات عدن على ميناء بربرة ، واستردت الصومال البريطانى وأحلت الهزيمة بالإيطاليين .

سلطنة زنزبار

السيد سعيد فى مسقط زنزبار
(١٨٠٦ — ١٨٥٦)

١ — السيد سعيد فى مسقط

ورث السيد سعيد بن سلطان تركة مثقلة بالأعباء : فكان الأعداء يحيطون به من كل جانب ، والقبائل المتمردة منبثة فى جميع أرجاء البلاد ، الوهابيون كانوا مصرين على الاحتفاظ بنفوذهم القديم ، وطائفة من أهالى الخليج العربى تهدد حرية التجارة العمانية ، والنزاع المتصل بين الفرنسيين والإنجليز قد يجر عمان فى أية لحظة . أما الوهابيون فقد رأى سعيد أن يهادنهم : ورضى بعقد هدنة معهم ودفع الجزية لهم وتظاهر بالتمسك بمبادىء المذهب الوهابى وأبقى على قوة الاحتلال فى بلاده . وأما قراصنة الخليج العربى على حد تعبير كوبلاند[1] فلم يستطع سعيد أن يضع حداً لعدوانهم ، ورأى أن يستعين بالبريطانيين . ولكن حكومة بمباى فى ذلك الوقت كانت على وفاق مع الوهابيين ومع قراصنة الخليج العربى الذين سمحت لهم بدخول موانى الهند على ألا يتعرضوا للسفن البريطانية فى الخليج العربى .

(١) كوبلاند ص ١٠٨ — ١٠٩ .

لذلك رأى السيد سعيد أن يسترضى الفرنسيين ، وكان قد أثار غضبهم حين أمر بطرد السفينة الفرنسية من ميناء مسقط تنفيذاً لمعاهدة مالكولم التى كانت تقضى بأن يطلب السلطان حماية البريطانيين فى حالة وقوع أى عدوان على مسقط من جانب فرنسا . وقد كتب السيد سعيد إلى حاكم « إيل دى فرانس » يطلب إليه إعادة العلاقات الودية بين بلديهما إلى ما كانت عليه . ولكن الحاكم العام لم يغفر له حادث السفينة وأغلظ فى الرد عليه ، فأوفد سعيد مبعوثه إلى بمباى يطلب صداقة إنجلترا فتعهدت له بحماية بلاده فى حالة وقوع النزاع بينه و بين فرنسا ، ووافقت على بعض الطرادات البريطانية إلى مسقط لتقوم بحمايتها .

ولكن السياسة البريطانية فى الهند قد تبدلت بعد تعيين حاكم جديد لها رأى ألا يورط البلاد فى أمثال هذه المنازعات المحلية ، سواء فى بلاد الهند نفسها أو فى جزيرة العرب أو فى غيرها من البلاد ، كما رأى أن معاهدة مالكولم لا تلزم انجلترا إلا بحماية تجارة مسقط فقط . وكأن السيد سعيد كان يترقب هذه الفرصة ليتحلل من الالتزامات البريطانية التى تنص عليها هذه المعاهدة ، فاتصل بالفرنسيين وعقد معهم معاهدة صداقة وتجارة وقعت فى ١٦ يونية ١٨٠٧ . وكانت هذه المعاهدة الجديدة تختلف عن المعاهدات السابقة التى تمنح معظم الامتيازات لأحد الطرفين ، وإنما تقوم على المشاركة فى الحقوق والواجبات بالنسبة إلى رعايا البلدين فى الشئون التجارية وفى الملاحة .

وليس من شك فى أن الفرنسيين كانوا وهم يوقعون هذه المعاهدة يرنون بأبصارهم إلى شرق القارة الإفريقية والمحافظة على تجارة فرنسا فى هذه البلاد . وكانت فرنسا مطمئنة إلى موافقة أهل كلوا على تجديد هذه المعاهدة لأنها كانت جزءاً من البلاد الخاضعة لسيطرة العثمانيين وتقضى بأن تستمر فرنسا فى علاقاتها التجارية مع زنزبار ولا سيما فى تجارة العبيد والذهب فى الوقت الذى

تعذر فيه على الفرنسيين أن يتعاملوا مع الجزء البرتغالى من شرق إفريقية ، ولا سيما مع مدغشقر وموزمبيق ، لأن البرتغاليين ، برغم وقوفهم على الحياد فى الحروب الأوربيـة كانوا يسمحون للتجار البريطانيين بمزاولة نشاطهم التجارى ، وحالوا بذلك دون نجاح سياسة الحصار الاقتصادى التى فرضها نابليون . وهذه الاتفاقية الجديدة مع مسقط من شأنها أن تجنب فرنسا كل هذا الحرج وتجعلها تركز اهتمامها على الجزء الشمالى من شرق إفريقية . وقد رأت فرنسا أن تعين ممثلين من قبلها يقيمون فى زنزبار ويقومون بتنفيذ سياستها ويحولون دون مغالاة الأمراء المحليين فى دفع الرسوم الجمركية .

وكان السيد سعيد بن سلطان يعلم أنه لا خلاص له من الخطر الوهابى إلا بمحالفة البريطانيين وأن خضوعه لشركة الهند الشرقية البريطانية خير من خضوعه للوهابيين . ولـكن نابليون كان لا يزال يفـكر فى الهند وفى الشرق الأقصى بعد معاهدة « أوستر لتز » المشهورة سنة ١٨٠٥ ، كما كان يفـكر فى محالفة إيران باعتبارها الطريق الطبيعى للهند . وكانت إيران فى ذلك الوقت تريد أن تحالف أية قوة تنقذها من الخطر الروسى . لذلك طلبت إيران إلى البريطانيين فى الهند عقد مثل هذا التحالف الذى لم يستجيبوا له والذى أدى إلى إبرام معاهدة بين إيران وفرنسا التى أعدت العدة لدخول إيران عن طريق حلب أو عن طريق رأس الرجاء الصالح وبحر العرب ثم الخليج العربى . وكان الحاكم الفرنسى العام فى الشرق الأقصى يعتقد أن العلاقات الودية القائمة بين فرنسا وبين الفلبين الأسبانية وجزر الهند الشرقية الهولندية تتيح لفرنسا أن تتخذ من هذه المناطق مراكز للهجوم على البريطانيين فى الهند . ومن ناحية أخرى تستطيع فرنسا أن تستغل موقع مدغشقر وثرواتها الطبيعية لتخلف « إيل دى فرانس » باعتبارها قاعدة فرنسية كبرى فى المحيط الهندى . كما تطلع الفرنسيون أيضاً

إلى موزمبيق ومواردها الغنية ، ورأوا أن أحسن وسيلة لتحقيق هذه المشروعات هى أن يزداد تعاونهم مع السيد سعيد بن سلطان فى مسقط .

وقد أيقظت هذه المشروعات الفرنسية انجلترا من سباتها العميق وجعلتها تعدل عن سياسة التردد القديم وتتخذ الوسائل الكفيلة بإحباط مشروعات نابليون . وكان من الطبيعى أن تتغير السياسة البريطانية فى الهند ، فعينت انجلترا حاكما عاما جديداً يقوم برسم سياسة تتلاءم والأوضاع الجديدة وتقوم على الدفاع عن الهند وحمايتها من العدوان الفرنسى . وهذه السياسة الجديدة تقوم على المبدأ الآتى وهو هجوم سياسى مضاد وحملات بحرية على القواعد الفرنسية فى المحيط الهندى . و بهذا أخذ البريطانيون يؤلبون الدول المحيطة بالهند و إيران ، و يوضحون لها الخطر الفرنسى الجديد ، فأرسلوا البعوث إلى أفغانستان و إلى أمراء السند .

وقد أدرك البريطانيون أن العمليات البحرية الفرنسية لا يمكن القضاء عليها إلا باغلاق مدخل الخليج العربى بموافقة إمام مسقط و بفضل موقع بلاده وقوته البحرية . لذلك أرسلت بريطانيا إلى السيد سعيد تثير مخاوفه من المشروعات الفرنسية الجديدة . وكان السيد سعيد يريد أن يظل صديق فرنسا فى الناحية التجارية . ولكن كان إذا خير بين فرنسا وانجلترا ، اختار انجلترا بلا مراء ، لأن الخطر الفرنسى إذا امتد إلى بلاده فإنه سيكون أفدح من الخطر الوهابى . على أن نابليون قد شغل بالسياسة الأوربية واختفى حلمه فى الشرق فى غبار الثورة الاسبانية سنة ١٨٠٨ ، على الرغم من أنه كان قد أعد العدة فعلا لغزو الهند عن طريق « إيل دى فرانس » .

و بذلك فتح الطريق أمام انجلترا لتضع يدها على جزائر الفلبين ، وأصبحت اتصالات الفرنسيين بجاوة غير مأمونة العاقبة . وقد تغير موقف الشاه من فرنسا لعدم وصول الجيش الفرنسى إلى بلاده وأصبح يقف وحده فى مواجهة الروس ،

فلم يجد السيد سعيد بن سلطان بدا من الانحياز إلى بريطانيا ، وأبرمت معاهدة إيرانية بريطانية بدلا من المعاهدة القديمة . وأمنت بريطانيا على مواصلاتها البرية ولم تعد بحاجة إلى السيد سعيد ، ولم يبق أمام بريطانيا إلا أن تؤمن الطريق البحرى ، ولم تجد بداً من احتلال جزيرة « إيل دى فرانس » التى استسلمت كما استسلمت المواقع الفرنسية فى مدغشقر . كما احتلت انجلترا جزيرة مُلُكَّا (بضم الميم واللام وفتح الكاف مع التشديد) ، وأعدت العدة لاحتلال جزيرة جاوه ودخلت مدينة بتافيا (جاكرتا الحالية) دون مقاومة . وبذلك ضاعت مواقع فرنسا فى الشرق الأقصى ، وضاعت معها مواقع الهولنديين ، وخرجت انجلترا من هذا الصراع ظافرة و بسطت نفوذها على المحيط الهندى .

وإذا كانت بريطانيا بعد معاهدة سنة ١٨١٤ وسقوط نابليون قد خرجت ظافرة منتصرة ، فإنها عملت على تثبيت الملكية فى فرنسا فردت إليها جزيرة بربون (بضم الباء وسكون الراء) وأعادت جزر الهند الشرقية إلى هولندة وأبقت لنفسها المواقع الاستراتيجية الهامة[١] .

وليس من شك فى أن شركة الهند الشرقية أمنت على نفسها بعد زوال الخطر الفرنسى ، كما أمن السيد سعيد بن سلطان إمام مسقط على ملكه من الخطر البريطانى والفرنسى . على أنه قد طرأت ظروف أدت إلى التعاون بين السيد سعيد و بين بريطانيا فى الهند من ناحية ، ومن ناحية أخرى فإن هذه الظروف هى الخطر المشترك الذى تعرض له كل منهما من القواسم فى الخليج العربى الذين استولت الحملة البريطانية على حاضرتهم رأس الخيمة فى سنة ١٨٠٩ . ولما جاء نبأ زحف السعوديين من البريمى (بضم الباء وكسر الراء) لمساعدة حلفائهم بادر البريطانيون

---

(١) انظر كوبلاند ص ١١٠ — ١٤٠ .

بالإقلاع عنها[١] . وكان الجيش السعودى بقيادة الأمير مطلق[٢] بن محمد المطيرى[٣] أمير البريمى لنجدة القواسم الذين كانوا فى حلف مع الوهابيين الذين بدءوا يتقدمون للاستيلاء على مسقط ، فلم يبق أمام السيد سعيد بن سلطان إلا الاستنجاد بالبريطانيين الذين رأوا أن سياسة حاكم مسقط تورتهم فى الدخول فى حرب مع الوهابيين . غير أن العمانيين صمدوا فى وجه الوهابيين بقيادة مطلق بن محمد المطيرى وردوهم على أعقابهم وحالوا بينهم و بين دخول مسقط . وانتهت هذه المعارك بقتل مطلق .

وقد تحدث الضابط الفرنسى جيان عن السيد سعيد بن سلطان حاكم مسقط فقال : « بفضل حادثة غير متوقعة استطاعت قبيلة بدوية أن تنقذه من مطلق ، ذلك الخصم الذى ما كان يحقق أن ينزل به الدمار فى فترة قصيرة » . وقد روى موريتسى الإيطالى ، الذى عمل فى خدمة حاكم مسقط سنوات ، والذى يقال إنه هو نفسه قد قابل مطلق فيقول عنه : « وهكذا هلك . . . ذلك العدو الذى ظل اسمه طويلا كافيا وحده لأن يملأ أهل مسقط رعبا ، وراح ضحية التهور الذى دفعته إليه انتصاراته الكثيرة المتوالية » .

وقد أرغم الوهابيون على الانسحاب بعد قتل مطلق ، فى الوقت الذى توفى فيه سعود بن عبد العزيز ، واخترق الجيش المصرى نجد واستولى على مكة والمدينة ثم على الدرعية ، وأرسل عبد الله بن سعود أسيراً إلى القسطنطينية حيث قتل . ولم يسترد الوهابيون الدرعية إلا فى سنة ١٨٤٥ م[٤] .

---

(١) عرض حكومة المملكة العربية السعودية : التحكيم لتسوية النزاع بين مسقط وأبى ظبى وبين المملكة العربية السعودية (٣ أجزاء : القاهرة ١٩٥٥) ج ١ ص ١٢٥ — ١٢٧ .

(٢) بضم الميم وسكون الطاء وفتح اللام .

(٣) بضم الميم وفتح الطاء وسكون الياء .

(٤) عرض حكومة المملكة العربية السعودية ج ١ ص ١٣٢ ، نقلا عن موريتسى : تاريخ السيد سعيد (١٨١٩ م) ص ٨٧ — ٨٨ .

وكان من الممكن أن يستغنى السيد سعيد بن سلطان إمام مسقط عن خدمات البريطانيين لولا تجدد إغارات القواسم ، واشترك مع انجلترا مرة أخرى ، وانتهى هذا النزاع بعقد معاهدة مع القواسم أبرمت فى ٨ يناير سنة ١٨٢٠ . وانتهز سعيد هذه الفرصة وقضى على قبيلة « بوعلى » الذين اعتنقوا عقائد المذهب الوهابى ، وأصبح سعيد الذى بلغ الثلاثين من عمره صاحب عمان دون منازع ، و بلغت بلاده أوج مجدها وقوتها بعد أن تخلص من الوهابيين والقواسم ، واستطاع للمرة الأولى أن يخرج من مسقط لأداء فريضة الحج (١٨٢٤ م) فى مكة حيث أرسل محمد على بعثة لاستقباله ، واسترعى حاكم مسقط انتباه العالم الإسلامى كله ، واعتبره الناس أعظم حكام عمان جميعاً .

ولكن أطماع سعيد بن سلطان لم تقف عند ساحل بحر العرب أو عند حدود عمان ، وإنما بدأ ينظر إلى ما وراء البحر ، إلى المجتمع العربى فى شرقى إفريقية ، وشعر أنه أصبح من القوة بحيث يستطيع أن يبسط نفوذه فى هذه الأرجاء .

وفى الوقت الذى كان يؤدى فيه فريضة الحج فى مكة ، أعد السيد سعيد بن سلطان حملة إلى ممبسة . وكان واثقاً من أن القوى الأوربية لن تعترض سبيله : فالفرنسيون الذين كانت تربطه بهم علاقة مودة قد ضعف نفوذهم ، والبريطانيون قد اشتدت صلته بهم بعد زوال الخطر الوهابى . ولكن سعيدا كان واهماً فيما تخيله من سكوت البريطانيين عن مشروعاته ، إذ كانوا فى هذا الوقت بالذات قد أخذوا يرنون بأبصارهم إلى شرقى القارة الإفريقية وإلى أهميتها الاقتصادية والاستراتيجية . وكان اهتمامهم راجعا إلى محاربتهم تجارة الرقيق التى أخذوا يتعقبونها من غربى القارة الإفريقية إلى شرقيها[1] .

---

(١) كوبلاند ص ١٥٠ — ١٥٣ .

٢ — السيد سعيد فى زنزبار

(ا) سياسته الاقتصادية :

بعد أن نجح سيف بن سلطان فى انتزاع شرق إفريقية من أيدى البرتغاليين بسط أئمة مسقط سلطانهم عليها نحو قرن من الزمان ، وقد رحب المسلمون فى شرق إفريقية بالعمانيين باعتبارهم مخلصين لهم من أعدائهم البرتغاليين . فلما توفى سيف بن سلطان فى سنة ١٧١١م وضعفت عمان ومزقتها الفتن الداخلية وتعرضت لهجمات الوهابيين والقواسم ، بدأ حكام شرق إفريقية يستردون استقلالهم .

فلما تقلد السيد سعيد بن سلطان إمامة عمان استنجد به بعض المسلمين فى شرق إفريقية لينقذهم من أطماع المزوريين الذين بسطوا نفوذهم على المناطق الداخلية ، فاستولت قواته على مدن لامو و بيت و بمبا وممبسة و براوة ، وانتهى الأمر بعقد الصلح مع ممبسة فى ١١ يناير سنة ١٨٢٨ ، وأصبح سعيد صاحب النفوذ على شرق إفريقية[١] .

وقد فتح استيلاء السيد سعيد على ممبسة فى سنة ١٨٣٧ م عهداً جديداً فى تاريخ كل من عمان وزنزبار . وذلك أنه جعل زنزبار حاضرة لإمامة عمان وبنى لنفسه قصراً فيها ونقل بلاطه إليها فى سنة ١٨٤٠ م . وإن نقل حاضرة إمامته إلى جزيرة زنجبار التى تبعد عن بلاده بنحو ٢٫٥٠٠ ميل والتى لاتصل إليها السفن إلا فى وقت هبوب الرياح الموسمية ليثير العجب حقاً . على أننا إذا أنعمنا النظر فى حالة إمامة مسقط فى ذلك الحين فإننا نرى أن سعيدا كان مدفوعا بعوامل عدة ، نذكر منها جو شرق إفريقية الذى يختلف عن جو مسقط المعروف بشدة حرارته طوال السنة و بكثرة غباره وشدة هبوب رياحه ، على حين نجد

---

(١) كوبلاند ص ٢١٧ — ٢٢٤ .

شرقى إفريقية يمتاز بجمال جوه وينابيعه المتفجرة وأنهاره الجارية . كذلك نرى أن السيد سعيدا أراد أن ينأى بنفسه عن جو مسقط المشحون بالمؤمرات والفتن وعن الجزيرة العربية ومتاعب الوهابيين والقواسم . أما فى زنزبار فقد استقبله العمانيون المستقرون فيها استقبال الفاتحين مدفوعين بالصلات القديمة التى تربطهم بوطنهم الأصلى ، مقدرين ما بذله أجداده من جهود فى سبيل حمايتهم . لذلك هيأت له الأحوال فى زنزبار حكما آمنا مطمئنا . ويظهر أن السيد سعيداً كان مدفوعا أيضاً بعوامل اقتصادية ترجع إلى صلاحية موانى زنزبار للملاحة مثل ممبسة وزنزبار . لذلك نراه يبنى فى سنة ١٨٣٤ م أسطولا ضخما يضم بعض الطرادات والمدمرات ليحمى طرق المواصلات بين بلاده و بلاد العرب و يقضى على إغارات القرصان ويؤمن سبل الملاحة ويحقق مشروعاته التجارية التى تأتى من الموارد الكثيرة التى تغنيه عن فرض الضرائب المباشرة . وكان يصدر السلع إلى مصر و بلاد العرب و إيران والهند .

وقد شجع السيد سعيد بن سلطان تجار الهند وصيارفتهم الذين كانوا يقبضون على زمام التجارة الدولية فى الشرق الأقصى . وكان بمدينة زنزبار وحدها نحو ألف من هؤلاء التجار كانوا ينعمون بحمايته ويقومون بشعائر دينهم . وقد أعفاهم السيد سعيد من الرسوم الجمركية وعهد إليهم بشئونه المالية . كما وفد على زنزبار كثير من مسلمى الهند الذين نعموا بنفس المعاملة . ولم تكد تخلو مدينة من مدن شرقى إفريقية من أفراد الجالية الهندية الذين انتعشت تجارتهم واقتنوا الثروات الضخمة وزاد عددهم حتى أربى على ستة آلاف فى سنة ١٨٦٠ م . وقد أعفاهم السيد سعيد من القيود الجمركية وشجع التجارة ولم يحتكر أية سلعة من السلع . وكانت الرسوم الجمركية لاتجاوز ٥ ٪ كما ضرب السيد سعيد سكة جديدة تحل محل السكة الألمانية أو الأسبانية التى كانت منتشرة فى البلاد ، واتخذ إجراءات هامة تساعد على رواج تجارة بلاده :

أولا : شجع تصدير الحاصلات الإفريقية الرئيسية التى تجلب من المناطق الداخلية مثل العاج والصمغ وجوز الهند وزيت النخيل وكذا العبيد ، فنظم القوافل بين الساحل والمناطق الداخلية وأنشأ طرقا جديدة للمواصلات كما أنشأ مدنا جديدة ، ويظهر أن مشروعات السيد سعيد قد امتدت إلى تنجانيقا ونياسالاند وكينيا حيث وجد بعض الرحالة الأوربيين مثل لفنجستون الانجليزى أثراً للنفوذ العربى ، الذى لا يبعد أن يكون قد وصل أيضاً إلى فكتوريا نيانزا وأوغندة التى دخلها التجار السواحليون فى سنة ١٨٤٨ م . كما امتد هذا النشاط التجارى غربا إلى ما وراء البحيرات العظمى . وكانت القوافل تتألف من جماعات مسلحة لجلب العبيد والحاصلات الاستوائية . وكانت هذه القوافل أقرب إلى الغزوات منها الى المغامرات التجارية التى كانت تتم فى فصل الجفاف بين شهرى مايو وأكتوبر . وكانت هذه العلاقات التجارية مع الداخل ، كما يقول كوبلاند (ص ٣١٠) ، منظمة بصورة لم يسبق للعرب (فى هذه البلاد) أن عرفوها من قبل ، حتى كانت الحاصلات تتدفق على ميناء زنزبار . ويقول كوبلاند إن سعيدا لم يهدف إلى استغلال هذه المناطق استغلالا طبيعيا ، وإنما كان همه منصرفا إلى القيام بدور الوسيط بين المناطق الداخلية والجماعات الساحلية .

ثانياً : استقلال زنجبار نفسها بالقيام بمشروعات زراعية حيث أخذ السيد سعيد فى زراعة أشجار القرنفل على نطاق واسع . وقد ساعد جو جزيرتى زنجبار وبمباى على ازدهار زراعة القرنفل التى غدت لا تقل أهمية عن تجارة العاج أو العبيد ، وما زالت زنجبار تنتج ⅘ غلة القرنفل فى العالم .

ثالثاً : البحث عن أسواق جديدة بعد أن كانت هذه الأسواق مقصورة على ساحل المحيط الهندى الممتد من عدن إلى بمباى وعلى مصر وبلاد العرب . وقد رأى السيد سعيد أهمية أسواق أوربا وأمريكا لرواج تجارة بلاده ، فرحب

بالتجار الأوربيين والأمريكيين الذين زاروا زنجبار وعقد معاهدات مع الولايات المتحدة (١٨٣٣) و بريطانيا (١٨٣٩) وفرنسا (١٨٤٤) وسمح بإنشاء قنصليات لهذه الدول فى بلاده . وفى السنة التى مات فيها السيد سعيد كانت أسواق أوربا وأمريكا تستهلك أكثر من ½ منتجات إفريقية المارة بزنجبار .

وقد أثمرت سياسة السيد سعيد فتضاعفت تجارة بلاده الداخلية والخارجية ، وزاد عدد السفن الوافدة على زنزبار . حيث دخلت ميناءها تسعون سفينة أوربية وأمريكية فى سنة ١٨٥٧ . كما أخذ السيد سعيد يتجر مباشرة مع أوربا و يرسل سفنه إلى مرسيليا ولندن وغيرهما ، وكان من أثر ذلك أن نمت مدينة زنزبار وازدهرت بعد أن كانت فى القرن الثامن عشر مجرد قرية ، واستطاع سعيد أن يجعل زنجبار ثالثة دولة تجارية فى المحيط الهندى .

(ب) سياسة السيد سعيد الداخلية :

كان سكان شرق إفريقية فى عهد السيد سعيد بن سلطان يتألفون من طبقتين :

الطبقة الأولى : السكان الأصليون و ينتشرون على طول ساحل زنجبار وفى داخل البلاد . ولم يتدخل السيد سعيد فى شئونهم بل منحهم حريتهم وولى على كل قبيلة واحداً من رجالها ، واكتفى بفرض ضريبة مقدارها ريالان عن كل شخص .

والطبقة الثانية : هى طبقة العرب والتجار الهنود الذين وفدوا على البلاد ، والمولدون ، أى الذين ولدوا من آباء عرب وأمهات وطنيات . وكان السيد سعيد يكتفى بإرشاد القبائل وتوجيهها فى الأمور التى تتعلق بالسياسة الداخلية . ولم يفز

(١) كوبلاند ص ٢١٩ — ٢٢٤ ، ٢٩٥ وما يليها .

بثقته إلا رجل واحد هو سليمان بن حامد ، ولـكنه كان يكتسب ولاء رعيته عن طريق التقرب إليها . فـكان يجلس للمتظلمين يستمع إلى شكاياتهم ويقضى بينهم فى أوقات معينة . وقد حققت هذه السياسة ما كان يرمى إليه سعيد ، فتعلق الناس به ونعموا بالأمن والطمأنينة ، وأفادوا من مشروعاته الاقتصادية التى أسهموا فيها .

أما حكومة السيد سعيد فكانت فى غاية البساطة : فليس ثمة مصالح حكومية ولا وزراء ولا جمع من كبار الموظفين . حتى الضرائب نفسها لم يكن يعهد بجبايتها إلى موظفى الدولة ، وإنما كان يعهد بها إلى زعماء العشائر . كما ترك الرسوم الجمركية فى أيدى جماعة من التجار الهنود الأغنياء عن طريق الالتزام ، بمعنى أنهم يدفعون له مبلغاً معيناً من المـال مقابل تحصيل هذه الرسوم . وقد استطاع هؤلاء الهنود أن يجمعوا ثروات ضخمة فى ظل هذا الحـكم ، حتى إن أحدهم توفى عن ثروة تقدر بثلاثة ملايين ريال ، أو ما يقرب من ٦٥٠٫٠٠٠ جنيه استرلينى .

ولم يكن النظام القضائى فى عهد السيد سعيد أقل من النظام الإدارى بساطة . فلم تـكن هناك محاكم بالمعنى المفهوم ، إذ كان الـكتاب والسنة مصدر التشريع الإسلامى الذى تـكون للشهادة فيه المقام الأول من وسائل الإثبات . وكانت المظالم ترفع إليه مباشرة أو إلى من ينوب عنه فى حالة غيابه . وكان السيد سعيد نفسه يفصل فى الجنايات ، فيحكم بالغرامة أو بالموت فى حالة ثبوت القتل . وقد يعدل عن تنفيذ حكم الإعدام إذا قبل ولى المقتول أخذ الدية .

وقد شهد الرحالة الأجانب الذين زاروا البلاد للسيد سعيد بالعدالة والمساواة بين رعاياه . ولم يعتمد فى تنفيذ سياسته إلا على نحو ثلثمائة من جنده المسلحين بالرماح والقسى جاء بهم من جزيرة سقطرة . وكانت هناك فرقة من الجند المرتزقة

من أهل البلاد تقوم بحراسة الطرقات وتقبض على المجرمين ، وكان السيد سعيد أقوى حكام المحيط الهندى بلا مراء . فقد كان أنفذهم كلمة وأشدهم بأسا وأكثرهم احتراما . وقد اشتهر بالبساطة والتواضع ، وكان يرتدى الرداء العربى البسيط ويضع على رأسه العمامة الملونة ولا يتحلى بالذهب والجواهر . وكانت داره المتواضعة تتألف من طابقين . ولم يجاوز حرسه اثنى عشر فارساً من أهل بمباى . وكان العجب يأخذ من السائحين الأجانب كل مأخذ إذا ما وازنوا بين ما كانوا يسمعونه عن صيته العظيم وما لمسوه من بساطته وكرمه واهتمامه بالوطنيين والأجانب جميعاً . وكان ساعده الأيمن فى هذه النواحى خميس بن عثمان وهو من المولدين ، وكان يتكلم كثيراً من اللغات الأجنبية كالإنجليزية والفرنسية والبرتغالية والهندية والملاوية (لغة الملايو) والسواحلية إلى جانب العربية . و« كانت بنية السيد سعيد القوية » ـ كما يقول كابتن جويليان Guillian الفرنسى ـ « وقامته المديدة وطلعته المهيبة، تضفى عليه وقاراً يفوق ما كان يتحلى به من الصفات . وقد لاحظ الزائرون الأجانب أنه كان من أبهى حكام الشرق طلعة وأوفرهم هيبة . ويكاد وصفهم له يرقى إلى حد الشعر ، ومحبة أهل زنجبار له تبلغ حد العبادة » .

وقد امتد نفوذ السيد سعيد شمالا حتى بلغ حدود الحبشة الجنوبية ، وجنوباً حتى موزمبيق البرتغالية . ولا عجب فإن السيد سعيداً لم يجد قوة أجنبية تقاسمه السلطان أو تنازعه الملك . وقد نمت المدن الساحلية فى عهده ، فازدحمت بالسكان ووفدت عليها السلع الأجنبية وازدهرت فيها التجارة ، ولاسيما فى مدينتى مقدشيو وكلوا . وكانت مدينة مقدشيو موضع عناية السيد سعيد ، فلم يبخل عليها بالمال لإنشاء المرافق العامة وإصلاح الطرق وبناء الأسوار . وكان يعين عمالا من أهالى البلاد الأصليين فى الغالب ، ينوبون عنه فى حكم المدن الهامة . وكان

---

(١) كوبلاند ص ٣٢٢ — ٣٢٨ .

كل واحد من هؤلاء العمال يستعين بفصيلة من الجند ويباشرون السلطات التى يباشرها السيد سعيد فى زنزبار ، فيقومون بجباية الضرائب وفض المنازعات وتحصيل الرسوم الجمركية وإقرار الأمن .

وقد رنا السيد سعيد ببصره إلى جزيرة مدغشقر وعمل على ضمها إلى مملكته ، فتزوج من ملكتها سنة (١٨٣٣) التى فتحت الطريق لتجارته ودفعت له ثلاثين ألف ريال فى كل سنة . وقد أخذ أهل زنزبار يستقرون فى هذه الجزيرة . وفى الوقت الذى أخذ فيه نفوذه يمتد إلى الجنوب ، أخذ نفوذه يضعف تدريجيا وبخاصة فى الجزء الشمالى من بلاده . ويرجع ذلك إلى قيام التنافس بين بعض القبائل العربية البدوية التى تقيم فى المنطقة الواقعة جنوبى نهر جوبا . ولم يكن أبغض إلى هؤلاء البدو من الخضوع لنظام الحكم مهما بلغ شأنه أو بلغت قوته . وكانت القبائل الصومالية وقبائل البنتو من هذا الصنف من البدو الأشداء المحاربين . وقد حاول سعيد أكثر من مرة أن يقر سيادته فى هذه المناطق الشمالية مستعينا فى ذلك بالحيل والقوة والمال . ولكن هذه المشروعات كان نصيبها الإخفاق (١٨٤٥) الذى كان فى الواقع بداية النهاية فى حياة سعيد السياسية .

وصفوة القول أن سعيدا كان — كما يقول كوبلاند — (ص ٣٦٠) هو الدولة والدولة هو . وكان هذا الملك الواسع رهينا بحياته ، وذلك بفضل سياسته الرشيدة وشخصيته الجذابة . فلا عجب إذا كانت حياة سعيد هى النهاية الطبيعية لهذا الملك الواسع وهذا الجاه العريض .

والعرب فى مملكة زنزبار الإسلامية أقل من السود من ناحية العدد . ومع ذلك فهم أسياد البلاد ، وهم يكونون طبقة خالصة الدماء ، ويعيشون كما يعيش الأمراء فى مزارعهم الجميلة ومساكنهم الحلوية التى يبنونها من الحجر . والسواحلية من الطبقة العالية الذين يمكنهم أن يصعدوا بأنسابهم إلى العرب ،

أقرب إلى العرب فى ملامحهم منهم إلى السودان . وهم يعتقدون أنهم عرب خلص. وهم متناسبو الخلقة قصار القامة فاتحو اللون . أما العرب الذين اختلطوا بالسودان بالمصاهرة ، فهم أقرب لونا إليهم ، ويزيد عددهم على ثلاث مئة ألف . وأكثر جنود زنزبار من العرب من حضرموت . ويكوِّن العرب والهنود فى زنزبار طبقة التجار الذين بيدهم تجارة البلاد .

والسواحلية مسلمون سنيون وعلى شىء من التهذيب ، وقد تركوا كثيراً من عاداتهم القديمة . وهم يرتدون الزى العربى القديم : فالرجال يلبسون ثوباً طويلا يسمونه « دِشْداشة » (بكسر الدال) ، يشدون فوقه نطاقاً . وهم يلبسون الجبة ، ومنهم من يلبس القفطان والعباءة وينتعلون النعال . أما النساء فيلبسن السراويل وثوباً يتدلى إلى الركبتين يشدون فوقه نطاقاً ، وعلى رءوسهن نسيج يشبه الكوفية ، فوقه حزام كعقال الرجال . ويصفِّفْن النقود الذهبية على رءوسهن ، ويكثرن من الأساور والخواتم ، ويستعملن القلائد والسلاسل الذهبية التى توضع حول العنق وترخى إلى الوسط ، ويصفِّرن وسط جباههن بالزعفران ، ويزججن الحواجب ويكحلن العيون ، ويصبِغْن أيديهن وأرجلهن بالحناء . والعامة منهن يتجولن نهاراً لقضاء لوازم بيوتهن ، والخاصة من المخضرمات كثيرات التحجب ، لا يبارحن بيوتهن نهاراً ، وربما خرجن ليلا للتنزه . وإذا لقيهن رجل فى الطريق عرَّج يمنة أو يسرة تأدباً منه ، أو وقف مختبئاً رعاية لحرمتهن .

والسواحلية يشتغلون عادة بالتجارة ، وبعضهم يشتغل بالسمسرة ، ويكتفى بعضهم بما يحصل عليه من غلة أرضه . وفى داخل البلاد تزرع النساء الذرة والبطاطا ، وينسجن الحصر وغيرها من المنسوجات الخشنة . ويقضى أكثر

الرجال أوقاتهم فى الصيد والقنص ، معتمدين على النساء فى قضاء لوازم بيوتهم وحرث أراضيهم[١] .

ويعزو سير توماس أرنولد وجود وطن إسلامى فى زنزبار ينافس الوطن الإسلامى الذى تقدمه فى الصومال إلى قدوم مهاجرين من الخليج الفارسى . وكان زعيم هؤلاء المهاجرين يدعى عليا ، وهو من أبناء أحد سلاطين شيراز من زوجة حبشية . وقد ازدراه إخوته وعاملوه معاملة قاسية حملته على أن يهجر وطنه ويبحث عن وطن آخر ، فأبحر من جزيرة هرمز ومعه زوجته وأولاده وجماعة صغيرة من أتباعه ، وسار متجنبا مقدشيو التى نزلت فيها جماعة من نواحى البحرين فرارا من ملك الأحساء على الخليج الفارسى ، بسبب مخالفته إياهم فى المذهب الدينى . لذلك مضى عليٌّ قدما نحو الجنوب حيث سمع بوجود الذهب بساحل زنزبار ، وأسس مدينة كِلْوا . وهناك استطاع أن يحتفظ بمركز مستقل وأن يكون متحررا من تدخل أسلافه المقيمين بعيداً عنه فى الشمال[٢] .

وكانت زنزبار منذ أقدم العصور أهم أسواق الرقيق فى إفريقية حتى أوقفت تجارته سنة ١٨٧٣ . وفى سنة ١٨٩٠ عقدت بين بريطانيا وفرنسا وألمانيا معاهدة اعترف فيها بمطالب فرنسا فى مدغشقر وانضمام هليجولاند إلى ألمانيا . وفى سنة ١٩٠٦ شددت بريطانيا قبضتها على محمية زنزبار وقامت بتنظيم حكومتها من جديد . وفى سنة ١٩١١ نزل السيد على عن العرش وخلفه السلطان خليفة بن حَروب (بفتح الحاء) . وفى سنة ١٩٢٥ ألف مجلس استشارى برياسة السلطان ، ثم حلت محله مجالس تشريعية وتنفيذية فى السنة التالية .

---

(١) حسن ابراهيم حسن : وصف إثنغرافى لأشهر الأمم التى تسكن شرق إفريقية ، رسالة خطية ص ١٣ — ١٨ .

(٢) سير توماس أرنولد . الدعوة إلى الاسلام ، ترجمة ص ٣٨٧ .

ويحسن بنا أن نختتم هذا الباب بإيراد إحصاء نقف منه على عدد المسلمين ، وعلى نسبتهم المئوية بالنسبة إلى عدد سكان بلاد القارة الإفريقية .

بلغ عدد سكان العالم فى سنة ١٨٦٣ : ١٫٢٥٠ مليون نسمة ، وزاد هذا العدد حتى بلغ فى سنة ١٩٦٣ : ٣٫١٥٠ مليون . وقد ذكر علماء الإحصاء أن عدد سكان العالم سيبلغ ٦٫٥٠٠ مليون فى سنة ٢٠٠٠ م . وقد زاد عدد سكان العالم باختلاف البلاد ، ويزيد عدد سكانه بصفة عامة ٥٤ مليون نسمة سنويا ، أى بنسبة ١٫٨٪ ، وترجع زيادة عدد السكان إلى انخفاض نسبة الوفيات وارتفاع نسبة المواليد نتيجة لارتفاع مستوى الحياة من جهة ، وما يقدمه العلم الحديث من جهود للقضاء على الأمراض المعدية من جهة أخرى .

وقد أفردنا هذا الكشف لبيان كل من أقطار القارة الإفريقية وحاضرة كل قطر ، وعدد سكانه ، والسنة التى تم فيها تعدادهم ، مع ذكر عدد المسلمين ونسبتهم المئوية إلى مجموع السكان . والسنة التى نالت فيها الأقطار الإفريقية استقلالها حتى بلغ عدد الدول المستقلة اثنتين وثلاثين دولة .

ومجمع هذه الأرقام يتضح أن عدد سكان القارة الإفريقية يبلغ على وجه التقريب ٢٧٠٫٣٣٧٫٣٧٩ نسمة ، وعدد المسلمين فيها ١٣٢٫٥٦٢٫٣١٩ نسمة . وقد استعنا فى وضع هذا الجدول بالمؤلفات والتقاويم المختلفة وفق آخر إحصاء .

البلد	الحاضرة	السكان	سنة التعداد	المسلمون	النسبة	سنة الاستقلال	ملاحظات
مصر	القاهرة	٢٦ر٠٦٥ر٠٠٠	١٩٦١	٢٣ر٩٧٩ر٤٠٠	٩٢	١٩٢٢	
السودان	الخرطوم	١٢ر٢٠٩ر٠٠٠	١٩٦١	٩ر٦٨٧ر٢٠٠	٨٠	١٩٥٦	
ليبيا		١ر٢٦٠ر٠٠٠	١٩٦١	١ر١٩٩ر٦٠٠	٩٦	١٩٥١	
تونس	تونس	٤ر١٦٨ر٠٠٠	١٩٦١	٣ر٧٩٢ر٨٨٠	٩١	١٩٥٦	
الجزائر	الجزائر	١٠ر٧٨٦ر٠٠٠	١٩٦٠	٩ر٠٠٠ر٠٠٠	٨١	١٩٦٢	
المغرب	الرباط	١٢ر٣٠٠ر٠٠٠	١٩٦١	١١ر٥٦٢ر٠٠٠	٩٤	١٩٥٦	
المغرب الإسبانية		٢١٥ر٠٠٠	١٩٦٠	١٩٧ر٨٠٠	٩٣		
موريتانيا	نيا كشوط	٧٢٧ر٠٠٠	١٩٦١	٧١٩ر٧٣٠	٩٩	١٩٦٠	
الصومال	مقدشيو	٢ر٣٠٠ر٠٠٠		٢ر٣٠٠ر٠٠٠	١٠٠	١٩٦٠	
الصومال الفرنسى	جيبوتى	٨١ر٠٠٠	١٩٦١	٧٨ر٧٥٠	٩٧		
زنزبار	زنزبار	٢٩٩ر٠٠٠	١٩٥٨	٢٩٩ر٠٠٠	١٠٠		
كينيا	نيروبى	٧ر٢٨٧ر٠٠٠	١٩٦١	٢٩١ر٠٠٠	٤		
تنجانيقا	دار السلام	٩ر٤٠٣ر٠٠٠	١٩٦٢	١ر٨٨٠ر٦٠٠	٢٠	١٩٦١	
إثيوبيا	أديس أبابا	٢١ر٨٠٠ر٠٠٠	١٩٦١	٦ر٤٥٠ر٠٠٠	٣٠		
أوغندة	كمبالا	٦ر٥٣٨ر١٧٥	١٩٥٩	١٩٧ر٤٩٣	٣	١٩٦٢	
موزمبيق		٦ر٥٩٢ر٩٩٥	١٩٦٠	٦٥٩ر٢٩٩	١٠		
مدغشقر	تناناريف	٥ر٦٥٧ر٦٠١	١٩٦٢	١ر١٣١ر٥٢٠	٢٠	١٩٦٠	
نياسالاند	زمبا	٢ر٩٢١ر٠٠٠	١٩٦١	٢٦٨ر٧٣٢	٩ر٢		
روديسيا الشمالية	نوسوكا	٢ر٥١٠ر٠٠٠	١٩٦١	١٢٥ر٥٠٠	٥	١٩٢	
« الجنوبية	سلسبورى	٣ر٨٤٩ر٠٠٠	١٩٦١	٣٨ر٤٩٠	١		
باسوتولاند	ماسيرو	٨٠٠ر٠٠٠	١٩٦٠	١٣٠ر٤١٧	١٢ر٨		
بتشوانا لاند	ميفكنج	٣٥٠ر٠٠٠	١٩٦٠	٦٦ر٥٠٠	١٩		
سوازيلاند		٢٤٥ر٠٠٠ تقدير	١٩٦٠	؟			
جزيرة موريتيوس	لورتروماركس	٦٨٠ر٠٠٠	١٩٦٢	١٠٢ر٠٤٥	١٥		
جمهورية جنوب إفريقية	بريتوريا	١٦ر٥٠٠ر٠٠٠	١٩٦١	١٦٥ر٠٠٠	١	١٩٣١	
سيشل		٤٣ر٧٥٠	١٩٦٢	١٣ر٢٢٥	٣٠		
رواندا							
بوروندى	أوسومبورا	٤ر٩١٣ر٥٠٠	١٩٦٠	٢ر٥٠٠			

البلد	الحاضرة	السكان	سنة التعداد	المسلمون	النسبة	سنة الاستقلال	ملاحظات
أرخبيل قمر	دزا أو ادزى	١٨٣ر١٣٣	١٩٥٨	١٨٢.٠٠٠	٩٩		
مالى	باماكو	٤ر٣٠٧ر٠٠٠	١٩٦١	٣ر٦٦٠ر٩٥٠	٨٥	١٩٦٠	
السنغال	دكار	٢ر٥٩٥ر٠٠٠	١٩٦٠	١ر٩٤٦ر٢٥	٧٥	١٩٦٠	
غامبيا	باثورست	٢ر٧٠٠ر٠٠٠	١٩٦٠	١ر٢٦٨ر٠٠٠	٨٤		
غينيا البرتغالية	بساو	٥٤٤ر٠٠٠	١٩٦٠	٤٥٧ر١١٤	٨٤		
غيانا الفرنسية	كايين	٣٣ر٦٩٨	١٩٦١				
جزائر الرأس الأخضر		٢٠١ر٥٤٩	١٩٦٠				
غامبيا البريطانية		٢١٦ر٠٠٠	١٩٦٢	١٨٣ر٦٠٠	٨٥		
غينيا	كوناكرى	٣,٠٠٠,٠٠٠ تقريبا	١٩٦١	٢ر٧٢٧ر٨٦٨	٨٥	١٩٥٨	
غينيا الإسبانية	باتا	١٩٨ر٠٠٠	١٩٦٠	٥٩ر٤٠٠	٣٠		
سيراليون	فريتاون	٢ر٥٠٠ر٠٠٠	١٩٦٠	٢٧٥ر٠٠٠	١١	١٩٦٠	
الكمرون	ياوندى	٤ر٩٠٧ر٠٠٠	١٩٦١	٢ر٦٩٨ر٨٥٠	٥٥	١٩٦٠	
ساحل العاج	أبديجان	٣ر٢٠٠ر٠٠٠	١٩٦٠	٧٥٢ر٠٠٠	٢٣ر٥	١٩٦٠	
توجو	لومى	١ر٥١٦ر٠٠٠	١٩٦٠	٤٥ر٤٨٠	٣	١٩٦٠	
غانة	أكرا	٧ر١٠٠ر٠٠٠	١٩٦٣	١ر٤٢٠ر٠٠٠	٣٠	١٩٦٠	
ليبريا	منروفيا	١ر٦٠٠ر٠٠٠	١٩٦١	٣٢٠ر٠٠٠	٢٠	١٨٤٧	
داهومى	بورتونوفى	٢ر٠٥٠ر٠٠٠	١٩٦١	٣٠٧ر٥٠٠	١٥	١٩٦٠	
جابون	ليبرفيل	٤٥٠ر٠٠٠	١٩٦١	٩ر٠٠٠	٢٠	١٩٦٠	
النيجر	نيامى	٢ر٨٥٣ر٠٠٠	١٩٦٠	٢ر٥٦٧ر٧٠٠	٩٠	١٩٦٠	
نيجيريا	لاغوس	٤١ر٠٠٠ر٠٠٠	١٩٦٢	٣٢ر٨٠٠ر٠٠٠	٨٠	١٩٦٠	
جمهورية إفريقية الوسطى	بانقى	١ر٢٠٠ر٠٠٠	١٩٦٠	١٢٠ر٠٠٠	١٠	١٩٦٠	
شاد	لامى	٢ر٥٨٣ر٣٤٢	١٩٥٧	٢ر١٩٥ر٠٠٠	٨٥	١٩٦٠	
فولتا العليا	أواجادوجو	٤ر٤٠٠ر٠٠٠	١٩٦٠	٣ر٣٠٠ر٠٠٠	٧٥	١٩٦٠	
الكونغو (ليوبولدفيل)	ليوبولدفيل	١٤ر١٥٠ر٠٠٠	١٩٦١	٢٦٨ر٥٠٠	١٩	١٩٥٩	
« (برازافيل)	برازافيل	٩٠٠ر٠٠٠	١٩٦١	٤٥٠ر٠٠٠	٥٠	١٩٦٠	
إفريقية الجنوبية الغربية	وندهوك	٦١٥ر٩٥٩	١٩٦٠	٢٠٩ر٤٢٦	٣٤	١٩٦٠	
أنجولا	سانت بول دى لواندا	٤ر٨٣٢ر٦٧٧	١٩٦٠				

الباب الخامس

الثقافة العربيـــة فى إفريقية

أولا — الثقافة العربية فى غربى إفريقية

كان طالب العلم[1] الذى أنهى دراسته وصار عالماً يدعو الناس إلى الإسلام ويفقههم فى الدين ، يلقى تكريماً ، باعتباره رجل علم تفقّه فى الدين والشريعة الإسلامية ، بل كان أحياناً يزاول الطب ، وأحياناً يركن إلى كتابة تعاويذ وآيات من القرآن ، تُطوى فى قطع من الجلد أو القماش ، وتعلق على الأذرع ، أو حول العنق . وهى مهمة يستطيع المعلم أن يستغلها كوسيلة لتحويل الناس إلى الإسلام . ولقد كانت النساء العواقر أو اللاتى فقدن أولادهُنّ أطفالا يطالبن من هؤلاء المعلمين هذه التعاويذ ، وكان المعلم يشترط لنجاح هذه التعاويذ أن يُنشِّىء ، هؤلاء النسوة أطفالهن على الإسلام . وإن هؤلاء المعلمين الدينيين ، أو المرابطين يحظون بأقصى نصيب من التقدير . وفى بعض قبائل إفريقية الغربية تضم كلُّ قرية داراً لاستقبال هؤلاء المعلمين الذين يعاملون بأعظم مظاهر الاحترام ويعتبر الرؤساء أصحاب المناصب غير الدينية أقل هيبة من هؤلاء المعلمين الدينيين. والدول التى اتخذ فيها القرآن أساساً للحكم فى كل المسائل المدنية تحتاج إلى خدمات هؤلاء المعلمين لكى يفسروا معانى القرآن الكريم . وقد بلغ من احترام الناس لأشخاص هؤلاء المعلمين ، أنه كان لا يتعرض لهم أحد حين يجوسون خلال إمارات لا يعادى بعضها بعضاً فحسب ، بل يقاتل بعضها بعضا فى حرب فعلية

---

(١) ترجمة : الدعوة إلى الإسلام ص ٢٩٧ — ٢٩٨ .

(بمعنى أن هؤلاء المعلمين كانوا موضع احترام فى وقت السلم ووقت الحرب أنى ساروا) .

وقد درس كثير من هؤلاء المعلمين الدينيين فى معاهد القيروان وطرابلس وفاس والقاهرة ، فإذا ما أتموا دراستهم فى الدين والشريعة الإسلامية ، أصبح كثير منهم دعاة دينيين بين أهالى بلادهم الأصلية . فإذا نال الداعى المسلم حظاً موفوراً من العلم والمعرفة ، استطاع أن يؤثر فى نفوس الأهالى الذين أخذ على عاتقه دعوة الدين الحنيف والثقافة الإسلامية بينهم ، وساعده فى بلوغ غايته معرفته بعاداتهم وطباعهم . وكثيراً ما كان التاجر المسلم يمهد السبيل للمعلم ، وإذا ما أصهر هذا المعلم إلى أهالى البلاد ، رحبوا بدخوله فى نظامهم الاجتماعى . وتوطد نفوذه . وكتب له النجاح فى رسالته الدينية . وهكذا تنشر بين أهالى هذه البلاد معارف الإسلام شيئاً فشيئاً وبطريقة طبيعية[1] .

وللثقافة العربية فى غربى القارة الإفريقية أثر واضح فى انتشار الإسلام وتعريف الناس بتقاليد هذا الدين الحنيف ، ومُثُلِه العليا ، وثقافته ، التى تستمد أصولها من القرآن والسُّنة .

وكان لهذه الثقافة مراكز تشع منها أضواء العلم والعرفان ، على الرغم مما وصم به كثير من المستعمرين القارة الإفريقية بأنها مهد الجهل والظلام . وهذا الرأى بلا ريب لا يخلو من كثير من المبالغة . وقد بدأت الثقافة الإسلامية فى هذه البيئة الجديدة ، وأصبحت المساجد التى بناها موسى بن نُصَيْر فى مدينة أغمات من أهم مراكز الثقافة الإسلامية فى المغرب الأقصى ومن أوليات المدن التى أشعت النور والعرفان فى القارة السوداء .

وكان تأسيس مدينة فاس فى أواخر القرن الثانى للهجرة (١٩٢ هـ) فاتحة

---

(١) سير توماس أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ، ترجمة ص ٢٩٧ — ٢٩٨ .

عهد جديد فى تاريخ الثقافة العربية فى المغرب الأقصى وغربى القارة الإفريقية . فقد أصبحت هذه المدينة مثابة للعلم يقصدها العلماء من كل حدب وصوب ، وأخذت معاهدها تتأثر بالمؤثرات الثقافية من معاهد القيروان والأندلس وتنشرها فى البلاد . وإلى هذه المعاهد يرجع الفضل فى نشر الدين الإسلامى واللغة العربية . وكانت الخطوة التالية فى تطور الثقافة العربية فى هذه البلاد ، امتداد هذه الثقافة فى غربى هذه القارة ، فنشأت مراكز هامة كان لها أثر بعيد فى الحياة الثقافية ، مثل أودَغُشْت ، وچينى ، وتمبكتو ، وكانوا ، وغيرها[1] . ويقابل هذا مراكز أخرى للثقافة العربية فى شرقى القارة الإفريقية مثل مصر والسودان والحبشة والصومال وزنزبار .

١ — أودَغُشْت

وتعتبر أودَغُشْت (بضم الألف والغين وفتح الدال وسكون الشين والتاء) أو أودُغُشْتَ (بفتح التاء) من أهم مراكز الثقافة الإسلامية فى شمالى غربى القارة الافريقية وهى مدينة قديمة لم يعد لها الآن وجود ، وتقع كما يقول البكرى[2] ، بين بلاد الزنوج وسجلماسة على مسافة واحد وخمسين يوما من واحة سجلماسة وخمسة عشر يوما من غانة ، وتقع بين خطى عرض ١٨ : ١٩ شمالى خط الاستواء جنوب غربى تَجْـكَة (بفتح التاء وسكون الجيم) ، وهى موقع حربى فى موريتانيا .

ويظهر أن أودغشت كانت أول الأمر محطة تجارية لصنهاجة على الحدود الشمالية لمملكة غانة وبذلك تكون مدينة أودغشت آخر معاقل المغرب الجنوبى فى أواخر التاريخ الوسيط . ولما فتح الصنهاجيون جزءاً كبيراً من بلاد غانة حول نهاية القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) ، أصبحت أودغشت حاضرة

(١) حسن ابراهيم حسن : انتشار الإسلام والعروبة فى القارة الإفريقية (الطبعة الأولى) ص ٥٠ — ٥١ .

(٢) المسالك والممالك (ترجمة دى سلان) ص ٣٤٩ وما يليها .

لتلك القبيلة القوية . وبين سنتى ٣٥٠ ، ٣٦٠ هـ (٩٦١ ـ ٩٧١ م) كان يلى شئون هذه المملكة « تين بروتن » ، وهو أمير صنهاجي كان يتبعه أكثر من عشرين ملكا من ملوك السودان . وكان طول مملكة غانة ستين يوما وعرضها ستين يوما . وفى القرن التالى أغار عبد الله بن ياسين مؤسس دولة المرابطين على أودغشت ٤٤٦ ـ ٤٤٧ هـ (١٠٥٤ ـ ١٠٥٥ م) . ثم بدأت قوة صنهاجة فى الانحلال .

وفى أوائل القرن السابع الهجرى (الثالث عشر الميلادى) أغار ينوسسو زعيم السودانيين على أودغشت وأخرج الصنهاجيين منها[1] .

وكانت أودغشت فى عهد أبى عبيد البكرى[2] المتوفى سنة ٤٨٧ هـ (١٠٩٤م) لا تزال مدينة زاهرة ، يتألف سكانها من عرب المغرب ومن حلفائهم من إفريقية ومن البربر من بِرْكانية (بكسر الباء وسكون الراء) ، ولواته (بفتح اللام والتاء) ، وزناتة (بفتح الزاى والتاء) ، ونَفوسه (بفتح النون والسين) ، ونِفْزاوة (بكسر النون وسكون الفاء) بنوع خاص ، وكذلك فى السودان . وكانت تحيط بأودغشت البساتين والنخيل ، وفيها مساجد ومدارس وأبنية عامة جميلة ومنازل رائعة وأسواق عامرة ، وتجارات نافعة فى الحبوب والفاكهة التى ترد إليها من البلاد الإسلامية ، وفى الكهرْبا أو الكهرمان الذى يرد إليها من سواحل المحيط الأطلسى ، كما كان فيها مصنوعات معدنية راقية ، وكانت تتجر فى الأقمشة الحريرية الموشاة التى يدفع ثمنها تبراً .

وقد اضمحلت أودغشت فى عهد الشريف الإدريسى المتوفى سنة ٦٤٩ هـ (١٢٥١ م) ، وقلّ سكانها وخمل شأن تجارتها ، وأصبحت تربية الإبل مصدر

(١) حسن ابراهيم حسن : انتشار الإسلام والعروبة فى القارة الإفريقية ص ٥٦ ـ ٥٧

(٢) المسالك والممالك (طبعة دى سلان) ص ٣٤٩ وما يليها .

معيشة أهلها . وكان سقوطها النهائى راجعاً إلى ضياع شوكة الزناتيين على يد المرابطين[1] .

٢ — جنى

وقد تأسست على نهر النيجر الأعلى مدينتان قُدِّر لهما أن تؤثرا فى القرون المتعاقبة تأثيراً قويا فى تقدم الإسلام فى السودان الغربى : إحداهما مدينة جِنّى (بكسر الجيم والنون مع التشديد)[2] التى غدت مركزاً تجاريا هاما ، والأخرى تمبكتو (Tumbuktu) (بضم التاء وسكون الميم وفتح الباء وسكون الكاف وتكتب أيضاً الواو مع ضم التاء الثانية) ، أما مدينة جنى فكانت مركزاً هاما لتجار القوافل مع الشمال .

وقد تأسست حول سنة ٤٩٤ هـ (١١٠٠ - ١١٠١ م) . وذلك فى عهد الدولة المرابطية بالمغرب . وقد أسلم كنبرو (Kumbru) ملك جنى حول نهاية القرن السادس الهجرى (أى حول سنة ١٢٠٠ م) وحذا حذوه رعيته .

وقد قيل إن كنبرو لما عزم على اعتقاد الإسلام جمع كل العلماء فى مملكته وكان عددهم على ماذكره السعدى يبلغ أربعة آلاف ومائتى عالم . ثم طلب هذا الملك إلى هؤلاء العلماء أن يدعوا الله أن ينصر مدينته ، ثم هدم قصره . و بنى مكانه مسجداً عظيما . مبالغة فى حبه للدين[3] ومهما يكن عدد هؤلاء العلماء مبالغاً فيه ، فان هذه الرواية تبين لنا ، على ما ذكره سير توماس أرنولد[4] ، أن

---

(١) Barth, vol. 7, p. 34 note 4.
أنظر حسن ابراهيم حسن : انتشار الإسلام والعروبة فى القارة الإفريقية ص ١٤٥ — ١٤٦ .

(٢) ويقال لها جنى أو دينيه ، « ولعل دينيه » هذه تحريف فى نطق جنى .

(٣) السعدى : تاريخ السودان ص ١٢ — ١٣ .

(٤) الدعوة إلى الإسلام ص ٢٦٩ — ٢٧٠ .

الإسلام قد تقدم تقدما عظيما فى البـلاد التابعة لـكُنبرو ملك چنى ، وقد أثنى ابن بطوطة[1] الذى تنقل فى هذه البلاد فى القرن الثامن الهجرى (الرابع عشر الميلادى) على الزنوج لحماستهم فى أداء عبادتهم وفى دراسة القرآن الـكريم . ويخبرنا هذا الرحالة المغربى أنه إذا كان يوم الجمعة ولم يُبَـكِّر الإنسان إلى المسجد لم يجد أين يصلى فيه لـكثرة الزحام .

٣ — تُمبكتو أو تمبكت

وكانت تمبكتو التى تأسست حول سنة ١١٠٠ م على ضفة نهر النيجر إلى جانب شهرتها التجارية ـ كما يقول السعدى[2] — مدينة إسلامية منذ البداية ، مادنستها عبادة الأوثان ، ولا سُجد على أديمها قط لغير الرحمن .

وأصبح لتمبـكتو شأن عظيم باعتبارها مركزاً للتعاليم الإسلامية وللعبادة ، وتوافد عليها الطلاب وعلماء الدين زرافات ووحدانا ، بفضل ما كانوا يَلقَونه من تشجيع ورعاية .

ولمدينة تمبكتو ميزتان ، الأولى : أنها كانت مركزاً هاما من مراكز انتشار الإسلام فى إفريقية الغربية ، والثانية أنها كانت إحدى مراكز الثقافة العربية الهامة . وكان بها معهد شهير (تخرج فيه علماء ومؤرخون كان لهم فضل كبير فى نشر الإسلام والثقافة العربية . مثل أحمد بابا التمبـكتى فى كتاب نيل الابتهاج بتطريز الديباج ، و يسميه بعضهم بابا التمبـكتى . و يعتبر هذا الـكتاب تـكملة لـكتاب الديباج المذهب لابن فرحون ، وقد ترجم أحمد بابا التمبـكتى لعلماء المالـكية الأعلام الذين ظهروا فى الفترة الفاصلة بينه و بين أستاذه ابن فرحون[3]

(١) رحلة ابن بطوطة ج ٤ ص ٤٢١ — ٤٢٢ .

(٢) تاريخ السودان ص ٢١ .

(٣) وقد نشر م. هوداس M. Houdas عدداً من مؤلفات السودان أهمها كتاب —

وقد أصبحت تمبكتو سوقا نافقة يؤمها التجار ويفد عليها الرحالة بطريق الهند ، أو تقصدها قوافلهم من ساحل المغرب الأقصى وطرابلس ، وكانت مدينة « دلاته » سوقا للتجارة قبل تمبكتو ، وسرعان ما اقتفى العلماء أثر التجار . فكانوا يفدون عليها من مصر وغدامس وفاس والسوس وغيرها . وقد أنشئت في المدينة أبنية حسنة ، بنيت من حولها الأسوار ، وحلت المساكن المبنية من اللبن محل الأكواخ المقامة من غصون الشجر والقش ، وبنى في تمبكتو مسجد آخر شماليها[1] .

وقد هاجرت أول أسرة حكمت تمبكتو من مالى سنة ١٣٣٦ م وظلت هذه الأسرة المالية تحكم تمبكتو حتى سنة ١٤٣٣ م ، وفى هذه الفترة زار الرحالة المغربى ابن بطوطة تمبكتو ووصفها وصفاً شائقاً ، وذكر أن أهلها يدينون بالإسلام وكانت قبيلة مَسُوفة المغربية أهمّ القبائل التى هاجرت إلى تمبكتو وكانت من الملثمين ؛ ذلك اللفظ الذى أطلق على من يتلثّم أى يغطى وجهه بالنقاب[2] .

وكذلك حكم تمبكتو قبيلة تدعى طوارق مغشرن وهم من بربر الصحراء وظل حكمهم أربعين سنة ، ثم خلفهم غازٍ يدعى سُنِّى (بضم السين وتشديد النون مع الكسر) حكمها بين سنتى ١٤٦٨ و١٤٩٢ .

— « تاريخ السودان للسعدى » « ومعجم الباشوات » . وأشهر كتاب تمبكتو هو احمد بابا الذى ألف معجما فى التراجم . وقد أسره المغاربة عند غزوهم تمبكتو وحملوه الى المغرب الأقصى حيث عاش إلى سنة ١٥٩٧ م وتوفى فى تمبكتو سنة ١٦٢٦م .

انظر كاراده فوه Carra De Vaux فى مادة تمبكتو فى دائرة المعارف الإسلامية ، والحسن بن محمد الوزان المعروف باسم ليو الإفريقى Lion Africain, Description de l' Afrique ed. Épaulard (Paris, 1956), tone ii.

(١) حسن ابراهيم حسن : انتشار الإسلام والعروبة فى القارة الإفريقية ص ١٤٨ .

(٢) Fuynbollet, de Joeje Dscription du Maghreb, (Leiden, 1860) p. 48.

انظر حسن ابراهيم حسن : انتشار الإسلام والعروبة فى القارة الإفريقية ص ١٤٨ هامش (١) .

وقد ذكر المؤرخون أنه لم يكن حميد السيرة ، وأنه اضطهد العلماء وسخر بالدين ، على أن بيت صُنْغاى الذى انحدر من هـذا الرجل قد ساعد على رقى تمبكتو ، وشجع حكامُ هذا البيت العلم ورَعَوا الأدب ، حتى انتقلت السلطة إلى المرغنيين حيث غزاها جَوْدر باشا مراكش ، سنة ١٥٩٠ م من قِبل أحمد المنصور الذهبي ، وظلت تمبكتو تحت نفوذ المغرب إلى سنة ١٥٧٠م . ثم استردها الطوارق السودانيون سنة ١٧٩٢م ثم استولى عليها شعب « الفُلْبِه » السودانى سنة ١٨٢٧ م ، وظلت على ذلك حتى وقعت فى أيدى الفرنسيين .

وقد اتصل الأوربيون بتمبكتو ، أول الأمر فى القرن الخامس عشر الميلادى فكانت بينها و بين إيطاليا ، وخاصة فلورنسه ، علاقات عن طريق تونس وطرابلس . وكانت تخرج منها أربع طرق كبيرة من طرق القوافل .

الأول — يقصد مصر و يمر بـكانم وجاوه .

الثانى — يقصد تونس و يمر بهُجار .

الثالث — يقصد المغرب الأقصى و يمر بسجلماسة وتافيلالت وتُوات .

الرابع — يقصد السودان و يمر بمالى .

وقد أعجب الحسن بن محمـد الوزان Leo Africanis بتمبكتو وقال إنها كانت عامرة بحوانيت الصناع والتجار ولا سيما الحوانيت التى تباع بها المنسوجات القطنية والأقمشة المصنوعة فى أوربا التى يحملها تجار المغرب[1] وبها معبد مبنى من الحجر والـكلس بناه مهندس بارع من أهل غرناطة يسمى إسحاق الساحلى الغرناطى ، وبها قصر رائع يقيم فيه الملك . بناه نفس المهندس المعمارى وقد حلى بكثير من الصور . وكان بيت ماله عامراً بالأموال وقضبان الذهب . وكان أحد هذه القضبان يزن ١٫٣٠٠ رطل (أى ٤٤٠ كيلو جرام) .

---

(١) Tome II, p. 38, note 307.

واشتهرت تمبكتو فى ذلك الوقت بتجارة الذهب وريش النعام ، والعاج والعبيد .

وكان نساء تمبكتو يغطين وجوههن بالنقاب . عدا الجوارى اللاتى كنّ يبعن أنواع الطعام كافة . وكان أهلها على جانب عظيم من الثراء . وقد زوج عمر ابن محمد الندى (بفتح النون مع التشديد وكسر الدال) حاكم تمبكتو من قبل امبراطور صُنغاى (بضم الصاد وسكون النون) فى جآو ابنتيه من أخوين من تجار تمبكتو لثرائهما الواسع . وكان فى تمبكتو كثير من الآبار ذات المياه العذبة ، كما يصل إليها الماء عن طريق جداول تتفرع من نهر النيجر . وتكثر فيها الحبوب والماشية ، بدليل كثرة استهلاك الحليب والزبد . ولكن على العكس من ذلك ، يلاحظ غلاء الملح وندرة وجوده ، إذ يؤتى به من تغزه (بفتح التاء وكسر الغين وفتح الزاى) التى تبعد عن تمبكتو بنحو خمسمائة ميل [(١)] .

ومما يؤثر عن هذا الملك أنه أعلن عداءه لليهود ، حتى إنه لم يقم فى بلاده يهودى واحد ، وإذا نمى إليه أنه كان لأحد التجار علاقة مع يهودى صادر أمواله.

ويقول الحسن الوزان[(٢)] إنه كان بتمبكتو كثير من القضاة والأطباء والدعاة الذين كانوا يعينون بأمر ملكى . وكان الملك يحترم العلماء والأدباء ويشترى كثيراً من المخطوطات ، ولا يبخل بدفع أثمانها مهما ارتفعت ، مما يدل على تقديره الشديد لرجال العلم والأدب .

ثم انقطعت الصلة بين تمبكتو وأوربا بعد القرن السادس عشر الميلادى ، وكان الأوربيون يتحدثون عن جمالها ووفرة ثروتها وتجارتها فى الذهب وريش النعام والعاج والعبيد ، وظلت على ذلك إلى أن ارتادها الرائد الفرنسى ريني چنيه.

---

(١) Ibid., tome 1, p. 468

(٢) Tome II, p. 468, note 47

René Jaillié سنة ١٨٢٨ واتضح له أنه كان واهماً فى تقدير شأنها . ثم زار بارث Barth تمبكتو سنة ١٨٥٣ ثم تطلعت أنظار فرنسا إلى احتلال تمبكتو فأصبحت فى عداد المستعمرات الفرنسية سنة ١٨٩٣ ، ولم تَعُدْ هذه المدينة متسعة الرقعة كما كانت فى أيام ملوك صُنغاى ، وأصبح لا يصل إليها أحد فروع النيجر كما كان من قبل . على أن أطلالها تقوم الآن جنوبيه على مسيرة عشرة أميال . وتسير قوافل الملح إليها حتى الآن فى حركة دائبة .

٤ — كانو

ومن مراكز الثقافة الإسلامية بغربى القارة الإفريقية « كانو » وهى من أهم مدن شعب الحوصا (بفتح الحاء وسكون الواو) شمالى نيجيريا الحالية . ولغة الحوصا لاتزال منتشرة على نطاق واسع فى غربى إفريقية ، فهى Lingua Franca أى لغة المعاملات التجارية والمالية . ومما يؤسف له أن الفاتحين من الفُلانى (بضم الفاء) قد قضوا على كل الوثائق المسجلة التى يمكن الاعتماد عليها فى تاريخ هذه الشعوب . ويمكن أن يقال إنه كانت هناك سبع إمارات تابعة للحَوْصا هى إمارات : كانو ، ورانو ، وزازيا ، ودورا (بضم الدال) وجوبير، وكتسينا (بفتح الكاف وسكون التاء) وزامفارا . وقد قامت هذه الإمارات فى وقت مبكر ، وتستمد كل إمارة اسمها من اسم المدينة الرئيسية فيها . ومما ساعد هذه الإمارات على البقاء ، أن شعب الحوصا يميل إلى التجارة التى تقوم على التعاون السلمى مع قوى العدو . وهذه الحقيقة هى التى أتاحت لبعض هذه الإمارات ، وخاصة إمارة كتسينا ، أن تحتفظ بمكانتها كمركز من مراكز الثقافة الإسلامية .

وقد بدأت بلاد الحوصا وهى فى عز قوتها وسؤددها تتعرض لهجرات سلمية ذات أثر بعيد فى تاريخ هذه البلاد ، وهى هجرات شعب الفلانى الذى يرجح أنه

استقر فى بلاد التكرور على نهر الجمبيا حول القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) وقد دانوا بالإسلام فى وقت مبكر، ويتحدث فرانسيس مور الذى زار موطنهم على نهر الجمبيا سنة ١٧٣١ عنهم فيقول إنهم ينتشرون على نهر الجمبيا، وإنهم يشبهون العرب، ومعظمهم يتكلم العربية لأنهم يتعلمونها فى مدارسهم. ولهم لغة غير مهذبة تسمى « فولى ». وهم يزرعون القمح والقطن أكثر مما يفى بحاجتهم ويبيعونه بسعر معتدل، ويشتهرون بالكرم. فإذا علموا أن أى فرد من جماعتهم قد أخذ رقيقاً اجتمع الفُلانيون وحرروه[١].

وتبعد « كانو » عن نهر النيجر بنحو خمسمائة ميل (ثمانمائة كيلو متر) ويسكن هذه المدينة « كانو » صناع على جانب عظيم من الرقى وكثير من مياسير التجار. وكانو ولاية كبيرة يعيش أهلها على تربية الماشية والبقر وفلاحة الأرض، ويزرعون الحبوب[٢]. وكان أغلب سكانها يدينون بالوثنية، على حين نجد العناصر القريبة من المغرب تدين بالإسلام. ولم تحرز المسيحية تقدماً إلا فى قليل من المناطق التى تقيم بها جمعيات تبشيرية. ومن الحقائق المسلم بها أن الوثنية فى نيجيريا آخذة فى الاختفاء لتحل محلها الأديان السماوية ولا سيما الإسلام. والدين الإسلامى يلقى إقبالاً عظيما من الأهالى الذين يستظلون بظل الإسلام بنسبة لا تقل عن ٩٠٪ على حين نجد المسيحية لم تكسب من تحول هؤلاء السكان عن الوثنية إلى المسيحية إلا بنسبة ١٠٪.

ويقوم بنشر تعاليم الإسلام فى هذه البلاد إفريقيون مسلمون وينشر المسيحية أوربيون لا يختلطون بالناس ولا يعرفون لغتهم على الرغم من تعضيد

---

(١) أنظر حسن ابراهيم حسن : انتشار الإسلام والعروبة فى القارة الإفريقية ص ٧٥

(٢) Tome II, p. 476 et note 86.

(٣) Francis Moore, Travels in the Inland Parts of Africa (London, 1760) pp. 75—77.

راجع سير توماس أرنولد : الدعوة إلى الإسلام، ترجمة ص ٢٧٤.

السلطات الاستعمارية والجمعيات التبشيرية . إذ أن سكان هذه المناطق من السود يخافون الإنسان الأبيض ويفزعون منه كما يفزع الإنسان من حيوان مفترس . وهذا يعلل بطء انتشار المسيحية ، وسرعة انتشار الإسلام ، إذ أن الدعاة المسلمين قريبون منهم فى اللون وفى الروح وفى العادات والتقاليد . فالداعى المسلم أو المعلم المسلم يستطيع أن يؤا كل هؤلاء الأهالى ويصاهرهم ، وينام حيث ينامون ويجلسُ حيث يجلسون ، على حينٍ لا يستطيع الأوربى بأى حال أن يندمج معهم مثل هذا الاندماج ، وإذا ماحاول ذلك كان عن تكلف وتصنّع يبدو منفراً لهؤلاء الأهالى . وهذا يعلل لماذا سار الإسلام فى طريقه قُدُماً حتى بعد أن خضعت نيجيريا للحكم البريطانى ، ويقول سير ألان بيرنز الذى شغل منصب حاكم عام نيجيريا مدة طويلة[١] إن الحكومة البريطانية اضطرت إلى أن تمنع المبشرين المسيحيين من العمل فى الإمارات الإسلامية بل فى الولايات الوثنية التى فيها دعاة للإسلام ، بل لقد اضطرت الحكومة البريطانية إلى أن تقطع لمسلمى نيجيريا عهداً بألا تتدخل فى شئونهم الدينية بعد أن أعرب هؤلاء المسلمون عن اعتقادهم بأن الجمعيات التبشيرية إنما تعمل بإذن الحكومة ، وأن هذه الجمعيات لا تستطيع أن تباشر نشاطها إلا فى المناطق التى تضمن الحكومة البريطانية سلامتهم فيها . وكان من أثر ذلك أن انتشر الإسلام بين أهالى نيجيريا ، حتى أصبح أكثر من نصف سكان مدينة « لاغوس » اليوم مسلمين[١] .

وهذه السياسة التى لجأت إليها انجلترا صادرةٌ — بلا شك — عن فكرة استعمارية اقتصادية لا عن دافع دينى ، إذ خشيت من إقلاق الأهالى لها وقيامهم فى وجه الاستعمار البريطانى من زاوية دينية .

---

(١) History of Nigeria, p. 249 et seq.

ويقوم بتدريس العلوم الإسلامية فى « كانو » مهاجرون يحفظون القرآن الكريم ويلمون باللغة العربية وينشرونها بين الناس ، وفى كل مدينة من مدن شمالى نيجيريا مدارس يشرف عليها فقهاء يسمون Malams وهى تحريف لكلمة معلمين كما هو واضح . ويلحق الأطفال بالمدرسة فى سن مبكرة ، وقد يرسل هؤلاء الأطفال إلى مدن بعيدة أو يوفَدُ إليهم المعلمون الذين يحترفون التجارة غالباً ، إذ كان المعلمون يحترفون التجارة طلباً للعيش ، وهذا يدل على أنّ تعليمهم الإسلام كان صادراً عن إخلاص دينى لا يبتغون به إلاّ وجه الله ، ويتعلم الأطفال فى هذه المدارس ساعة قبل شروق الشمس ، وساعة قبل غروبها حتى يستطيعوا أن يعاونوا ذويهم فى أعمالهم .

وتكاد تكون مناهج التعليم فى هذه المدارس واحدة ، بمعنى أنها تقوم على نشر الدين الإسلامى ، فتُعْنى بتعليم الفرائض وتلاوة القرآن وحفظه وتفسيره بالعربية أو باللغة القومية المحلية ، أما طلاب الفرق الراقية فإنهم يتلقّون دروساً فى الحديث والفقه والتوحيد . وقد شهدت الأيام الأخيرة نهضة جديدة فى هذه البلاد ؛ فقد أنشئت مدرسة العلوم العربية فى « كانو » ، وبدأ الناس يتعلمون ويتفقهون فى الدين . وهناك اتجاه إلى إدخال اللغة العربية فى برامج التعليم فى مدارس الدولة .

كذلك أدخلت دراسة اللغة العربية فى مدينة زاريا Zaria وتقع شمالى نيجيريا وجنوب شرقى كانو ، وحاضرتها زاريا ، وذلك بسبب الحاجة إلى المعلمين والقضاة ، كما دعت الحاجة إلى المعلمين والقضاة إلى إنشاء مدارس أو معاهد ، كالمعهد الإسلامى فى مدينة زنزبار فى شرقى القارة الإفريقية .

ويرجع أهل زاريا فى أصولهم إلى شعب الحوصا ، ويقول سير ألان بيرنز

فى كتابه تاريخ نيچيريا[1] إنّ علماء الأجناس اختلفوا فى أصل شعب الحوصا : فبعضهم يردّه إلى أصل هندى أو يهودى أو فينيقى ، ويقول الحسن الوزان (ليو الإفريقى) فى كتابه وصف إفريقية[2] إنه لايبعد أن يكون أهل الحوصا من أصل مصرى ، وإنهم يشبهون صور المصريين المنقوشة على القبور فى عهد الهكسوس ، ويكاد هؤلاء المؤرخون يتفقون على أمر واحد هو أنّ هؤلاء القوم جاءوا من صعيد مصر ، وأنهم هاجروا غرباً عن طريق بلاد المغرب ، ثم انحدروا إلى المحيط الأطلسى ، فاستقر بعضهم هنالك ، ومضى بعضهم الآخر قدُماً حتى بلاد السنغال ، ثم أخذوا فى القرن الثالث عشر يهاجرون شرقاً ويتدفّقون إلى شمالى نيچيريا .

وفى النصف الأول من القرن الخامس عشر استولى على زاريا أقوامٌ من فوتا تُورا Fouta Touro وأجلسوا امرأة على العرش ، وأسسوا مدينة زاريا حول سنة ١٥٣٦ م ، وذلك فى عهد زاكزاك وهو الثانى والعشرون من ملوكهم الذى ظل المُلك فى عقبه حتى سنة ١٨٠٢ م . ثم استولت أسرة أخرى على هذه البلاد . ويحترف أهل زاريا التجارة التى يجنون من ورائها ثروة طائلة . ويمتاز جو مملكة زاريا بشدة حرارته فى جزء من البلاد ، وبشدة برودته فى الجزء الآخر ، حتى إن الأهالى لا يحتملون جو الشتاء .

ويذكر الحسن الوزان أن الحبوب والفواكه تزرع بكثرة ، وأنه كان يحكم هذه البلاد ملك مستقل ، ولكنه قتل على يد أشكيا أو الحاج محمد ملك جاَو Gao ببلاد الحوصا الذى أعلن نفسه ملكا على هذه البلاد . وإلى إمارة « زاريا » يرجع الفضل فى نشر الإسلام فى أواسط نيچيريا ، على حين كانت

---

(١) Sir Alan Burns, History of Nigeria, pp. 41—42.

(٢) Tome II, pp. 477—478, netes 92,93

إمارة « كانو » تنشر هذا الدين فى منطقة « برنو » (بضم الباء وسكون الراء) فى الشرق[١] .

ومن مراكز الثقافة الإسلامية فى التيجو كتسينا Katsena حاضرة الإمارة التى كانت تسمى باسمها .

وتقع مدينة « كتسينا » Katsena على بعد ١٦٠ ميلا شمال شرقى مدينة « كانو » ، ويحيط بها كثير من التلال ، وأرضها صلبة ولكنها صالحة لزراعة الذرة والشعير . وتمتاز بشرة أهلها بسوادها الحالك ، كما يمتازون بالأنوف المفرطحة والشفاه الغليظة . وقد ذكر السعدى[٢] أن أسكيا Ischia الحاج محمد ملك جاو ببلاد الحوصا غزا كاتسينا فى أواخر السنة العاشرة من حكمه (١٥١٢ م) ثم غزاها فى السنة الثالثة[٣] .

ثانيا — الثقافة العربية فى شرق إفريقية

١ — السودان

كان لدخول القبائل « العربية » فى السودان ، سواء من الشرق أو الشمال ، أو اتجاههم جنوبا وغربا ، أو تسربهم من شمالى إفريقية ، أثر بعيد فى تعريب السودان ، وفى إدخال الإسلام إلى ربوعه . ومما ساعد على غلبة العرب ، أنهم عنصر قوى استطاع أن يفرض سيطرته بتزاوجه مع بيوتات المملكة القائمة . وهكذا استولى العرب على الممالك السودانية المعروفة فى ذلك العصر ، وبسطوا سلطانهم ونشروا دينهم وحضارتهم ولغتهم وثقافتهم .

(١) حسن ابراهيم حسن : انتشار الإسلام فى القارة الإفريقية ص ٧٣ .

(٢) تاريخ السودان ص ١٢٩ .

انظر : حسن ابراهيم حسن ص ١٥٢ من الأصل .

(٣) V. Urvoy, Histoire des Populations du Sudan Central, p. 32.

ولم تكن هذه القبائل هم الرواد الأوائل للثقافة الإسلامية فى السودان ؛ فقد وفد إلى البلاد قوم من العرب أو من المستعمرين ، أو من بقايا الجيوش المحاربة الهاربين من الضغط السياسى ، أو من الدعاة الذين كان لهم الفضل فى نشر التعاليم الفاطمية التى ذاعت فى شمالى السودان فترة من الزمن ، حتى استطاع الأيوبيون أن يقضوا على الخلافة الفاطمية وأدى ذلك إلى زوال المذهب الفاطمى من السودان . ولم يكد السودان يزداد معرفة بالثقافة الإسلامية ، حتى لقنه السلاجقة والأتراك العثمانيون أصول الدعوة الإسلامية على وفق عقائد الجماعية والسنة . فانتشر مذهب أبى حنيفة على نطاق واسع ، كما انتشر المذهب الشافعى . على أن الثقافة العربية فى السودان ازدهرت فى ظل ممالك ثلاث هى :

أولاً : مملكة تَقَلى (بفتح التاء والقاف) التى تأسست حوالى سنة ١٥٧٠ م واستمرت إلى أواخر القرن التاسع عشر .

ثانياً : مملكة الفونج (١٥٠٥ — ١٨٢٠ م) .

ثالثاً : مملكة دارفور (١٦٣٧ — ١٨٧٥ م) .

ويرجع فضل مملكة تَقلى على الثقافة العربية إلى الأحوال التى أدت إلى قيامها . فقد أسسها رجل من الزهاد الجعليين نزل هذه البلاد واجتذب قلوب الأهلين بورعه وسمو خلقه ، واستطاع أن يؤسس ملكاً له ولأولاده من بعده . وكانت سياسته وسياسة خلفائه تهدف إلى نشر الإسلام والثقافة العربية ، وإلى التزاوج من القبائل النوباوية . وبفضل هذه السياسة انتشرت العروبة فى النوبة الشرقية غربى السودان .

وقد استطاع الفونج ، كما أسلفنا ، أن يؤسسوا مملكتهم على أنقاض الممالك المسيحية . واتسع هذا الملك وشمل عدة إمارات امتدت من الشلال الثالث شمالا إلى حدود الحبشة جنوباً وشرقاً إلى البحر الأحمر . وفى هذا العصر نشطت

الدعوة الإسلامية واشتدت الرغبة فى النهوض بالدين الإسلامى . وكانت أساليب الدعوة ذات طابع سلمى فى أغلب الأحيان ، وأنشئت مدارس كثيرة لتعليم القرآن والفقه والتوحيد .

وكان الحجاز منبعاً للحركة العلمية والدعوة الإسلامية فى بلاد السودان . ويظهر أن كلا من الحج والتجارة بين السودان والحجاز قد ساعدا على تشجيع هـذه الحركة العلمية . فإن الحجاج السودانيين الذين كانوا يرحلون إلى مكة ويقيمون فيها بعض الوقت ، كانوا يصحبون عند عودتهم بعض الفقهاء الحجازيين. وقد استوطن بعض هؤلاء الفقهاء بلاد الفونج وأنشئوا الزوايا وعملوا على نشر الإسلام ، ومضى بعضهم قدما صوب الغرب حتى بلغوا دارفور وكردفان . على أن إنشاء الزوايا لم يصادف فى دارفور مثل النجاح الذى صادفه فى البلاد الممتدة على النيلين الأبيض والأزرق شرقاً ، وفى تمبكتو ، وكانوا ، وكتسينا غربا[١] . كذلك كانت بلاد المغرب منبعاً آخر للثقافة الإسلامية فى عهد الفونج الذين استقدموا عدداً كبيراً من العلماء المغاربة . ويذكر محمد ضيف الله[٢] أن عدداً من علماء الفونج يرجع أصلهم إلى بلاد المغرب أو الأندلس . وكذلك تطلع الفونج إلى الأزهر : فكان الملك بادى الأول (١٦١١ — ١٦١٦ م) على صلة بعلماء مصر ، وكان يرسل إليهم الهدايا والصلات . وكان السودانيون يلتحقون بالأزهر ثم يعودون إلى بلادهم يعلمون اللغة والتوحيد والفقه ، حتى لقد أصبحت مملكة سنار المركز العلمى لشرقى السودان وغربيه .

على أن الطابع الثقافى فى عصر الفونج كان طابعاً صوفياً . وإلى الثقافة الحجازية والمغربية يرجع الفضل فى نشر التصوف . وقد مهـدت الأحوال

---

(١) Trimingham, Islam intue Sudan, pp.(100—101).

(٢) كتاب الطبقات فى خصوص الأولياء والصالحين والعلماء والشعراء فى السودان (طبعة المطبعة المحمودية بالقاهرة) ص ٩١٣ .

الاجتماعية ولا سيما العصبيات القبلية التى كادت تمزق البلاد ، السبيل لانتشار الفرق الصوفية ، فوجد الناس فى المشايخ الذين يدعون إلى الانتظام فى سلك العبادة وسيلة لتخليصهم من هذه الاختلافات ، لأن الجماعات الصوفية تدعو إلى الألفة بين أعضائها . وفى عصر الفونج انتشرت طائفتان كان لهما أثر بعيد فى نشر الثقافة العربية .

الأولى : هى القادرية وهى أوسع الجماعات الدينية انتشاراً كما تقدم .

الثانية : هى الشاذلية وتنسب إلى أبى الحسن الشاذلى الأندلسىّ . وقد انتشرت هذه الطريقة فى المغرب الأقصى (مراكش) فى القرن الخامس عشر الميلادى ، ثم دخلت السودان فى عهد الفونج ، فرسخت أقدامها على يد الشيخ خَوجَلى (بفتح الخاء وكسر الواو وفتح الجيم) عبد الرحمن المحسِّى[١] المتوفى سنة ١٧٤٣ .

ومن أهم مراكز الثقافة فى عصر الفونج : الخلوة ، والمسجد ، والزاوية . والخلوة أقدم هذه الأماكن ، يدرس فيها القرآن والكتابة والقراءة ومبادىء الحساب . وقد انتشرت فى القرن السادس عشر فى جزيرة سنار والنيل الأبيض حيث أنشئت خمس عشرة خلوة[٢] . وكذلك شأن المساجد التى أصبحت معاهد دينية يلتقى فيها التلاميذ لحضور حلقات الدرس . وكانت الدراسة فى المسجد أرفع مستوى من الدراسة فى الخلوة ، على حين كانت الزاوية تجمع بين السكنى والعبادة والدرس . هذا وقد انتشرت الزوايا فى جميع بلاد الفونج[٣] ، حيث ظلت الثقافة العربية مزدهرة ثلاثة قرون . لكن التعصب القبلى وسياسة العزلة

---

(١) نسبة إلى المحس إحدى قبائل النوبة .

(٢) الدكتور عبد المجيد عابدين : تاريخ الثقافة العربية فى السودان ص ٦٢ — ٦٣

(٣) Trimingham., Ibid, p. 115.

التى رسمها حكام الفونج قد مهدا لانحلال هذه المملكة ، واستطاع محمد على أن يقضى عليها سنة ١٨٢٠ .

وقد نالت الثقافة العربية الإسلامية من تشجيع ملوك دارفور ما نالته من تشجيع ملوك الفونج . فقد احتل المتعلمون أعظم مكانة بعد هؤلاء الذين يشغلون المناصب الكبرى فى الدولة . وهم يحتلون بين الماندنجو مكانة أعظم شأناً ، وينالون احتراماً يلى احترام الملك . وهم موضع التبجيل والتكريم ، ليس فى البلاد الإسلامية وحدها ، بل فى القرى الوثنية التى يؤسسون فيها مدارسهم . ويحترمهم الناس باعتبارهم معلمى أبنائهم ، ويعدونهم واسطة بينهم وبين الله ، سواء فى قضاء حاجاتهم أو فى دره المصائب وصرفها عنهم . وقد تلقى كثير من هؤلاء المعلمين دراساتهم فى مدارس القيروان وفاس وطرابلس وغيرها من مراكز الثقافة الإسلامية . وقد قيل إن أكثر من ألف من دعاة الإسلام يغادرون طرابلس كل سنة إلى السودان . وقد درس هؤلاء الدعاة بصفة خاصة فى الجامع الأزهر الذى يهرع إليه الطلاب من أرجاء العالم كافة . ومن بينهم جماعة من زنوج إفريقية ، وطلبة من دارفور ووداى وبرنو . وينشىء هؤلاء المعلمون فى المدن التى يزورونها مدارس يختلف إليها الأطفال الوثنيون والمسلمون على سواء ، فيحفظون القرآن ويتفقهون فى عقائد الإسلام وشعائره[1] .

وبعد أن احتل البريطانيون مصر سنة ١٨٨٢ وفرضوا الحكم الثنائى على السودان ، ثم انفردوا بحكمه ، بدءوا يدخلون من الثقافة الغربية ما يلائم حاجتهم . وكان الهدف الأول من التعليم هو إمداد الحكومة بحاجتها من الموظفين . ولهذا أنشئت كلية غردون سنة ١٩٠٢ ، وكان التعليم فى الكلية

---

(١) سير توماس أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ، ترجمة ص ٢٩٨ .

استعمارياً خالصاً . ويرى ترمنجهام[1] أن التعليم فى السودان كان يرمى إلى أغراض ثلاثة هى :

١ — خلق طبقة من الصناع .

٢ — إتاحة فرصة التعليم للناس بالقدر الذى يتمشى مع حاجة الحكومة فى الناحيتين الإدارية والقضائية .

٣ — إيجاد طبقة من الموظفين لشغل الوظائف الحكومية .

وبعد إنشاء مشروع الجزيرة دعت الحاجة إلى مزيد من الموظفين الإداريين . وكان خريجو كلية غردون يلتحقون بالوظائف اللازمة لهذا المشروع . مما يؤيد هذا القول أن إدارة التعليم كانت خاضعة للإدارة السياسية ، وكانت مراحل التعليم الأخرى تتمشى مع طبيعة التعليم فى كلية غردون . وإلى جانب هذه الكلية التى كانت فى مستوى المدارس الثانوية ، أنشأت الحكومة كثيراً من المدارس الإبتدائيـة . وقد اشتد الإقبال على كلية غردون بعد مقتل « سير لى ستاك » سنة ١٩٢٤ وانسحاب الموظفين المصريين من السودان .

وفى سنة ١٩٣٢ شكلت حكومة السودان لجنة لإصلاح التعليم . واقترحت هذه اللجنة التوسع فى التعليم الإبتدائى وإنشاء بعض المدارس الثانوية ، وأدى هذا إلى إنشاء معهد بخت الرضا للمعلمين سنة ١٩٣٤ ، وإلى الملاءمة بين إدارة التعليم والسلطات المحلية فى الأقاليم . ثم شعرت الحكومة البريطانية بمزيد من الحاجة إلى الملاءمة بين التعليم وبين مصالحها الخاصة ، فشكلت سنة ١٩٣٧ لجنة أخرى لدراسة حالة التعليم فى البلاد واقترحت هذه اللجنة تحويل كلية غردون إلى كلية جامعية وتحويل معهد بخت الرضا إلى معهد للمعلمين

---

(١) Islam in the Sudan, 254.

الثانوية . وفى سنة ١٩٤٥ أنشئت كلية غردون الجامعية ، وافتتحت فيها دراسات عليا فى الآداب والحقوق والعلوم والهندسة والزراعة والطب البيطرى . وقد أدى نمو الحركة القومية فى السودان إلى زيادة شعور السودانيين بالحاجة إلى مزيد من التعليم ، مما اضطر الحكومة إلى مضاعفة عدد المدارس الابتدائية والثانوية[1] .

ثم أعلن استقلال السودان فى أول يناير سنة ١٩٥٦ ، وتحولت كلية غردون الجامعية إلى جامعة الخرطوم التى ينتظر أن تمد السودان بحاجته من الأخصائيين فى جميع فروع المعرفة . وكان لمصر أثر واضح فى تطور النهضة الثقافية فى السودان ، وذلك عن طريق البعثات التعليمية التى كان أعضاؤها يوفدون إلى القاهرة للالتحاق بالأزهر أو الجامعات المصرية . وكان أساتذة معهد أم درمان الدينى نفسه من خريجى الأزهر الشريف . كما كان لتطور الطباعة ونهضة الصحافة فى مصر أثر ملحوظ فى السودان . فقد كانت الصحف المصرية — ولا تزال — واسعة الانتشار ، وكان المثقفون السودانيون يقبلون على ما تنتجه المكتبة العربية فى مصر ولا سيما فى النواحى الدينية والأدبية . وليس من شك فى أن إنشاء فرع جامعة القاهرة فى الخرطوم سيكون له أثر بعيد فى الوصل بين النهضتين السودانية والمصرية وتعاونهما الوثيق فى ميدان العروبة والإسلام .

٢ — الحبشة

يعد المذهب السنى أهم المذاهب فى الحبشة ، على الرغم من أنه أقل انتشاراً من المذاهب الإسلامية الأخرى . ومع أن المراكز الثقافية قريبة من بلاد الحبشة ، لم تستطع أن تؤثر فى هذه البلاد التأثير الكافى ، وأصبح مذهب السنة يتركز

(١) Trimingham, Ibid., pp. 258—260

فى المدن الساحلية وفى إمارة هرر . وهنالك تيار آخر ظهر فى القرن الماضى ، هو تيار الفرق الصوفية . وما يصحبه من حلقات للذكر وتقديس الأولياء ومظاهر تصوفية أخرى . على أن أهم العوامل أثراً فى الحياة الإسلامية فى الحبشة ، هى النظم الدينية القديمة ، ولا سيما النظم السكوشية التى تنسب إلى السكوشيين ، وهم أهل الحبشة القدماء . فقد أثرت هذه النظم السكوشية فى الحياة الاجتماعية وفى عقائد الناس وفى حياتهم الاجتماعية .

ولم يؤد انتشار الإسلام فى بلاد الحبشة وفى بعض مدن إفريقية الشرقية إلى توحيد البيئات الثقافية المختلفة برغم اشتراك الأحباش فى وحدة الدين . فظلت الشعوب الحبشية المختلفة تتمتع باستقلال ذاتى : لكل أولياؤها وطرقها الصوفية وأماكن عبادتها ومدارسها . وتعتبر مدينة هرر مثلا صالحا لهذه الحقيقة . ففى هذه المدينة اثنا عشر ألفاً من أهل هرر نفسها ، وعشرة آلاف من الجلا (بفتح الجيم واللام مع التشديد) ، وألف من العرب ، وألف من الصوماليين . ومع هذا لم تندمج هذه العصبيات بعضها فى بعضها الآخر ولم يتم اختلاطها : فإذا صلوا ، صلى كل فى مسجده خلف إمامه ، ولكل منهم كتاتيبه الخاصة ، بل لكل منهم مذهبه الخاص .

وأثر الإسلام فى مركز المرأة يتوقف على عمق الإيمان بهذا الدين . فكلما ازداد تمسك الناس بالسنة ، انخفض مستوى المرأة ، مع استثناء طائفة الجبرت (بفتح الجيم والباء وسكون الراء) ومدينة هرر ، حيث تتمتع المرأة بمكانة سامية فى الحياة الاجتماعية . ونقف على صحة هذا القول من رحلة محمد مختار المصرى الذى زار هذه المدينة إبان الاحتلال المصرى لها ، حيث شاهد عدم تعدد الزوجات وندرة الطلاق .

ويقوم بتطبيق المذهب السنى القضاة وأئمة المساجد ، والطلبة الذين تعلموا

فى هرر وفى بعض المدن الساحلية أو فى مصر والسودان . وإذا عاد هؤلاء إلى بلادهم أنشئوا كتاتيب لتعليم القرآن . وإلى هؤلاء يرجع الفضل فى نشر الإسلام والثقافة العربية . وتعد المدن المراكز الحقيقية للحياة الإسلامية . والمساجد لا تنشأ إلا فى المدن ، أما أهل القرى فإنهم يتخذون مُصَلًّى تحت شجرة ظليلة حيث يجتمع الناس فى أوقات الصلاة . وفى مساء الجمعة من كل أسبوع يجلسون فى هذا المكان فيرتلون القرآن ويقرءون الأوراد والسيرة النبوية وكتب الحديث والفقه .

والفقهاء ينشئون الكتاتيب فى كل مكان ، وتختلف أسماء المعلمين بحسب الأماكن التى يقيمون فيها : فأحياناً يسمى أحدهم شيخاً ، وأحياناً فقيراً ، وأحياناً فقيهاً . وفى بلاد الصومال اسم يطلق على المعلم يسمى « وداد » أو « كبير » ، وخاصة فى جنوبى الحبشة وهرر . . وفى هذه المدينة الأخيرة يطلق على صغار المعلمين اسم « مومى » . ولا يكاد يوجد مجتمع إسلامى وإن صغر عدده إلا وترى فيه مدرسة لتعليم القرآن برياسة أحد الفقهاء الذى يمتلك قطعة من الأرض ، ويشرك التلاميذ فى فلاحتها ، ويؤم الناس فى الصلاة تحت الشجرة . ويقوم فوق هذا بدور الطبيب أو الساحر ويمنح البركات ويكتب التمائم . فهو روح القرية، وهو الحفيظ على تعاليم الإسلام . وعلى الرغم من أن هذا التعليم قد ضحل ، نجد له أثراً بعيداً فى نمو الثقافة العربية فى هذه البلاد .

ويصحب انتشار الإسلام والثقافة العربية تطبيق الشريعة الإسلامية . وهذا التطبيق يتوقف على استعداد الحكام غير المسلمين كما يتوقف على التقاليد المحلية القائمة ، لأن كثيراً من القبائل تحتفظ بتقاليدها القديمة التى لا تريد أن تتحول عنها . وفى المدن ، حيث تقل العصبية القبلية ، يتيسر تطبيق الشريعة

---

(١) Trimingham, Islam in the Sudan pp. 225—229

الإسلامية . وقد أمكن تطبيق هذه الشريعة كذلك فى ظل الحكم الأوربى . وتعترف الحكومة الحبشية بالشريعة الإسلامية وبخاصة فى الأحوال الشخصية وفى المعاملات المدنية .

أما عن المذاهب السنية فإن انتشارها كان يتوقف على البلد الذى جاء منه كل من هذه المذاهب . ويعد المذهب الشافعى أوسع هذه المذاهب انتشارا ، ولا سيا بين الصوماليين والجَلاّ ، وقبائل الجَلاّ (بفتح الجيم واللام مع التشديد) على حين يقل أثر هذا المذهب فى إريترية . وترجع سعة انتشار المذهب الشافعى إلى أنه دخل بلاد الحبشة عن طريق بلاد العرب . أما بعض القبائل التى اعتنقت الإسلام عن طريق السودان ، فإنها تدين بعقائد مذهب مالك . ولما احتل المصريون إريترية وهرر وبعض المناطق الساحلية ، اتخذوا المذهب الحنفى المذهب الرسمى للدولة ، وأبقى الإيطاليون على هذا المذهب . وفى مدينة أديس أبابا مسجدان يؤمهما أتباع المذهب الحنفى ، وهنالك أيضاً بعض الإباضية من الخوارج ولا سيا بين المهاجرين من الصومال وإريترية ، وبعض الزيدية الذين هاجروا من بلاد اليمن .

وقد تم تبسيط الطرق الصوفية فى الحبشة لتلائم عقلية البدائيين من أهل البلاد . فلا تفرض قيود ثقيلة على الداخلين فى هذه الفرق ، كما لا تفرض عليهم بعض الطقوس الصوفية الأخرى . ويظهر أن الطرق الصوفية لم يكن لها وجود فى القرن الثامن الهجرى (الرابع عشر الميلادى) ، فى الوقت الذى زار فيه ابن فضل الله العمرى هذه البلاد . فهو يتحدث عن المدارس والخوانق والروابط والزوايا ولا يشير إلى الصوفية . والقادرية هى أول الفرق الصوفية التى دخلت بلاد الحبشة على أيدى المهاجرين من اليمنيين والحضارمة . وقد انتشرت الفرق الصوفية فى مصوع وزيلع ومقديشيو وبعض المدن الساحلية الأخرى ، حتى

جاء القرن التاسع عشر وبدأت الثورات الإسلامية تظهر فى بعض أرجاء العالم الإسلامى . وكانت هذه الثورات تهدف إلى إحياء الدين والرجوع بالإسلام إلى ماضيه المجيد . وقد امتد أثر هذه الثورات إلى القارة الإفريقية ، ولا سيا حركة السيد أحمد بن إدريس الفاسى ، وأشهر تلاميذه محمد بن على السنوسى . غير أن السنوسية لم تنتشر انتشاراً كبيراً فى بلاد الحبشة ، على حين انتشرت الميرغنية والختمية التى دخلت الحبشة عن طريق كسلا . وهناك فرق صوفية أخرى مثل الرحمانية ، وهى إحدى فروع الشاذلية ، وتنتشر فى سواكن ومصوع ، والسامانية وتنتشر فى جَبَرْت (بفتح الجيم والباء وسكون الراء) وإريترية ، والتجانية وتنتشر بين الجلا خاصة ، والرفاعية وتنتشر بين الصوماليين[1] .

وقد ذاعت بين مسلمى الحبشة عادة تقديس الأولياء ، وتنتشر أضرحتهم فى طول البلاد وعرضها ، وأغلبهم من الغرباء الذين وفدوا على البلاد وادعوا انتسابهم إلى الهاشميين . وقد ظهر فضلهم وتقواهم وتقشفهم وعلمهم ، فتأثر بذلك المسلمون الذين نالوا حظاً محدوداً من التعليم ولا سيا فى المدن والقرى . وكان هؤلاء الشيوخ يؤمون الناس فى الصلاة ، ويعلمونهم القرآن والحديث ؛ فإذا ماتوا أصبحت أضرحتهم مراكز للتعليم يفد إليها الحجاج من البلاد كافة . ومن أشهر هؤلاء الأولياء سيدى سعد الدين فى زيلع ، وسيدى عمر السكرى والأمير نور بن المجاهد فى هرر .

وهناك مستويان للثقافة الإسلامية فى الحبشة : أولهما يمثل الإسلام بين الرعاة والبدو ، وثانيهما يمثل الإسلام بين أهل القرى والمدن . وحظ الرعاة والبدو من الإسلام ضئيل ، وهم لا يعرفون من الإسلام إلا اسمه ، فلا يؤدون الصلاة ولا يصومون شهر رمضان ، وهم بحاجة إلى مزيد من التعليم . وإسلام أهل المدن

---

(١) Trimingham, Islam in Ethiopia, pp. 230—234.

أعمق من إسلام البدو ، فهم يصومون شهر رمضان ، و يؤدون الصلاة ، و يلبون نداء الجهاد كلما دعت الحاجة إلى ذلك . ونستطيع أن نقول إن الإسلام يتركز فى المدن والقرى . و يتم تسرب الإسلام بين الوثنيين من أهل البلاد على مراحل ثلاث :

المرحلة الأولى ــ حينما يقلد هؤلاء الوثنيون بعض مظاهر الحضارة الإسلامية كاللباس والطعام .

المرحلة الثانية ــ حينما يقتبسون من الدين الإسلامى نفسه و ينظرون إلى الفقيه والشيخ والمعلم نظرتهم إلى ساحر القبيلة ، فيلجئون إليهم ليعالجوا مرضاهم بأساليبهم الخاصة ، و ينتهى اتصالهم بهم إلى دخولهم فى الإسلام غالباً .

والمرحلة الأخيرة ــ تتمثل فى دخولهم الإسلام عن اقتناع ، فيؤدون الصلاة و يصومون رمضان و يحجون بيت الله الحرام .

ومهما يكن من شىء ، فإن المسلمين فى الحبشة فى حاجة إلى أن يمد إليهم إخوانهم فى الدين يد العون فى إنشاء بعض المعاهد الإسلامية التى تبصر الناس بأمور دينهم وتثبت هذه العقيدة فى نفوسهم ، مثل المعهد الذى أنشىء فى مدينة أسمرا فى إريترية ، والذى يؤدى خدمات جليلة للمسلمين فى شرقى إفريقية[١] .

٣ — الصـــومال

كان نظام التعليم الإسلامى منذ عهد بعيد محصوراً فى المدن الساحلية وفى مدينة هرر . ولـكن فى خلال القرن التاسع عشر كان للنهضة الإسلامية أثر كبير فى انتشار الإسلام والتعاليم الإسلامية المستمدة من القرآن والسنة . وقد قام

(١) Trimingham. Islam in Ethiopia, pp. 247,270—272.

المشايخ بتأسيس جميع أنواع المدارس فى المراكز الإسلامية . ولا سيما فى منطقة هرر ، وفى كل أرجاء إريترية والصومال وغيرها .

ويدير المعلمون مدارس لتعليم القرآن فى جميع المراكز الإسلامية ، ويطلق على المعلم فى شمالى الحبشة شيخ أو فقير كما تقدم ، وفقى (جمعها فقراء لا فقهاء ، كما يطلق على الذين يشتغلون بالشريعة الإسلامية) ، وو داد (جمعها ودادين) فى الصومال ، وكبير فى هرر وبين قبائل الجلا فى جنوبى الحبشة . وحيثما وجدت جماعة إسلامية ، تجد بينهم واحداً يحفظ القرآن ويدير مدرسة ، وهو يمتلك قطعة من الأرض يزرعها بمعونة تلاميذه ، ويؤم الناس للصلاة فى القرية فى المكان التقليدى تحت الشجرة المقدسة فى القرية ، وأحياناً يزاول الطب . والمدرسة هى المركز الرئيسى للحياة فى القرية ، والمعلم هو الذى يحافظ على الدين . والأولاد يحفظون القرآن ويعرفون شعائر الوضوء والصلاة[١] .

٤ — زنزبار

انتشار اللغة السواحلية فى شرقى إفريقية بوجه خاص

انتشرت اللغة السواحلية انتشاراً عظيما ، وعم استعمالها جميع الطبقات ، وأصبحت اللغة القومية الرسمية على طول الساحل الشرقى للقارة الإفريقية ، كما غدت لغة التجارة فى المخاطبات بين القبائل فى كل أرجاء إفريقية الشرقية . وتعتبر السواحلية (أو كى سواحيلى) من لغات البنتو (بفتح الباء وسكون النون) ، وتشتمل على مفردات ضخمة من اللغتين العربية والبرتغالية أولا ثم من الإنجليزية . وتعد السواحلية من أهم اللغات الأكثر تداولا فى العالم .

والسواحلية لغة لطيفة تطرب السامع . فإن الحركات التى تنتهى بها كلماتها ،

---

(١) Trimingham, Islam in Ethiopia, pp. 142, 229—230.

والحركات التى على ما قبل أواخر الـكلمات تجعلها قريبة الشبه فى النطق باللغة الإيطالية . وقد جاءت حركاتها الحلقية من اللغة العربية . وقد تلطفت هذه الحركات بحيث يستطيع الأوربى أن ينطق بها بسهولة . ويتكلم أهالى شمالى مدينة ممبسة بجزيرة لامو التى تعد أصل اللغة السواحلية بهذه اللغة خالصة نقية . وقد انتشرت السواحلية تدريجيًا نحو الجنوب ، وعلى الساحل الإفريقى الشرقى وفى الجزر حتى وصلت إلى بلاد موزمبيق . لذلك امتزجت شيئًا فشيئًا بألفاظ وتعبيرات عربية وفارسية وهندية وبرتغالية وغيرها . وقد استعربت هذه اللغة ببلاد زنزبار بوجه خاص .

وآداب اللغة السواحلية وافرة المادة نوعًا . فقد ترجمت إليها التوراة وغيرها من الـكتب المسيحية ، ونشرت بها عدة رسائل عن الأمثال الدارجة وحكايات وأقاصيص وأشعار مختلفة . وقد انتشرت السواحلية وأصبحت لغة المعاملات التجارية والمالية (Lingua franca) كلغة الحوصا فى أراضى تبلغ مساحتها نحو ألف فرسخ وقد نقلها الملاحون والتجار من الأهالى على سفنهم من الساحل الشرقى للقارة الإفريقية إلى الثغور البحرية ببلاد الصومال وعدن ، وعلى الساحل الجنوبى ببلاد العرب حتى الخليج العربى والمحيط الهندى ، ووصلت إلى بمباى وانتشرت جنوبًا ببلاد موزمبيق وجزائر قمر ومدغشقر .

كما انتشرت اللغة السواحلية على أيدى التجار فى داخل القارة الإفريقية ، وهى منتشرة فى بعض جهات أوغندة وفى أجزاء من جنوبى السودان . وإذا سرت فى النيل من أوغندة شمالا رأيت مدى انتشار اللغة العربية التى يتكلمون بها بلهجات مختلفة فى معظم أرجاء السودان ومصر ، والتى أخذت تحل محل اللغة السواحلية باعتبارها لغة المعاملات التجارية والمالية . كذلك انتشرت اللغة السواحلية فى حوض الـكونغو وفى جميع أرجاء نياسالاند ، وهى شائعة الاستعمال

فى تنجانيقا ، حيث لا تجد قرية لايتكلم أهلها اللغة السواحلية . كذلك تنتشر السواحلية فى فكتوريا نيانزا وفى سفوح جبال كليمنجارو ، وكينيا ، بحيث أصبح لا غنى عنها للسائحين والدعاة والمبشرين الذين تربطهم علاقات تجارية بأمم إفريقية الشرقية[1] .

ويذكر « أندرسون » أن اللغة السواحلية فى زنزبار التى تمثل اختلاط المهاجرين العرب بدماء البَنْتُو الحاليين ولغاتهم ، انتشرت أيضاً بين السكان الأصليين ، مثل الديجو (Digo) فى مستعمرة كينيا ، والياوو (Yaos) فى شرقى إفريقية البرتغالية ونياسالاند وتنجانيقا ، كما انتشرت بين بعض القبائل والبطون وبعض الأفراد فى تنجانيقا ، وبصورة أقل فى كينيا وأوغندة ، كما انتشرت بين الجلا وبين الصوماليين الذين يلاحظ أن التأثيرات العربية فيهم مباشرة ومستمرة . وقد قام معلمو المدارس من السواحلية بنشاط ملحوظ بين الأهالى الذين يقيمون فى الداخل على مسافة قصيرة من الساحل . ثم تضاعف هذا النشاط فى مستهل القرن العشرين حتى مقاطعة كليمنجارو شمالا وبحيرة نياسا جنوبا[2] .

وقد ذكر « لورينزو تيرنر » عند كلامه على علاقة التعليم الغربى بالحياة الإفريقية ما سماه بمشكلة اللغة فى مدارس إفريقية الشرقية والوسطى فقال : إن المسئولين عن التعليم أوصوا بتعليم اللغة الوطنية فى السنين الأربع من المدارس الابتدائية ، وذكروا أنه ينبغى أن تكون هذه اللغة أداة للتعليم عدا السنة

---

(١) حسن إبراهيم حسن : وصف إثنغرافى لأشهر الأمم التى تسكن شرقى إفريقية ، رسالة خطية .

أنظر أيضاً East Africa (ed. by Gordon—Brown, 1955), p. 359

(٢) Anderson, Unity and Variety in Muslim Civilization, pp. 14, 261, 275.

الأخيرة ، كما رأوا أن يستمر هذا النظام فى بعض مواد الدراسة فى المرحلة الأولى من المدرسة الثانوية ، وأن يتوسع فى استعمال اللغة الإنجليزية كأداة لتعليم المواد الأخرى . أما فى المرحلة النهائية من المدرسة الثانوية ، فينبغى أن تكون اللغة الإنجليزية أداة للتعليم ، وأن تلغى اللغة السواحلية التى تعتبر لغة المعاملات التجارية والمالية من جميع المدارس ، وأن يعنى بدراستها على نطاق واسع فى مدرسة الدراسات الإفريقية فى كلية شرقى إفريقية الجامعية[1] .

ولا يزال لدى قبيلة أنتيمورونا بجزيرة مدغشقر إلى الآن مؤلفات خطية قديمة العهد مكتوبة بالحروف العربية . وقد حافظ بعض سلالة المهاجرين من العرب على استعمال الحروف العربية فى الكتابة . وفى دار الكتب الأهلية بباريس مخطوطات ملجاشية (بفتح الميم واللام) أو عربية مدونة بلغة عربية ممزوجة بكلمات ملجاشية . وقد أخذ الملجاش[2] فى كتابة لغتهم بالحروف اللاتينية[3] .

ومسلمو مستعمرة الكاب ، الذين هم من سلالة أهل الملايو كما تقدم ، يتكلمون لغة محرفة من لغة البوير ، مع خليط كبير من اللغة العربية ، وبعض كلمات إنجليزية وكلمات من لغة الملايو . ويذكر سير توماس أرنولد أن هناك كتابا صغيراً ألف بهذه اللغة وكتب بحروف عربية ، وأن هذا الكتاب نشر فى القسطنطينية سنة ١٨٧٧ ليستعمل كتيبا صغيراً لتعليم أصول الدين الإسلامى . وقد أضاف سير توماس أرنولد أن الداعى المسلم استطاع أن يحول جموعا أكبر

(١) Lorenzo Turner, Africa To-Day, p. 150.

(٢) يتكون الجنس الملجاشى أو الملجاش من الإفريقيين والعرب والملايو كما تقدم .

(٣) حسن إبراهيم حسن : وصف إتنغراف ص ١٠ .

بمجهود أقل من المبشر المسيحى[1] . ولعل ذلك راجع إلى تغلغل التفرقة العنصرية والتعصب الجنسى عند البيض فى هذه البلاد ، على حين يعامل المسلمون أهالى هذه البلاد على وفق المبادىء الإسلامية التى تقوم على أساس الحرية والإخاء والمساواة ، ولا تقيم أى اعتبار للجنس أو اللون فى النظام الاجتماعى .

ويتردد على مستعمرة الكاب كل عام جماعة من مسلمى البلاد الأخرى المتحمسين ، يبعثون بين إخوانهم فى الدين حياة دينية أعمق من تلك التى كانوا يحيونها ، ويقومون بالدعوة إلى الإسلام بين الأهالى السود ، ويثيرون اهتمامهم بالتعليم .

---

(١) الدعوة إلى الإسلام ، ترجمة ص ٢٩٤ — ٢٩٥ .

مصادر الكتاب

ابن الأثير (٦٣٠_١٢٣٨) على بن أحمد بن أبي الكرم .

١ — الكامل في التاريخ ١٢ جزءا (بولاق ١٢٧٤) .

الإدريسى (٦٤٩_١٢٥١) : محمد بن عبد العزيز الشريف الفاوى .

٢ — نزهة المشتاق (رومة ١٥٩٢ م)

٣ — صفة المغرب والأندلس ، نشره ، دوزى ودى غويه (ليدن ١٨٦٦) .

التادلى : يوسف بن الزيات

٤ — التشوف إلى رجال التصوف (الرباط ١٩٥٨) .

أرنولد : سير توماس و

٥ — The Preaching of Islam (London, 1935).

ترجمه إلى العربية حسن ابراهيم حسن ، وعبد المجيد عابدين وإسماعيل محمود النحراوى (القاهرة ١٩٤٧) الطبعة ثالثة تحت الطبع .

٦ — باسيه : هنرى Bassé, Henré

Ètudes. sur l'Histoire d'Ethiopie (Paris, 1882)

ت. ا باودبتش T. E. Bowdich

٧ — Mission to Anchanti (London, 1819)

بروفنساك : ليفى

٨ — الشرق الإسلامى والحضارة العربية الأندلسية (تطوان ١٩٣٩) .

ابن بطوطة (٧٨٩_١٣٢٧) : أبو عبد الله محمد الطنجى .

٩ — تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار المعروفة برحلة ابن بطوطة (٤ أجزاء باريس ١٨٥٣_١٨٥٨، ١٨٦٩_١٨٧٩)، جزءان (القاهرة ١٣٤٦ _ ١٩٢٨) .

بدج : ا. ا و Budge, E. A. W.

١٠ — History of Ethiopia, 2 vols. (London, 1938).

البكرى (٤٧٨_١٠٩٧) : أبو عبيد عبدالله ابن عبد العزيز .

١١ — المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب طبعة دى سلان (باريس ١٩١١).

البلاذرى (٢٧٩ _ ٨٩٢) : أحمد بن يحي ابن جابر .

١٢ — فتوح البلدان (القاهرة ١٣١٨هـ).

بيرتون: ريتشارد ف Burton, Richard F.

١٣ — First Footprints in East Africa (London, 1856).

بلاودون : و ك Plowden, W. C.

١٤ — Travels in Abyssinia and the Galla Country (London, 1868).

بلايدن : ا. و Blyden, E. W.

١٥ — Christianity, Islam and the Negro Race (London, 1888)

بيركهاردى : ج ل Burckhardi, J. L

١٦ — Travels in Nubia (London, 1819).

بيرنز — سير آلان Burns, Sir Alan

١٧ — History of Nigeria (London 1955).

ترمنجهام : سبنسر Trimingham, Spencer.

١٨— Islam in the Sudan (Oxford University Press, London, 1949).

١٩— Islam in Ethiopia (Oxford University Press, London, 1952).

ا ب: ثيوبولد A. B. Theobald

٢٠— The Mahdiya, A History of the Anglo-Egyptian Sudan, 1881—1899. (London, 1955).

دائرة المعارف الإسلامية

٢١— Encyclopaedia of Islam

ديفيدسن : باسيل . Davidson, Basil.

٢٢— Report on Southern Africa (London, 1952).

دوفيريه : هـ . Duveyrier, H.

٢٣— La Confrérie musulmane de Sidi Mohammed Ben 'Alî Es-Senousî (Paris 1886).

ديلافوس :موريس Delafosse : Mauris

٢٤— Les Confreries musulmanes et le maraboutisme dans les pays du Sénégal et du Niger (Renseignements coloniaux et Documents publié par le Comité de l'Afrique Française et le Comité du Maroc, No. 4, Paris, 1911).

جرونيباوم : ج. ا. فون Grunebaum, A. Von.

٢٥— Unity and Variety in Muslim Civilization (ed.by A. von Grunebaum), The University of Chicago Press, (Chicago Illinois; U. S A, 1955).

جوردون — براون — ا. Gordon — Brown A.

٢٦— Year Book and Guide to East Africa (1955).

جرينبرج : ج Greenberg, J.

٢٧— The Influence of Islam on a Sudanese Religion (New York, 1947).

الجزنائى : أبو الحسن على

٢٨— زهرة الآس فى بناء مدينة فاس (فاس ١٩٢٢)

جوينبول ودى غويه Juynboll et De Goeje

٢٩— Description du Maghreb (Leiden, 1860).

حسن أحمد محمود : الدكتور .

٣٠— قيام دولة المرابطين (القاهرة ١٩٥٧)

حسن ابراهيم حسن :

٣١— تاريخ الإسلام السياسى والدينى والثقافى والاجتماعى الجزء الأول (الطبعة السادسة، القاهرة ١٩٦٢) الجزء الثانى (القاهرة ١٩٦١، الطبعة السابعة تحت الطبع)، الجزء الثالث (القاهرة ١٩٦٢).

٣٢— وصف انثغراف لأشهر الشعوب التى تسكن شرق إفريقية، رسالة خطية صغيرة.

٣٣— تاريخ الدولة الفاطمية الطبعة الثالثة (القاهرة ١٩٦٣).

ابن حوقل (النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى : العاشر الميلادى)

٣٤ — المسالك والممالك والمفاوز والمهالك ، (ليدن ١٨٧٣) .

ابن خلدون (٨٠٨ـ٨٠٥ـ١٤٠٥ — ١٤٠٦) : عبد الرحمن بن محمد .

٣٥ — العبر وديوان المبتدأ والخبر ٧ أجزاء (القاهرة ١٢٨٤ هـ) .

ابن خلكان (٦٨١ـ١٢٨١) : شمس الدين أبو العباس الشافعى .

٣٦ — وفيات الأعيان ٦ أجزاء (القاهرة ١٣٦٩ـ١٩٥٠) ترجمه إلى الإنجليزية دى سلان (باريس١٨٤٢ — ١٨٤٨)

ابن أبى زرع : أبو الحسن على بن عبد الله

٣٧ — الأنيس المطرب بروض القرطاس فى أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينةفاس (أبسالا ١٨٤٤) (الرباط ١٩٣٦) .

ابن زيدان : عبد الرحمن .

٣٨ — إتحاف أعلام الناس بجمال حاضرة مكناس ، ٥ أجزاء ، (الرباط ١٩٢٩)

السعدى : عبد الرحمن بن عبد الله بن عامر

٣٩ — تاريخ السودان (باريس ١٨٩٨) .

ابن سعيد (٦٧٣ـ١٢٧٥) : على بن موسى المغربى .

٤٠ — كتاب المغرب فى حلى المغرب والمشرق فى حلى المشرق (ليدن ١٨٩٨ـ١٨٩٩) (القاهرة ١٩٥٣ نشره زكى محمد حسن ، وشوقى ضيف وسيده اسماعيل كاشف) .

٤١ — السلاوى : الاستقصا (الدار البيضاء ١٩٥٤) .

سيدر كويست Cederquist

٤٢ — Islam and Christianity in Abyssinia (1912).

شقير : نعوم

٤٣ — تاريخ السودان القديم والحديث (طبعة القاهرة) ٣ أجزاء (القاهرة ١٩٠٤) .

شنوك هيرجرونيه Snouck Hurgronje

٤٤ — Makka (The Hague, 1889—9)

شهاب الدين Shihâb ad-Din

٤٥ — Futûh al-habasha, ed. and trans. by R. Basset (Histoire de la Conquête de l'Abyssinie).

الشهرستانى

٤٦ — الملل والنحل (القاهرة ١٣١٧هـ) .

ضيف الله : محمد

٤٧ — كتاب الطبقات فى خصوص الأولياء والصالحين والعلماء والشعراء فى السودان (القاهرة) .

الطبرى (٣١٠ـ٩٢٢) : أبو جعفر محمد بن جرير .

٤٨ — تاريخ الأمم والملوك ١٢ جزءا (القاهرة ١٣٢٦ هـ)

عبد المجيد عابدين : الدكتور

٤٩ — تاريخ الثقافة العربية فى السودان (القاهرة ١٩٥٣) .

٥٠ — بين العرب والحبشة (القاهرة ١٩٤٧)

ابن عذارى (توفى فى أواخر القرن السابع الهجرى) أبو محمد عبد الله المراكشى .

٥١ — البيان المغرب فى أخبار المغرب ٣ أجزاء ، نشره دوزى (ليدن ١٨٣٨ — ١٨٥١) .

عرب فقيه .

٥٢ — فتوح الحبشة ، نشره رينيه باسيه (باريس ١٨٩٧ — ١٩٠٩)

فورجيه : د. ا. Forget, D. A.

٥٣ — L'Islam et le Christianisme dans L' Afrique Centrale (Paris, 1900).

فورنيل : هنرى Fournel : Henri

٥٤ — Les Berbères. Étude sur La conquête de L'Afrique par les Arabes (Paris, 1875).

فيدج : ج. د. Fage, J. D.

٥٥ — An Introduction to the History of West Africa, Cambridge, The University Press, 1955.

٥٦ — القلقشندى (٨٢١ — ١٤١٨) : أبو العباس أحمد ، صبح الأعشى فى صناعة الإنشا ١٤ جزءا (القاهرة ١٩١٣ — ١٩١٧) .

كوبلاند Coopland, East

٥٧ — Africa and Its Invaders

كولبروك: سيرت ا. Colebrooke, T.E.

٥٨ — The Life of H. T. Colebrooke (London, 1873).

ليو الإفريقى : Leo Africanus,

٥٩ — Della Discrittione dell' Africa, par Giovani Lioni Africano (Freneh and English Translations).

ماس لاترى : ج ل. دى Mas Latrie

٦٠ — Relations et Commerce de L'Afrique Septentrionale avec les nations Chretiennes au moyeu âge (Paris, 1886).

مجلة العالم الإسلامى .

٦١ — Revue du monde Musulmane, Publié Par La Mission Scientifique du Maroc.

المسعودى (٣٤٦—٩٥٦) : أبو الحسن على

٦٢ — مروج الذهب ومعادن الجوهر جزءان (القاهرة ١٣٤٦ ه) ترجمه إلى الفرنسية باربييه دى ميار (باريس ١٨٦١—١٨٧٧) (القاهرة ١٣٤٦ه)

المقريزى (٨٤٥ — ١٤٤١) : تقى الدين أحمد ابن على .

٦٣ — المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار جزءان (بولاق ١٢٧٠ ه) .

مور : فرانسيس Moore, Francis

٦٤ — Travels in the Inland Parts of Africa (London, 1760).

موريل : ا د Morel, A. D.

٦٥ — Nigeria, Its People and Its Problems (London, 1911).

ميك : ك ك Meek, C K.

٦٦ — The Northern Tribes of Nigeria (London, 1925).

ابن هشام (٢١٨—٨٣٣): أبو محمد عبدالملك

٦٧ — كتاب سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ٤ أجزاء (القاهرة ١٣٣٦ — ١٣٣٧ه)، طبعة وستفلد (١٨٥٨— ١٨٦٠) .

هينز — جروف Haines, Grove

٦٨ — Africa To-Day (ed. by G. Haines), The Johns Hopkins Press, Baltimore, U.S.A., 1955.

الوزان (٩هـ — ١٥م) أبو الحسن محمد الزياتى (او لإفريقى)

٦٩ — Description de l'Afrique (ed. Charles Schefer).

تصحيحات

نعتـــذر للقارىء عن وقوع بعض أغلاط مطبعية نوردها هنا مع إصلاحها :

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٥٦	٢٣	Udity	Unity
٢١١	٤	ليبيا	حاضرتها طرابلس
٢١٥	١١	شمالى	شمال
٢١٩	٢٣	Fuynbollet	Juynboll et
٢١٩	٢١	tone	tome
٢٢٠	١٥	Africanis	Africanus
٢٢٦	٢٢	netes	notes
١٧٩	٢٢	زمبرى	زمبيزى
١٩٤	٨	زنزبار	وزنزبار

القاهرة
مطبعة السنة المحمدية
١٧ شارع شريف باشا الكبير ـ عابدين
ت : ٩٠٦٠١٧

الثمن ٣٥ ص